

سلسلة أعلام الفكر العالمي





تروتسكي

فنج هاو

ترجمة: نديم خوري



تروتسكي

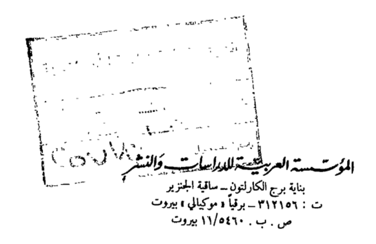


سلسلة أعلام الفكر العالمي

تروتسكي

تأليف: ارفنج هاو

ترجمة: نديم خوري



المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون ـ ساقية الجنزير
ت : ٣١٢١٥٦ ـ برقياً « موكيالي » بيروت
ص . ب . ١١/٥٤٦٠ بيروت

الطبعة الاولى
أيار (مايو) ١٩٧٩

المقدمة

ما هذا إلاّ كُتَيّب يبحث في موضوع ضخم . ولقد كتبته لسببين : كديباجة عن حياة وأفكار شخصية رئيسية من شخصيات القرن العشرين ، وثانيا كنقد سياسي - ذهني للدور الذي لعبه في التاريخ العصري وتعليقاته فيما يختص بهذا العصر .

ولا غرو انه في كتاب من هذا الحجم يجب أن يُضْغطكل شيء . ولقد حَذَفْت اشياء كثيرة كان علي ان اذكرها لو كنت اهدف الى دراسة سيرة حياته ونظرته السياسية بصورة كاملة ، واذكر هنا على سبيل المثال : مناقشة ما كتبه تروتسكي عن الصين ، ومقالاته العديدة فيما يختص بالستراتيجية الثورية في اوروبا خلال العشرينات ، كتاباته العسكرية وجهوده لاعادة بناء حركة ثورية في الثلاثينات من القرن العشرين . بيد انني لا اتظاهر بانني انجزت عملي بصورة شاملة . لقد حاولت جهدي ان اقدم الخطوط الرئيسية لتطور افكار تروتسكي تلك الافكار التي يهتم بها كثيراً أيُّ قارىء رزين في عهدنا .

لا شك انه لا يمكننا فصل افكار تروتسكي عن خطة سيره كثائر ماركسي : لا يمكن بل ولا يجب انجاز ذلك بصورة منفردة وكانها مجرد

اسلوب : حقًا لا يظهر تأثيرها الرائع إلا عندما تبرز في حلبة النضال والحوار والكفاح . وهكذا فقد اعددْت هيكل سيرة مختصرة : كلمة عن حياته تساعد في عرض افكاره . ولكن هذه ليست سيرة حياة انما هي اطروحة سياسية ذات اساس روائي .

على كل حال فهناك سيرة رئيسية لحياته اعني مجلدات اسحق دوتشر الثلاثة . وقد اقتبست منها وانا اسرد قصة حياة تروتسكي اذ انني اعجب بانجازات دوتشر التاريخية مع انني اخالفه كثيراً فيما يختص ببعض افكاره السياسية . واسمحوا لي هنا ان اقدم جزيل شكري له لما قام به من عمل فذّ .

قد اساعد القارىء اذا قلت ان هذا الكتاب قد انبثق من علاقة ذهنية معقدة نوعا ما في ما يختص بموضوعه . وانني كمعظم علماء الاجتماع الامريكين وَقَعْتُ ولمدة قصيرة تحت تأثير سياسة تروتسكي . لقد مضى ما يقرب من عشرة عقود منذ ما اختبرته في ايام شبابي عن افكاره اما الآن ومع انني عالم اجتماعي او ربما لأنني ما زلت عالما اجتماعيا وجدتني ابتعد شيئاً فشيئاً عن افكاره . ولكنه بقي في نظري شخصية ذات ابعاد كلها بسالة واحاول ان انظر اليه بكل ما استطيع من موضوعية .

وانا اكتب هذا الكتاب اعتمدت على اطروحة كتبتُها عن تروتسكي في اوائل الستينات من القرن العشرين ، مستعملا بعض مواد الاطروحة وانما نقّحت عدداً من الافكار . وبما أن هذا الكتاب اطول من الاطروحة السابقة بحوالي خمس مرات وبمرور فترة زمنية طويلة من الطبيعي ان يكون بينهما فرق كبير .

وهذه كلمة شكر للعديد من الاصدقاء : مايكل هارنكتن ، امانويل جلتهان ، ستانلي بلاستريك ، ستيفن كوهن ومايكل ولزر : الذين تكرموا وقرأوا كل المخطوطة او اجزاء منها ولقد استعنت بكثير من اقتراحاتهم ولكنني انا وحدي مسؤول عن كل ما هنالك من اخطاء فيما يختص بالحقائق او الاغلاط في احكامي .



الفصل الاول :

الاعوام المبكرة ـ النظريات الاساسية

لقد كانت الثورة أمراً يكاد يكون لا بد منه لشاب ذي روح مستقلة يعيش في روسيا في اواخر القرن التاسع عشر . فالمجتمع القيصري في حالة تأخر وخمول . وتغطّت الحياة الدينية والاخلاقية بغشاء كثيف من الظلام ، وكانت العلاقات بين الناس وخاصة في الريف فظّة بشكل واضح ، وبعبارة أخرى علاقات فظة من حيث المبدأ . واعتقد حكام روسيا الاتوقراطيون بانهم يجب ان يسيطروا على الفلاحين بواسطة السوط والدين . وبالرغم من أن الأفكار الحرة العقلانية العلمانية بدأت تعمل مخترقة عقول المثقفين فقد استمرت روسيا الرسمية تُلْقي نظرات الاحتقار على الثقافة وقيمها . بيد ان الاساتذة الحديثين الذين أكدّوا بان هذا لم يكن مجتمعا توتاليتاريا (مستبداً بالسلطة) فكانوا حتما على حق . فلا هو كفئاً كفاية ، كما وانه لم يكن فيه حرارة كافية ليكون مجتمعا بهذا الشكل ، ولا وصل الى درجة من الحقد المضلل ليثير رعبا عقائديا وجسميا ، ففي روسيا القيصرية بدت السلطة وكأنها قبضة عارية عازمة على البقاء الى الابد : كما لو أن آسيا ستبقى الى الابد مصير الجنس البشري .

ومع ذلك ، ففي عدة عقود سبقت الحرب العالمية الأولى بدأت

تغيرات رئيسية تطرأ في آفاق المجتمع الروسي . نشأت الصناعات في المدن وأخذ العمّال يعرضون طلباتهم بشكل واضح وتسربت الافكار الثورية عبر الحدود ونفذت الى عقول طليعة من القادة المتحمسين ، نُظّمت الاحزاب وسُمِح لها ، نوعا ما ، بان تعمل . وربما كان اعظم تغيير اخلاقي بارز جاء على ايدي عظماء الكتاب الروسيين الذين اثاروا في كتاباتهم الاحساس بالعار وحرّضوا الضمائر والتطلع الى حب الكمال والمثالية . وليس هناك ظل من شك بان التقليد الجدي الاخلاقي الذي يميز الذهن الروسي وهو في احسن حالاته أبْرَزَ مجتمعا من القرّاء والكتاب اشتركوا في اظهار القلق والتحدث والتفكير عن مصير امتهم المعذبة .

في هذا المجتمع الروسي ولد ليون تروتسكي . لقد إتخذ هذا الاسم كثائر شاب اذ أن اسمه الحقيقي هو بف دافيدوفيتش برونشتاين (سنة ١٨٧٩ ـ سنة ١٩٤٠) ، من عائلة من اليهود الفلاحين الاغنياء التي كانت تعيش قرب البحر الاسود .

هذه الحياة اي حياة الفلاحة لم تكن عادية بين اليهود الروس فتفضيل العمل في مزرعةكبيرة ،على التجارة في مدينةمزدحمة ،حيث يكثر اليهود في (الجيتو) (الاحياء اليهودية) وتفضيل حياة الملاكين الذين يستطيعون ان يُسيئوا معاملة الفلاحين تماما كما يفعل الجنتايلز (غير اليهود) وكذلك التخليّ عن الورع الديني الذي ما زال يقبض على سلوك كثير من اليهود الاوروبيين الشرقيين بيد من حديد ومن هذا يتضح ان هذه الحياة الزراعية الغنية التي عاشتها عائلة برونشتاين ساعدت ولدهم على التخلي عن كل ما يتعلق بالتقاليد اليهودية التي فرضها المتدينون حتى وعلى اكثر ابنائهم تحرراً .

يبدو بان هناك بعض الدلائل التي تشير بان البرونشتاني الشاب قد نال في حداثته النزر اليسير من الثقافة اليهودية ولم يفكر والداه ابداً بان يكونوا جاهلين . وعندما ، فيما بعد ، كتب تروتسكي سيرة حياته مرّ مرور الكرام عن هذه الحقبْة من حياة طفولته فالثوار قلماّ يهتمون بكتبهم الدينية . في أواخر حياته بدأ تروتسكي يظهر نوعا من الاهتمام غير المتوقع في « المسألة اليهودية » بيد انه في اوائل شبابه تخلىّ كليا عن فكرة « اليهودية » تلك الفكرة التي اصبحت الآن في نظر الثوار اليهود الروس مجرد عنعنة (كلام منقول) .

وكشابٍ ذكي المعي انتاب تروتسكي القلق الشديد لما شاهد من البؤس بين الفلاحين وطالما تشاجر مع والده ، كما تقول الروايات ، بسبب سوء معاملته للفلاحين ،وما اكثر ذكرياته وهو يشعر بالعار الشديد لدى رؤيته فلاحة تنتظر بصمت مطبق طيلة النهار منتظرة كلمة واحدة من « برونشتاين الكبير » . وتقول الرواية انه عندما رأى والده مرة يسيء معاملة احد الفلاحين سارع الصبي « تروتسكي » الى البيت واستلقى على فراشه وقد نسي كل شيء ما عدا ما رآه . يقول : « واخذت أبكي بكاء مراً بالرغم من انني كنت طالبا وفي السنة الثانية » .

عندما اصبح تروتسكي في العاشرة من عمره أرْسل الى اوديسا حيث عاش مع أحد اقربائه المثقفين « مويسي سبنتزر »،هنا أخذ الصبي يتعرف على عالم الاحاديث الجدية والكتب والموسيقى والفنون واوديسا الميناء الواقعة في الجنوب ، والمشهورة بكونها وطنا عالميا يسهل الدخول اليه ، هذه المدينْة كانت تزخر بالمثقفين المتحررين الذين طالما زاروا عائلة سبنتزر . وهناك ايضا أخذ الصبيّ يتمتع بالتجول في انحاء المكاتب ليأخذ

من ثمار المعرفة اشهاها « نما في صميم قلبه ولع نحو الاوبرا الايطالية تلك الاوبرا التي كانت فخر اوديسا . « ولقد قمتُ ايضا باعطاء دروس خصوصية لاتمكن من كسب نقود كافية لشراء تذاكر لدخول دور التمثيل (التياترو) » يقول تروتسكي ايضا مضت عدة شهور وانا اهيم غراما بمغّنٍ « سوبرانو » تصاحبه موسيقى رائعة وبدا لي وكأنه قد انحدر من السماء وحط مباشرة في مسارح اوديسا . واذكر هنا رواية سردها اسحق بابل تتحدث عن فتى يهودي اصبح مشغوفا بمغّنٍ في اوبرا في اوديسا . هنا في اوديسا صُمّم أساس احساسات تروتسكي التي دامت طول حياته تلك الاحساسات التي تقول بان « المؤلفين والصحفيين والفنانين يمثلّون عالما اكثر جاذبية من أي عالم آخر . ولقد ساعدت اوديسا في جعل تروتسكي رجلا من رجال الغرب اكثر من أي ثائر روسي آخر .

ان اليقظة الثقافية تبرز عادة بصحبة الضمير الاجتماعي . وبالاضافة الى انكباب الصبي على مطالعة الكتب وارتياد المسارح انضم ايضا الى مظاهرة مدرسية ضد معلم اذاق احد الطلاب مُرّ العذاب لمجرد كونه من اصل الماني ، فطُرد تروتسكي من المدرسة لمدة سنة . ان مثل هذا الحادث يعتبر تافها في أيّ مجتمع حر ولكن حادثاً كهذا في روسيا القيصرية له تأثير عظيم اذ انه يشكل اخلاق الانسان حتى وتاريخ حياته . وعاد الصبي الى المدرسة وقد شعر باحساس زائد بقوته الفردية وبميول قوية للاستجابة الى طلبات الآخرين وفَهْم حقيقي لما تستطيع الاحداث ان تفعله كمحك للمصادر الخلقية . وعندما كتب تروتسكي سيرة حياته ،أوْلى هذه الحادثة اهتماما خاصا قال :

كانت هذه أول اختبار سياسي بالنسبة لي . وبعدها انقسم الصف

الى ثلاثة اقسام واضحة : الحسودين والنآمين من جهة والطلاب البواسل والصريحين من الجهة الاخرى ثم كتلة الحياديين والمتذبذبين في الوسط . هذه الفرق الثلاث لم تختف حتى وفي السنين التالية .

يبدو لي ان نظرة تروتسكي الى رفقائه الطلاب في هذه السنين المبكرة بهذه الصورة المحددة ،يبدو لي ، ان هذه النظرة يصعب تصديقها . فالفقرة السابقة ، نموذج لكتابة تروتسكي الكامل النضوج ، نموذج لاسلوب فكري لا يتماشى دائما مع اسلوبه الفكري المعروف . كان تروتسكي يعتبر نفسه ماركسياً ارثوذكسيا (مستقيم الرأي) لذلك فانه كان يُصر دائما على القول بان المقاييس الاخلاقية لا يمكن فهمها او تشكيلها بمَعْزل عن التأثيرات الحاسمة للظروف التاريخية . ومع ذلك فكأنه في الفقرة السابقة اراد ان يظهر بشكل بارز في عهد الصبا الشعور الذي اخذ يتحسسه فيما يختص بالكتابات الادبية المختلفة التي خطها الزعماء البلاشفة خلال العشرينات من القرن العشرين اولئك الذين انقطع عملهم امام البيروقراطية الستالينية واولئك « الاحرار البواسل » الذين استمروا مخلصين للعقائد البلشفية-انه يتحدث في تلك الفقرة عن رفقائه الطلاب بلغة القيَم الاخلاقية التقليدية . وما فتىء يقوم بنفس العمل طوال حياته مستخدما المقاييس الاخلاقية المستقاة من المنفعة الطبقية او المُخَفّضة لتصل الى مستواها . يتحدث عن الشرف والاخلاق والصدق وكانها اشياء ثابتة معروفة ، اذ في مكان ما في الماركسية الارثوذكسية عاش شعاع خفيف من الاخلاق الروسية في القرن التاسع عشر جدية وررومانطيقية .

لاتمام ثقافته انتقل برونشتاين الشاب سنة ١٨٩٦ الى مدينة

نقولايف . في هذه المدينة الريفية حصل تروتسكي على اسس الصناعة العصرية وتعرف على الطبقة الكادحة في عصره (البروليتاريا) هنا تعرف ولأول مرة على الافكار الاشتراكية . اعتادت جماعة من الطلاب والعمال أن تجتمع في كوخ بستاني لمناقشة الافكار الجوهرية (الراديكالية) ولم يمض وقت طويل حتى اصبح لبرونشتاين الصوت القائد بينهم والكلمة الفصل . وكأي يهودي آخر يعيش في اوروبا الشرقية كان تروتسكي شديد الذكاء ولكن علينا أن نعرف انه لم يصل الى ارائه السياسية الناضجة بصورة سريعة او دون تردد فكان في مبدأ الامر يتحدث عن نفسه كانسان يعتنق مبادىء حزب الشعب الروسي وهو مذهب عاطفي يُمجّد فضائل الشعب ويهاجم « التعسُّف الماركسي » وحدث في احدى اجتماعات هذه الجماعة في كانون الأول سنة ١٨٩٦ أن تروتسكي رفع كأسه متحدّيا شابة تعتنق الماركسية وصرخ بغضب « لعنة الله على كل ماركسّي وعلى كل مَنْ يهدف الى جلب الجفاف والشقاء الى جميع ما يتعلق بالحياة » .

وهل نعتبر انفسنا قد توغلنا كثيراً في الزمن الماضي اذا فكّرنا بان تروتسكي منذ هذه اللحظة بدأ يشعر في اعماقه بصراع متواصل دام طيلة حياته : صراع بين ما يشعر به من الجفاف والشقاء الذي تسببه الماركسية اي بالحقيقة بما تجلبه السلطة المستبدة من البهجة والمرح وتلك الناحية الاخرى من حياته التي كانت تبرز بوضوح في كتاباته عن الثقافة والأدب او عندما يجد نفسه في موقف سياسي معارض ؟ على كل حال فان الفتاة التي كانت هدف هجومه ، الكسندرا سوكولو فسكايا ، غضبت غضباً شديداً عندما سمعت لعنة تروتسكي وسارعت بترك الاجتماع مقسمة بان

لا يكون لها أيّة علاقة مع هذا الشاب الفظ . ومن الطريف ان نذكر هنا ان جدالها وشخصيتها قد تركا على تروتسكي اعظم الاثر بصورة اشد مما حاول ان يعترف بها . فليس من الغريب اذن ان ينقلب الى ماركسي وان ينضم الى سوكولو فسكايا . واصبحت زوجته الأولى وظلت زميلة مخلصة له خلال كل السنين .

عندما اصبح في الثامنة عشرة من عمره ، وحسب التقاليد المتبعة في ما يختص بالتضحية حتى وبالنفس تلك التقاليد التي وضع اسسها الراديكاليون الروس في القرن التاسع عشر ، اختار لِف دافيد وفتش برونشتاين حياة ثائر محترف . وعندما اتخذ هذا القرار لم يتراجع ابداً مع أنّ القليل ممن اعتنق هذا المذهب في عصرنا قد عانى الكثير لاعتناقه هذا المذهب ماذا تعني هذه الحياة الثورية ؟ هذا التساؤ ل يجيبنا عليه بكل طلاقة ادموند ولسون فيقول :

« انهم وضعوا حياتهم واعمالهم في كف القدر بسبب اعتناقهم هذا المذهب الذي جعلهم يحتكون بجميع طبقات الشعب ، فَطُردوا واجبروا بان يستوطنوا في بلاد اجنبية ولكنهم تمكنوا من أن يجيدوا لغة هذه البلاد بسرعة اولئك الرجال والنساء جمعوا درجة غير اعتيادية من الثقافة مع درجة غير اعتيادية من الخبرة الاجتماعية » .

وجدير بالذكر أن قرار تروتسكي هذا لم يكن مجرد قرار مدرسي ، ففي ربيع سنة ١٨٩٧ بدأت جماعته تشكل منظمة سرّية أسموْها « اتحاد عمال جنوب روسيا » ، وأخذت هذه المنظّمة تعقد اجتماعات لمناقشات سياسية واصدرت كرّاسات تهاجم فيها الظروف التي يعيشها عمال المصانع المحليّة .

قام بالكتابة واستعمال الآلة الناسخة برونشتاين نفسه وذلك بمعدل ساعتين لكل صفحة . ولكن تلك الجماعة كانت ما زال ينقصها النضوج ولم يكن تدريبها كافياً فمن الطبيعي ان تقع في كثير من الاخطاء فهاجمها رجال الشرطة وقبضوا على معظم الاعضاء ، فُجلِد بعضهم ، امّا برونشتاين فقد زُجّ في حبس انفرادي حيث يكثر القمل ، ثم نُقل الى سجن في اوديسا وبقي هناك سنة ونصف ثم حكم عليه بالنفي الى سيبريا لمدة اربعة اعوام .

هناك سكن على ضفة نهر لينا وراء الدائرة القطبية الشمالية . ووجد الشاب الثائر نفسه في مكان حيث كل ما حوله كان « ظلمة دامسة وحالة كبت مريع ، مكان بعيد بعداً شاسعا عن العالم » . امّا اذا قارنّا منفى تروتسكي بمُخَيمّات العمل والمعتقلات التي اقيمت في سيبريا فيما بعد فاننا سنجد بان منفى تروتسكي ما هو الاّ دُمْية اطفال . قضى اوقاته وهو يطالع الكتب الماركسية ، ويعقد مباحثات مع زملائه المنفيين ، ويشحذ ذهنه ويقوي جسمه وخلقه . وفي سيبريا قرأ نسخاً من الجريدة الاجتماعية الديموقراطية اسكرا (الشرارة) وكرّاس لينين « ماذا علينا أن نعمل ؟ » في هذا الكتيّب أكد لينين الذي سيصبح زعيم البلشفية بانه لا يمكن للثوار الروس أن يعيشوا بالرغم من اضطهاد البوليس الروسي إلا بَخَلْق حزب مركزي منظم تنظيما عاليا وكله ثوار محترفون يعملون للحزب كل الوقت .

في هذا المنفى في سيبريا وجد تروتسكي نفسه مطمئنا تماما كمحرر للجرائد ورغم انه محكوم فلم يشعر بأي ازعاج من اي كان فأخذ يكتب اطروحات عن سلسلة من المواضيع الادبية والاجتماعية وارسل بعضها الى جريدة حرّة في مدينة اركتسك . من المواضيع الأدبية التي خطها يراعه

هناك : رابسن وزولا وجوجل . وبعد مضي ثلاثة ارباع قرن كانت تلك القطع التي خطها قلم شاب في العشرينات من عمره ما زالت تحمل شذا العبقرية . وانما شوّه تلك القطع ما فيها من مبالغة بالتفاخر تلك الثقة الزائدة التي تسبلها الماركسية على مَنْ اعتنق المذهب حديثا ويضاف الى ذلك بعض المبالغة الزائدة عن الضرورة ، ولكن تلك القطع تظهر بكل جلاء مواهب ادبية نادرة المثال وهي المقدرة على رؤ ية مشهد او قراءة نص بكل حرص وعناية . وسأذكر هنا جملة كتبها تروتسكي في مقالة عن الحياة في القرى السيبرية ففي هذه الجملة دلالة واضحة على ان تروتسكي كاتب حقيقي : يقول « تموت قريتنا من المرض وهي في حالة سكون وتفكر » .

وفي اطروحة أخرى يقول « إن منزلة الانسان الروحية هائلة جداً وتنوعاتها لا ينضب لها معين وبالتأكيد فانه لا يستطيع ان يدّعي الاصالة إلا مَنْ ينتصب على أكتاف الاسلاف العظام » . إن هذه الفكرة ليست اصيلة في نفسها ولكنها مهمة كمقدمة لكتاب « للآداب والثورة » والنصوص الاخرى التي اصر فيها تروتسكي ضد بعض زملائه الماركسيين قائلا بانه وان كان من اعظم الثوار فانه يقرر بان استمرار الثقافة الانسانية له قيمته . أو ايضا « إن هدف الفن هو ليس نسخ الحقيقة بتفصيل تجريبي بل ان يلقي نوراً على ماهية الحياة المعقدة وذلك باظهار سماتها النموذجية » . انها لعبارة تصلح لأيّ ناقد في كل زمن ، وهي ملاحظة تصلح لشاب قد تأثر بصورة شديدة بالكتّاب الروس في القرن التاسع عشر وخاصة بالماركسيين الروس وكان جميع هؤلاء قد مالوا الى تقليص استقلالية الفن والى جلب أكداس من مذهب النفعية فيما يختص بنظرهم الى رواياتهم وقصائدهم .

كان تروتسكي يولي السياسة اعظم الاهتمام خلال سنوات منفاه ، ومن المؤكد بان السياسة كانت تعني للثوار الروس في ذلك العهد ، اول كل شيء ، « المسألة التنظيمية » ، ومعنى هذا السؤال اولا أيّ نوع من الثورة وأي نوع من الحركة الثورية ممكن القيام به في روسيا القيصرية ، ما الاشياء المتوقعة المنظورة التي يمكن أن يأتي بها الراديكاليون لمهاجمة الحكم المطلق المتأخر ، مع ان بعض المدن شاركت في بعض الميزات التي تتصف بها الرأسمالية ، ذلك الحكم الذي وبشكل واضح كان مجتمعا له مشاكله الحادة مشاكل تختلف تماما عن المشاكل التي يحاول المجتمع الديموقراطي الاوروبي ان يجابهها . يبدو الجدل الماركسي للغرباء جدلا غامضا كليًا ولا شك بانه يغلب على هذا النوع من الجدال بان يكون كذلك . ولكن يختفي عادة وراء غشاء يغطي هذا الجدل الغامض اسئلة عظيمة الاهمية حرية بان يجري حوار عليها . « فالمسألة التنظيمية » التي اربكت بضعة الاف من المنفيين في سيبريا وأوروبا هذه المسألة ستؤثر على مستقبل ليس روسيا فحسب وانما العالم بأسره .

في هذه الفترة من التاريخ كان معظم الماركسيين الروس يعيشون في المنفى في أوروبا وأخذوا يقومون بالجهود الأولى لتأسيس اول حزب ديموقراطي اشتراكي لِكل روسيا . ولا غرو أن مثل هذا الامر تطلب قبل كل شيء علاقات امتن مما كانت عليه فيما بين المغتربين والجماعات الموجودة في روسيا سواء كان وجودهم بطريقة شرعية او شبه شرعية ، وعندما شعر برونشتاين انه قد استقر في هذا المنفى السيبيري البعيد وعندما أخذ يتشوّق لِلقاء عظماء الماركسيين والتعلم منهم والتأثير على المهتمين منهم بالأمور النظرية في خارج روسيا امثال جورج بليخانوف وجوليوس

مارتوف وف . ي . لينين هذا الشعور جعله يهرب من سيبريا في خريف سنة ١٩٠٢ ولم يكن هذا بالامر العسير عليه . وشق طريقه عبر روسيا بصورة سرّية وقد اتخذ لنفسه اسم سجّان ليكون اسمه الحزبي وبهذا الاسم عرفه العالم وانه لاختيار غريب يثير احتمالات كثيرة فيما يختص بالتحليل النفساني. تسلل الآن تروتسكي (برونشتاين) عابراً الحدود متوجها نحو لندن .

وهناك سار مباشرة الى بيت لينين وقد كان هذا في اوائل الثلاثينات من عمره واصبح معتبراً كشاباً متمرّس في هذه الحركة الجديدة . وتمشى هذان الرجلان الثوريان طويلا في شوارع لندن ، وهي مدينة غريبة بالنسبة لهما ، كما اعتاد لينين ان يقول ـ مدينة تخصهم ـ وتذكر تروتسكي فيما بعد أن هذا التضمين لم يكن يحتوي أي شيء من التأكيد انما كان يتدفق من صميم فؤاد لينين ، وكان يعبر بلهجته اكثر من أي شيء آخر بانه كان هناك دائما نصب عينيه الظل الخفي لطبقات حاكمة مسبلة غطاء على جميع الثقافة البشرية . وكان هذا الظل يبدو حقيقيا كوضح النهار . ولما كان هذا الظل قد اصبح حقيقة بالنسبة لهما أخذا يسارعان في احاديثهما فيما يختص بالحركات الخفية في روسيا ويحاولان حل الصعوبات التي تقف في سبيل تشكيل حزب متماسك سرّي هناك .

بدا تروتسكي في نظر عظماء المهاجرين الكبيري السن أمثال بليخانوف وڤيرازا سولتش ومارتوف وكأنه مشكلة محيرة . لقد كان موهوبا الى الدرجة القصوى . اما زاسولتش العطوفة فقد جعلت تروتسكي تحت حمايتها واعلنت بانه ليس هناك شك بان تروتسكي عبقري . واشار مارتوف في حديثه عن تروتسكي ، وكان مارتوف نفسه محرر جريدة

موهوبا وزعيم المستقبل لحزب المنشفية (حـزب سياسي حر روسي معارض للبلشفية) اشار قائلا بان اعمال تروتسكي الادبية « تكشف عن موهبة حقيقية » « ولقد اخذ يتمتع بنفوذ عظيم بفضل مواهبه الخطابية العظيمة » « انه يمتلك المعرفة ويعمل جاهداً لتوسيعها » . وقد اخذ المنفيون ينظرون الى تروتسكي وكأنه تجسّدٌ لذلك المتحمس السياسي الذين كانوا ينتظرونه لانعاش حركتهم وعرف تروتسكي في هذا الوقت بإسم « القلم » وكان شابا متحمسا كله حيوية ويتدفق ماء الشباب من عينيه الفتيتين . انما كان يحيط به شيء يجعل منه سِراً محيراً أكان ذلك فنهّ الرائع او ربما خيلاءه او شخصيتّه النشيطة الثائرة . اما بلبخانوف ، الماركسي الروسي المثقف الذائع الصيت فقد كره تروتسكي لأول وهلة وهذا ليس بغريب لأن العباقرة عادة لا يرغبون في مواجهة التلامذة الشباب . لأن خبرتهم كافية لتجعلهم يلاحظون أفعى المنافسة وهي تتلوى دائرة حول أغصان الاعجاب . واكتشف بليخانوف ، المفكر والمواطن العالم ، اكتشف بان في تروتسكي بعض صفاته السيئة ألا وهي الغرور الادبي والغطرسة الاخلاقية .

اما نظرة لينين فكانت فيها موضوعية اكثر من تروتسكي اضف الى ذلك ان لينين كان غامضا وقليل الاكتراث . اعتبر لينين تروتسكي كمتطوع غالي الثمن فيما يختص بزمرة الثوار المنفيين الزهيدي العدد هذا بالاضافة الى كون تروتسكي حليفا له في الخلافات الحزبية التي كانت تصل الى حد الذروة بين محرري جريدة « اسكرا » وبدأ تروتسكي يساهم في تحرير مقالات لهذه الجريدة مقالات مفعمة بنيران الثورة واتسمت هذه المقالات بميزة خاصّة عبّر عنها لينين بكل ظرف قائلا بانها « فيها آثار من

الاسلوب الصحفي » . كتب لينين هذه الكلمات في رسالة بعث بها الى محرري الجريدة موصيا بان يعينّ تروتسكي في هيئة التحرير . ولا يكاد هذا يعتبر مدحا من لينين . واضاف لينين قائلا « إن تروتسكي يتقبّل كل تصحيح بصمت (ولكن ليس بسرعة)» وطالما أثار هذا مشهداً من الاستياء وكان هذا الكاتب الالمعي تروتسكي ذو الاسلوب الرائع في هذا العهد يقف مربوط اللسان امام لينين يتقبل بمرارة انتقادات لاذعة كالسوط فيما يختص ببلاغته .

ومع ذلك فان تروتسكي قد استفاد كثيراً من التدريب الذي مارسه بين المهاجرين واستوعب منهم وبكل اتقان التقاليد الروسية الراديكالية وتعرف على الاختلافات في وجهات النظر التي كانت تهدد وحدتهم . ارسلوه في رحلة لالقاء الخطب في باريس وهناك كان لخطاباته اعظم الاثر في زُمَر الثوّار لما اتصفت به تلك الخطابات من البلاغة والحماس . وفي باريس قابل تروتسكي مّوْقفين رائعين اولا الفن الغربي وثانيا الفتاة الروسية الساحرة ناتاليا سيدوفا التي اصبحت زوجته الثانية ورافقته الى آخر يوم من أيام حياته .

ويظهر ان بقايا حب الريف ما زالت تختلج في فؤاد تروتسكي اخبر سيدوفا أن باريس تشبه اوديسا انما اوديسا افضل . وفي مذكرات كتبتها سيدوفا فيما بعد حذفت تلك الجملة قائلة انها « سخيفة » اما تروتسكي فقال وهو يكتب مسيرة حياته ، عن هذا الحذف « ومع ذلك فان الامر كان هكذا لانني كنت ادخل في جو مركز عالمي وانا في موقف عنيد وعدائي اشبهه بحالة بربري يكافح في سبيل المحافظة على حياته وشعرت بانني لاصبح مقتربا من باريس وان اتفهمها كل الفهم عليّ ان اصرف كل ما

املك من الطاقة الذهنية . ولكن كان هناك ايضا عالمي ، عالم الثورة ، وكنت ملزما به دون اي منافس بالنسبة لحقيقته . وفي هذا الوقت كنت اقاوم الفن كما كنت اقاوم الثورة في اوائل حياتي وايضا في ما بعد ، كما قاومت الماركسية وايضا قاومت ، ولعدة سنوات ، لينين واساليبه . والآن واثناء منفاي الثاني من روسيا (بعد ثورة سنة ١٩٠٥) اصبحت اميل الى الفن وارتبطبه - رأيت كثيراً من الامور وقرأت حتى وكتبت الكثير عنه » .

إن خبرة من هذا النوع ومع انها لعبت دوراً في حياة تروتسكي اكبر مما اعترف به فيما بعد هذه الخبرة كان عليه ان يضعها جانبا عندما انغمس بالمجادلات والخلافات الداخلية مع المهاجرين الثوريين .

وقبيل الوقت الذي عُقِد فيه المؤتمر الثاني للحزب الديموقراطي الاشتراكي الروسي (انه في الحقيقة المؤتمر الأول لأن المؤتمر السابق لم يكن مجديا) سنة ١٩٠٣ كان تروتسكي قد اصبح شخصا مرموقا في عالمه الصغير ورفض تروتسكي ان ينضم لأي من الحزبين القائمين حينئذٍ انضماما كاملاً : وهما حزب الاكثرية أي حزب البلشفيك وزعيمه لينين وحزب الاقلية وحزب الاحرار (المنشفيك) تحت زعامة مارتوف . فاذا القينا نظرة على ما مضى من الامور التاريخية نرى بوضوح ان الخلاف بين هذين الحزبين كان مقدمة للانقسام العظيم بينهما ذلك الانقسام الذي وصل ذروته خلال الحرب العالمية الاولى واقصد به الانقسام بين جناحي الثوريين والمصلحين للحركة الاشتراكية ولكن في ذلك العهد الماضي وعندما كانت الامور ما زالت غامضة والزعماء ما زالوا مترددين يمكننا أن نجد عذراً حتى وللمراقب النبيه العطوف لاعتقاده بان اعضاء الحزبين انقسموا بشكل او بآخر في غياهب بحر الفلسفة الكلامية القاحل ذلك

البحر الذي اعتبر لعنة في حياة المهاجرين الراديكاليين . وكره تروتسكي ان يرتبط مع أيّ من الجهازين الحزبيين وذلك لاقتناعه بصحة اختياره وربما ايضا بسبب مزاجه الخاص ، وأخذ يتأرجح تارة الى هذا الجانب وطوراً الى ذاك بغير ثبات ونتج عن ذلك أنْ ارتاب به تقريبا كل زملائه .

من الصعب أن نحكم عَمّن سيُعْتبر عضواً في هذا الحزب الجديد : هل هو ذلك الشخص الذي يساهم شخصيا في منظماته (لينين) او ذاك الذي يتعاون عن طيبة خاطر شخصيا وبانتظام تحت ارشاد احدى المنظمات « مارتوف » . إن الاهمية الضئيلة لهذا التساؤل تظهر عندما نعرف انه بعد بضع سنوات انضم مارتوف الى عبارة لينين .

ومع ذلك فسرعان ما اصبحت الاختلافات بين الحزبين تنذر بافدح النتائج .

في كتابه « ماذا علينا أن نعمل » قدّم لينين رأيه بكل صراحة قائلاً بان الحزب الثوري العتيد في روسيا يجب ان يكون له نظام صارم ومركزية دقيقة لها كيان طبقي (هيراركي) وتتألف من سلك من الثوّار المحترفين الذين عليهم ان يكرسوا انفسهم كلية للأعمال الحزبية ويبذلوا النفس والنفيس في هذا السبيل . استمعوا اليه وهو يكتسب بكل قوة وحزم فيقول :

أؤكد : ١ ـ لا حركة يمكن ان تدوم دون ان يقوم عليها منظمة ثابتة من الزعماء ليصونوا ديمومتها ٢ ـ وكلما ازداد عدد افراد الشعب الذين ينضمون الى المنظمة ليشكلوا اساس الحركة كلما ازدادت الضرورة القصوى لمثل هذه المنظمة وكلما ازداد ثباتها .

٣ ـ وان المنظمة يجب ان تتألف رئيسيا من اشخاص يعملون بالثورة كمحترفين ٤ ـ في بلاد يسود فيها حكم الاستبداد ، كلما شددنا باختيار اعضاء هذه المنظمة من الذين يعملون في الثورة كمحترفين كلما صعب الايقاع بالمؤسسة و ٥ ـ كلما اتسع المجال للرجال والنساء من الطبقة العاملة او من الطبقات الأخرى في المجتمع لينضموا الى الحركة ويقوموا باعمال نشيطة فيها .

لا شك بان هذا الرأي فيما يختص بالتنظيم الحزبي قد اتُخذ من الظروف السائدة في روسيا والتقديرات لهذه الظروف التي يجب ان تُبنى فيها الحركة الثورية في روسيا القيصرية . تلك الحكومة التي لا تكاد تسمح بأن يُنْشأ حزب قانوني يكرس نفسه للتربية العامة وكذلك للنشاطات البرلمانية .

يمثل هذه العبارة اللاذعة شبّه روسيا القيصرية وهو يخاطب المؤتمر . واستمر قائلا : « عندما يتوجب علينا ان نقوم بنشاطاتنا بصورة سرّية وان تكون محصورة بدوائر سرّية محدودة حتى واضطرارنا بان نعقد اجتماعات خاصة فلا شك انه من الصعب جداً ويكاد يكون بالحقيقة مستحيلا علينا بأن نميّز مَنْ الذي يتكلم فقط ومن الذي يقوم بانجاز الاعمال » . واعتقد لينين اعتقاداً راسخاً بان الحزب الثوري يجب ان يتّسم بصفات الجيش وان يكون مستعداً للمعركة وبهذا فانه يختلف اختلافا بينا عن الاحزاب الرخوة في الغرب بما في ذلك الحزب الديموقراطي الاشتراكي من المشاكل الرئيسية التي تواجهنا ونحن ندرس البلشفيه هي ان نقرر الوزن النسبي الذي يجب ان نمنحه للتحديدات الروسية لهذه النظرية الحزبية وكذلك الادعاء بانها تناسب جميع المجتمعات او ان نقرر الوزن النسبي الذي

يرغب لينين ان يمنحه لمثل هذه النظرية .

أمّا ما حدث في هذا المؤتمر الثاني فهو أنّ زمرة من المثقفين ثقافة عالية حاولوا جهدهم ان يكتشفوا بماذا كانوا يؤمنون ، كان هناك القليل من الرياء وكثر التشويش والقلق والتردد لاستنتاج رأي متطرف ولهذا فان رأي لينين لم يكن مرعباً أبداً كما اعتبره النقّاد فيما بعد . اذ ما هو الامر اللاّديموقراطي عند الاصرار بان « المساهمة الشخصية هي التي يجب ان تطلب من اعضاء الحزب ؟ كيف نسمح لانفسنا بأن نعتقد بان في مثل هذه العبارة او أي عبارة أخرى كما اقترح المؤرخون ، يمكن ان نجد نواة مذهب السلطة البلشفية »؟ .

حتى ولو أنه ليس محتملا ان يكون أي من المندوبين قد اعتقد بأن هذا الاختلاف الدقيق بالتعبير بين لينين ومارتوف ما هو إلا مقدمة للصدام المميت بين الشيوعية والديموقراطية الاشتراكية بعد بضعة عقود فمع ذلك اظهروا جميعا ادراكا تاما بان ما يشعرون به من الاخطار المهددة كان ذا اهمية قصوى . تقدم اكسلرود Axelrod المحنّك بسؤال للمؤتمر ألا ترون بأن لينين قام باخضاع ادارة كل الحزب تحت سيطرة قلة من حُمَاة المذهب » وجواباً على هذا السؤال أصرّ لينين بأنه بمقتضى الظروف التي فرضتها روسيا القيصرية لا بد من جعل اتخاذ القرارات بيد الزعماء الذين يعيشون خارج روسيا حالياً وحيث يستطيعون ان يتصرفوا بحرية وليس لهذه الخطة من بديل إذ أن العمل بطريقة سرّية داخل روسيا يجعل ايدينا مغلولة .

واستمر لينين قائلاً« لا يمكن ان تختلف عقائد الحزب اذ عندما لا يستطيع ان يعمل بصورة حاسمة فلا شك بانه سيفشل في واجبه الاساسي الا وهو الاخذ بيد العمال ورفع وَعْيهم الاشتراكي» أما ما كان يقترحه لينين

بالفعل فهو ما اصبح يدعى بعد ذلك « بالتعبير الماركسي » « بحزب الطليعة » : زمرة قليلة العدد محكمة الاتصال ببعضها منظمة كأحسن ما يكون ومكرسة نفسها كليًا للحزب . بهذا نرى أنّ المسؤ ولية العظمى اعطيت للمثقفين وهم هيئة من المجاهدين ذوي النظريات الحربية انقطعت عن الاجراءات العادية للمجتمع وحولت نفسها الى نوع من منظمة علمانية تتكلم بلسان الطبقة العاملة وتدافع عنها ولكن بالتأكيد منفصلة عن هذه الطبقة . مهما كان الامر فان فكرة لينين اوضح واكثر جلاء من فكرة مارتوف اذ انها تضمنت قدرا كبيراً من الواقعية فيما يختص بوضع روسيا أنذاك . انما لم يَرَ لا بل لم يستطع ان يرى ما تتضمنه اقتراحاته ومما لا شك فيه انه لم يَرَ المرتبة العالية التي سيصل اليها الحزب كموجّه للتاريخ لذلك فيجب ان تخضع ارادة جميع المساهمين لقادة الحزب .

ورغم كل هذا فقد انحاز تروتسكي الى جانب مارتوف في هذا النزاع . قال تروتسكي محاوراً بأن النموذج اللينيني للحزب التآمري يسير سيراً معاكسا للقضية الماركسية المنطقية وذلك لأن تحرير الطبقة العاملة يجب أن يتم من خلال جهودها الواعية . في تقرير لاحق كتب تروتسكي عن المؤتمر وهاجم لينين هجوما عنيفا بسبب ما سمّاه « القبضة الحديدية » واتهم لينين بانه يحاول ان يحوّل مركز الحزب«المعتدل» الى « لجنة كلّية القدرة للأمن العام » بعد سنة أو سنتين انضمت روزا لكسمبرج Rosa Luxemburg ، الثائرة البولندية العظيمة ، إلى الهجوم على لينين قالت « لا شيء يمكن أن يستعبد حركة عمالية فتية مثل النخبة المثقفة المتعطشة للسلطة المُتسترة بمعطف ضيق من البيروقراطية ولا شك بأنها ستشل الحركة وتحولها إلى آلة اوتوماتيكية تديرها ، باشارة من يدها ، لجنة

مركزية » . وحري بالذكر أن تروتسكي كان قد وضع نصب عينيه بكل وضوح المقارنة مع اليعاقبة (Jacobins) خلال الثورة الفرنسية الذين وهم يتحدثون باسم الشعب جعلوا من أنفسهم سلكاً من نخبة الثوار تعمل منفصلة عن الشعب أمّا روزا لكسمبرج فقد كان لها نفس التفكير انما بطريقة ضمنية .

مباشرة بعد إنتهاء المؤتمر اصدر تروتسكي كرّاساً بعنوان « واجباتنا السياسية » ضمنه انتقاده لِلينين . ندّد بلينين لرفعه شأن المثقفين الشوريين الى مرتبة أسمى من مرتبة الطبقة العاملة ، ونوّه باخطار خلق حكومة « مستبدة ارثوذكسية » في قِمّة الحزب . وبكل ذكاء توقّع الاخطار الشديدة الناتجة عن هذا « التبديل » الذي بواسطته تتقدم طليعة من الناس قد عينت نفسها بنفسها مدّعية انها هي نفسها الطبقة التي تتحدث باسمها والتي في سبيلها تقدّم التضحيات الجُلّى . اعلن تروتسكي عن رأيه في التنظيم الحزبي ورأيه هذا قريب جداً من فكرة روزا لكسمبرج ، التي كتبت تقريبا في نفس الوقت تقول : على الحزب ان يبحث عن ضمان استقراره في نفس قاعدته في الطبقة الكادحة النشيطة المعتمدة على نفسها وليس في اجتماعات زعماء القمة .

من الخطأ ان نصرف هذا الجدال كما لو انه بقايا قذرة للماركسية الاوروبية حتى ولو كان ذلك لسبب واحد وهو ان نفس القضية أو قضايا مشابهة ما زالت تناقش الى اليوم في شتى انواع الحركات السياسية . حتى وأولئك الذين يملّون من تاريخ الراديكالية الرّوسية قد يتذكرون عبارة كتبها تروتسكي في هذه الآونة لأنها كثيراً ما تظهر في دراسات الثورة الروسية وكذلك في الحوار المضاد للبلشفية . كتب تروتسكي يقول « ان

اساليب لينين تؤدّي الى ما يأتي : في مبدأ الامر تحل منظمة الحزب محل الحزب كَكُلّ ثم تحل اللجنة المركزية محل المنظمة وفي النهاية يحل « دكتاتور » مفرد محل « اللجنة المركزية ويأخذ بزمام السلطة كلها » .

من البديهي ان ما يُلْفِت النظر هنا هو كون هذه الملاحظة تتوقع الانحطاط الذي سيَلْحق بحزب البلشفيك خلال العشرينات من القرن العشرين لكن من المشكوك فيه ان يكون تروتسكي قد تكهن بذلك كما يعتقد بعض المؤرخين . وممّا لا شك فيه انه ليس هناك اثبات كافٍ للزعم القائل بان تروتسكي في شبابه استطاع ان يتفهم اسباب انحطاط الثورة البلشفية بصورة لم يعترف بها تروتسكي عندما اصبح اكبر سنّاً . اذ بينما كانت ملاحظة تروتسكي تَمَسُّ وجهاً من وجوه البلشفية التي كثيراً ما كان النقّاد يوجهون اليها مختلف انتقاداتهم الخطيرة فان تلك الملاحظة لا تكشف ولا يُتَوقَّعَ أن تكشف عن هذه الاسباب المعقدة . وان اي جهد لشرح تطور تاريخي رئيسي مثل قيام الستالينية بتأثير عامل واحد مفرد مثل مذهب لينين التنظيمي سيثبت بانه تفسير سطحي .

يصحّ الآن ان نقول ان حملات تروتسكي ولكسمبرج على وجهات نظر لينين فيما يختص بالتنظيم الحزبي لا بد ان تكون قد توضحت الآن تماما . « فالطليعة الحزبية » تميل لجعل نفسها مساوية تماما للطبقة التي تمثّلها وتفترض وجود تجانس في المصالح ووجهات النظر في تلك الطبقة وهي مصالح وآراء قلّما توجد ولهذا فانها « أي الطليعة الحزبية » ترفض ادعاء أيٍّ من الاحزاب الراديكالية بأنها الممثل الحقيقي للطبقة العاملة او لقسم من هذه الطبقة . ومع ذلك فان هذه الميول نحو الاغتصابات السياسية لا تكاد ترهق الواقع المعقد للحزب البلشفي خلال السنين التي

كان فيها لينين هو زعيمها النشيط . وعلينا أن نؤكد هنا أن لينين لم يُلْغِ النقاش داخل حزبه فبالحقيقة وعلى الأقل حتى اوائل أو اواسط العشرينات من القرن العشرين تميّزت الحركة البلشفية بصراحة بارزة الى حد الشراسة في النقاش الداخلي . واخذت زُمَر حزبية تقوم باستمرار وصدرت نشرات متشعّبة داخل الحزب وأحياناً كانت جرائد هذه الزمر المختلفة تظهر علانية . ويمكن مقارنة هذا في بعض نقاطه مع سجّل الاحزاب الديموقراطية الاشتراكية الاوروبية اذ بين هذه الاحزاب لم تكن الممارسات البيروقراطية مجهولة .

أضف الى ذلك ان الحيوية الداخلية للحزب البلشفي اثناء زعامة لينين كانت تشكل اساسا كافيا لتمييزها عن الستالينية وعن الستالينية السابقة المتنوعة الاشكال في الاحزاب الشيوعية الاوروبية والآسيوية الما لا يمكن اعتبار ذلك جوابا مناسبا على الانتقادات المتضمنة كثيراً من المشاعر التي يمكن ان نطرحها فيما يختص بوجهة النظر اللينينية . ولا ريب بان ميل البلشفية لاعتبار الحزب كأداة تاريخية « مختارة » ولصرف باقي الاحزاب الاشتراكية كما لو انها من « العوام الحقيرين » او حتى من هم « مناهضين للثورة » وأسبال ، على الحزب ، هالة من الاستقامة المقدسة . ولاعتبار الخط الحزبي الصحيح للحزب الورع المخلص ولترقية الممارسات والبنيان التي تتطلبها الظروف الرّوسية الخاصة من المفترض ان تكون شاملة ومناسبة لكل البلاد الرأسمالية . كل ما ذكر خلقَ مواقف معقدّة لا يتحملها الجوّ الذي يجب ان تؤسس فيه النظم الحكومية . اما كون البلاشفة يستطيعون ان يتناقشوا ، وبالفعل قد تناقشوا مع بعضهم بكل حرّية ، هذا لا يعني مطلقا انهم كانوا مستعدين بان يتقبلوا القواعد

والتحديدات التي تعيش ضمنها الاراء الديموقراطية المتنافسة .

وفيما بعد عندما تقبّل تروتسكي ارثوذكسية لينين فمن الطبيعي ان يقلل من اهمية حملاته اثناء شبابه على آراء لينين التنظيمية . وكان احيانا يعترف ، باخلاص غير مألوف بين اصحاب العقائد السياسية ، بانه كان مخطئاً . ولكن قبول إمّا آراء تروتسكي الشاب او تروتسكي الناضج والحكم عليها بالصحة او بالخطأ ، او ان نقارن آراء الواحد بآراء الآخر يجعلنا نفقد بعض التعقيدات والصعوبات التي تكتنف خطة حياته . فالقضية اذن هي ليست قضية تروتسكي « اللّيّن » ضد تروتسكي « الصلب » ، شبه المنشفيكية ضد شبه « البلشفية » مع أن هناك ما يبرر مثل هذه المقارنة . كما وانها ليست مجرد قضية تروتسكي « الغربي » وقد جذبته الحريّة التي تتمتع بها الحياة الثقافية هناك ، ضد تروتسكي « الروسي » الذي اضطر الى الانغماس في بحر السياسات القاسي بسبب ظروف بلاده . يمكننا ان نرى وبكل وضوح أن التذبذب والشك وعدم الاستقرار في اراء تروتسكي قبل سنة ١٩١٧ فيما يختص بالتنظيم الحزبي ، يمكننا ان نرى ذلك كأنعكاس لكفاح داخلي في كل الاعراف الماركسية وخاصة الجناح البلشفي فيما بين البواعث الديموقراطية والاخوية وحتى التصورية وبين ما يُعتبر ضرورات التسلط التي يفرضها الكفاح للحصول على السلطة . وفي مواضع مختلفة من خطة حياة تروتسكي نراه يميل بقوة الى ناحية ثم الى الناحية الأخرى انما لم يتخلَّ مطلقا عن الفكرة المرتكزة في ذهنه التي أحَسّ بأن عليه ان يكتبها مؤقتا . هذا سبب من الأسباب التي جعلت كثيراً من الزعماء البلشفيك القدامى لا يشعرون بالركون اليه . لقد استطاع تروتسكي أن يثور مثلهم اثناء سني الحرب الاهلية

القاسية ولكن كيف يمكنهم أن ينظروا الى زعيم بلشفي يأخذ عطلة اسبوعين ليكتب عن الآداب ويتكلم مدافعا على الاقل عن حكم ذاتي فنيّ غير كامل .

ومع أن تروتسكي انحاز الى المنشفيّة فيما يختص بالتنظيم الحزبي فانه بدأ في السنين الأولى من القرن يعبّر عن آراء فيما يختص بمشكلة جوهرية أخرى - ألا وهي العلاقة بين الثورة الروسية العتيدة وبين الاشتراكيين والاحزاب المتوسطة الحرّة - وهذا ما جعله يزيد اقترابا من لينين . اذ ، كما اتفق جميع الماركسيين الروس ، كان الواجب الأول هو الاطاحة بالنظام القيصري وتأسيس حكومة تثبت الحقوق الديموقراطية - وهذا يعني بلُغة الماركسيين إتمام الثورة الشعبية للطبقة المتوسطة ، اما المنشفيك فقد ناقشوا الامر قائلين ان على الطبقة المتوسطة الحرة أن تأخذ بزمام القيادة وما على طبقة العوام الا أن تقوم بدور المعارضة . وخالف تروتسكي هذا الرأي مصراً على ان يبتعد الاشتراكيون عن احزاب الطبقة المتوسطة ولا يقبلوا حلا وسطا مع حزب الاحرار . ممـا لا شك فيه ان الأمور لم تكن قد اتضحت تماما لتروتسكي بالنسبة لهذه النقطة ولكن هذا الموقف شكّل الاساس لنظرية الثورة التي قدمها فيما بعد واسماها « نظرية الثورة الدائمة » .

ولم يمض إلا القليل حتى شمل هذا النقاش ، وقد كان نقاشا اكاديميا بشكل واضح ، شمل مصائر الملايين من الناس . انما ولحسن الحظ فقد اهمل موقتا وذلك عندما بدأ صوت الشعب الروسي ذلك الصوت الذي طالما كان صامتا وخاملا شرع يثور ضد الطغيان القيصري . فـفـي

بيترز برج قامت مظاهرة قادها الكاهن الارثوذكسي الأب جابون Gapon وكان الحشد ينادي مطالباً بالحقوق الديمقراطية ، ولكن سرعان ما أمر القيصر جنوده بأن يطلقوا النار على المتظاهرين . وتناول تروتسكي قلمه اللاذع وأخذ يكتب من جنيف وهو في حالة عالية من التحمس :

إن يوما واحدا من أيام الثورة كان كافيا ،وان يوم احتكاك رائع بين القيصر والشعب كان كافياً لجعل فكرة الملكية الدستورية تبدو وهمية ، غير عملية وكريهة . لقد هب الكاهن جابون وهو يحمل في ذهنه فكرة ملك ثائر ضد الملك . ولكن لم يكن مدعوما بالاحرار الملكيين انما بالطبقة الكادحة الثائرة . وسرعان ما كشفت القناع عن صراعها الثوري وتحولت من تمرد محدود الى حرب حواجز وأخذ الثوار يصرخون « فَلْيسقط القيصر ، لقد دمّر الملك الحقيقي فكرة الملك » . جاءت الثورة وبذلك وضعت حداً لعهد الطفولة السياسي » .

وخلال سنة ١٩٠٥ كانت روسيا في حالة ثورة صاخبة . وجعل المضربون يغلقون المعامل وازدحمت شوارع المدن بالمظاهرات كما وان بحارة السفينة الحربية بوتمكن Potemkin اعلنوا العصيان . وكان تروتكسي أحد المنفيين الأوائل الذين عادوا إلى بيترز برج حيث عاش فترة من الزمن حياة سياسية نصفها حياة عامة والنصف الآخر حياة خفية . في هذه الحقبة الزمنية لم يكن تروتسكي قد انتمى إلى الزمرة المنشيفيكية ولا للبلشفية ، ولكن طالما ساهم بالكتابة في الصحف عن كلتيهما وانجز ذلك ببسالة لم يستطع أي فرد من الزمرتين ان يجاريه فيها وبهذا اصبح تروتسكي المدافع عن الثورة اليسارية . في تشرين الأول اجتمع في العاصمة مجلس (سوفييت) نواب العمال وهو نوع من برلمان ضئيل الأهمية تألف من

ممثلين عن النقابات وأحزاب اليسار والمنظمات الشعبية وسرعان ما أصبح تروتسكي رئيس هذا البرلمان . فتمسك تروتسكي بالامكانيات المحتملة الرائعة لهذه الوسيلة الجديدة العفوية التي ظهرت في العمل السياسي ، وقد خالف بذلك البلاشفة الذين طالما ارتابوا بالمجالس (السوفييت) لأنهم كانوا يخشون أن تهدّد شخصيتهم السياسية وسيادتهم الثورية وبقيت تلك الريبة حتى وصل لينين في تشرين الثاني . وعلينا ان نعرف هنا بأن شجاعة تروتسكي الشخصية وجمعه بين الاهداف السياسية الثابتة بالمهارة التكتيكية وما وهبه الله من المعية في الخطابة كل هذه ساعدت لجعله ، ولّما يناهز السادسة والعشرين ، زعيماً من الدرجة الأولى : لقد دخل مسرح التاريخ الحديث ولن يزحزحه إلا فأس قاتل . هاكم قطعة من خطاب امام المجلس ، خطاب مفعم بالفضيلة المتأججة تحدّث فيه عن نقاش مع أحد الأحرار الذي كان يحثه ليتخذ سبيل الاعتدال . قال :

« ذكّرته بحادثة من حوادث الثورة الفرنسية عندما صوت المؤتمر مُعْلناً » ان الشعب الفرنسي لن يتحاور مع العدو وعلى اراضيهم » ولما صاح أحد افراد المؤتمر مقاطعا ومتسائلا « هل وقعتم حلفاً مع النصر » أجابوه « لا إنما وقّعنا حلفا مع الموت » . أيها الرفاق عندما تصيح البرغوايون ، وكأنهم يفتخرون بخيانتهم قائلين « انكم تقفون وحدكم وهل تعتقدون انكم تستطيعون الاستمرار في القتال دون مساعدتنا ؟ هل وقعتم حلفا مع النصر » نقذفهم بجوابنا دون تلكؤ « لا ، انما قد وقعنا حلفا مع الموت » .

وقد واجه هذا المجلس اثناء مدة انعقاده التي دامت خمسين يوما الورطة المذهلة التي تواجه عادة المؤسسات الثورية . الا وهي : لقد

كانت له القوة التي يستطيع فيها منازلة الحكومة انما لم يمتلك القوة الكافية للاطاحة بها . واخيراً امسكت القيصرية بزمام المبادرة إذ انها لم تكن قد وصلت الى درجة الانحطاط التي وصلت اليها سنة ١٩١٧ اضف الى ذلك أن الحركة الثورية لم تكن قد وصلت الى درجة النضوج كما وانها كانت حتى الآن عديمة الخبرة . وفي اعمال القمع التي تلت ذلك قُتِل وسُجِنَ الألوف ، وسيطرة الرجعية مرة أخرى على روسيا . وقُدّم تروتسكي والزعماء الآخرون للمحاكمة وعندما اصبحت المحاكمة في ذروتها ـ إذ انه الآن صمد ثابتا مطمئنا الى قوته ومؤْمنا بانه يعرف انه قد ثبّت نفسه في صفوف عظام الثوار الأوروبيين ومقتنعا تماما انه قد عثر على مفتاح التاريخ ـ انتصب في المحكمة شامخ الرأس والقى كلمة كلها ذكاء وصراحة وتحدٍ : هذا نصّها :

أيها السادة القضاة : إن ثورة الجماهير لا تُصْنَع انها تَصْنَع نفسها بنفسها . انها النتيجة الحتمية للعلاقات والظروف الاجتماعية وليست نتيجة لخطة ترسم على ورقة . الثورة العامة لا يمكن ان تنظم مسبقا انما يمكن ان نتنبأ بها وقد اصبح الكفاح بيننا وبين القيصرية أمراً لا بُدّ منه لاسباب تعود الينا والى القيصرية على السواء . ومهما كان للسلاح من اهمية ، ايها السادة القضاة ، فإن القيصرية لا تمتلك هذه القوة . لا ، ليست مقدرة الجماهير هي في القضاء على الآخرين انما في استعدادهم العظيم للتضحية بأنفسهم وهذا ما يجعل ثورة الجماهير هي التي تُؤَمّن الانتصار في اللحظة الاخيرة .

والنتيجة ! النفي الى سيبريا هذه المرة ابعاد مدى الحياة . والجدير

بالذكر هنا انه وبالرغم من سمات السيطرة والاستبداد المسيطرة على القيصرية فان احكامها لم تكن مجدية في اغلب الاحيان اذ ان تروتسكي حتى وقبل ان يصل الى منفاه في الدائرة القطبية الشمالية ، استطاع ان ينجح في محاولة نجاة ساعده بها فلاّح مخمور بالفودكا وقد استطاع هذا الفلاح ان يقطع الطريق مخترقا العواصف الثلجية الكاسحة وعابراً التوندرا المتجمدة وصابراً على ضراوة البرد القارس حتى تمكن بعد اسبوع كامل من إيصال تروتسكي الى شاطىء السلامة ، الى اوروبا .

لا ريب ان هذه النجاة تعتبر عملاً باهراً قام به تروتسكي ولم يمض على الحكم عليه بالنفي المؤبد الا بضعة اشهر ، واذا القينا نظرة على الماضي يمكننا ان نقول ان هذا الانتصار الشخصي قد احاط به بعض التشاؤم . امّا الآن وقد اصبح تروتسكي في أمان فقد تناول يراعه وخط اول اعماله الباهرة ، وقد اطلق على كتابه هذا اسم (سنة ١٩٠٥) وهو دراسة تاريخية اظهر تروتسكي فيه وبكل جلاء وقوة توقعاته « تاريخ الثورة الروسية » .

ورغم ان هذا الكتاب المسمى (١٩٠٥) ليس باتّا في بُنْيته او مفعماً بالتفاصيل فهماً لا شك فيه انه تحفة كتابية تاريخية وخاصة اذا تذكرنا ان المؤلف لم يكن قد بلغ الثلاثين ربيعا من عمره عندما كتب ذلك الكتاب باجزائه غير المرتبطة تماما مع بعضها . يفتقر هذا الكتاب المسمّى (١٩٠٥) الى التسلسل القصصي التاريخي انه قلّما يتطرّق الى التعميم التاريخي النظري الذي يُطْمح اليه . ولا يمكن مقارنته من حيث وضوح افكاره في تصوير الشخصيات الرئيسية ، ومع ذلك فيبدو ان هذا الكتاب (١٩٠٥) في بعض نقاطه سيجلّ للحوادث المقنعة الجليّة اكثر منها لو

كانت تاريخاً اضف الى ذلك ان ما فيه من معلومات يمكن الاعتماد عليها انما علينا ان نتذكر ان (سنة ١٩٠٥) لم يقع تحت رحمة خطة عقائدية كما حصل في الكتاب الذي ألّفه فيما بعد . اضف الى ذلك انه لا يقدم عونا لكشف افق التقدم التاريخي ، فالحوادث والشروح ليست منسجمة مع بعضها وباختصار نقول وبكل دقّة ان هذه الخشونة في تنفيذ العمل وهذا الشك والتردّد العرضيان يسبلان على (سنة ١٩٠٥) رداءً من الصدق المحبب .

مع أن تروتسكي كان قصير النفس في سنة ١٩٠٥ إلا انه كان ما يريده في متناول يده وقد عاش فوضى ودوّامة الحوادث التي اجاد وصفها . ويرتفع مستوى سَرْد الحوادث ثم ينقطع اذ ان هناك فجوات بارزة في سرد الحوادث وكذلك في الافكار ، ولا ينتظر منه كمالاً أو فحوى ماركسية كاملة في توالي الحوادث ، التي يظهر بين طيّاتها وبكل جلاء ، القلق وعدم الخبرة والارتجال . ولنقُل هذا بشكل آخر وهو ان تروتسكي في كتابه لم يشعر بانه مضطر بان يعالج المشكلة المزعجة القائمة بين البلشفيه وبين الامواج العارمة للجماهير . ولقد لعب البلشفيك دوراً ثانوياً في كتاب ١٩٠٥ ولم يكن ميالاً بان يعطيهم حتى ولا قلامة ظفر اكثر مما اعتقد انهم يستحقون وبدلا من ان يصور لنا خطة ثورة لا بُد منها تسيطر على الجزء الاخير من التاريخ نجد في كتابه مجابهات بين العناصر ، بين حكم اقلية تافه لا يؤ به له وبين جماهير الشعب الذين اندفعوا فجأة الى محيط الوعي السياسي ، واخذوا يمارسون ولأول مرة مُتَّعَ حرّية الرأي وحرّية الكلام . ليس هناك « يد سواء كانت مرشدة » ثابتة أم مرتجفة من « حزب الطليعة » . ليس هناك إلا التشريع المُرتجَل لجماهير الشعب ألا وهو

السوفييت او المجلس الذي يلجؤ ون اليه التماسا للتماسك والشرعية .

إن كتابة تروتسكي في كتابه ١٩٠٥ واضحة جلية وكباقي اعماله التاريخية تخلو من الرطانة الماركسية ، فالاسلوب القصصي الذي اشتكى منه لينين لم يختفِ ابداً . ينحني الكاتب امام موضوعه يبحث عن اللغة ثم يندفع خاضعاً لاستمرارية وتتابع الحقائق . ومن وقت الى آخر كان تروتسكي يظهر الهزء والاحتقار لحكم الاقلية هذه الأمور لم يعد تروتسكي بحاجة اليها في كتابه التاريخ إذ الآن بعد سنة ١٩٠٥ كانت الأقلية ما زالت تسيطر وتقبض على زمام الأمور بقبضة فولاذية بينما بعد سنة ١٩١٧ لم يبق منها إلا آثار تافهة وقد ظهرت آثار من اسلوبه المستقبلي فالعاطفة المتألقة التهكمية والعين الثاقبة التي تبحث عن اللحظات الدراماتيكية او تكشف عن الأمور المتناقضة كان كل هذا ما زال جليا في اسلوبه (كما تظهر لنا الصورة المزخرفة التي يدبجها يراعه لزيارة قام بها الى بيت نبيل حيث كان عليه ان يلقي كلمة في جماعة من الضبّاط الارستقراطيين) .

من الوجهة السياسية تبرز القوة العظيمة لـ (١٩٠٥) بتشديد تروتسكي على وصف الدولة القيصرية والطبقة السامية الحاكمة فيها بصورة مطلقة وليس على سرد نظريته فيما يختص بالثورة الدائمة تلك النظرية التي قد اصبحت مألوفة وغني عن البيان أن هذه الأمور لم تكن جلية تماما في كتابه « التاريخ » ، فَلْنصغِ اليه وهو يقول :

إن الحكم المطلق وصل الى ذروة قوته عندما اعتمدت الطبقة المتوسطة البورجوازية على عامة الشعب اصبح لها من القوة ما يكفي

لجعلها نداً لقوى المجتمع الاقطاعي ولا غَرْو بان حالة الطبقات المالكة والطبقات صاحبة الامتيازات بسبب ما كان بينها من المقاتلات والمهاترات جعلها تقف امام بعضهـا بشكـل متـوازن كما وامّـنَ الحـد الاقصى من الاستقلال لمنظمات الدولة . . واستطاع لويس الرابع عشر بأن يقول « أنا الدولة » ولقد بدت الملكية المطلقة البروسيّه في عيني هيغل كفاية في حد ذاتها وكتَجَسّد لفكرة مثل هذه الدولة وفي غَمْرة مساعيها لخلق جهاز دولة مركزي اضطرت القيصرية بأن تحارب الهمجية والفقر والتفكك العام في بلاد كانت اجزاؤ هـا المنفصلـة تعيش حياة اقتصـادية مستقلـة اكثـر من مكافحة طلبات الطبقات ذات الامتياز في البلاد . لم تكن المشكلة تكمن في توازن الطبقات المسيطرة اقتصاديا كما هي الحالة في الغرب انما ضعف حكم الاقلية البيروقراطية هو الذي جعـل منهـا منظمـة مستقلـة في حد ذاتها . في هذا المجال تمثل القيصرية شكلاً متوسطا بين الحـكم المطلـق الأوروبي والحكم الاستبـدادي الآسيوي ويغلـب عليهـا الاقتـراب من الحكم الاستبدادي الآسيوي .

سواء عن عمد أو عن غير عمد بدأ الآن تروتسكي يتأثر بجزء من أفكار ماركس ـ ماركس الذي كان قد كتـب بأن فرنسـا في عهـد لويس نابليون قد اعتمدت نوعا من الحياة المستقلة « ما هي إلا جَسَد طفيلي مخيف يتصيد المجتمع الفرنسي كما لو بشبكة ثم يسبل على جميع الثقوب غطاء خانقاً » . أمّا وجهة النظر التي تقول بأن الدولة يمكنها أن تصبـح ليس وكالة فحسب تعمل بالنيابة عن الطبقة الحاكمة وانمـا يغلـب عليهـا بأن تكون جسما مستقلا يضغط بشدة على كل المجتمـع ـ إن هذا الـرأي ذا الأهمية القصوى في التفكير السياسي في القرن العشرين هذا الرأي يعلق

عليه الماركسيون الكلاسيكيون اهمية كبيرة . أما تروتسكي فقد ناقش تلك الفكرة في كتابه ١٩٠٥ لأنه كان يحاول ان يشرح الميزات الخاصة لحكم الفرد القيصري (الاتوقراطي) ، اما فيما بعد فكان اهتمامه بهذه المسألة اقل بكثير إذ لم تتوضح له رؤية كافية بكون الحكم المطلق في روسيا ما هو إلاّ أحد المظاهر المعرّشة فوق انواع خاصة من الحكم الطبقي كمظهر ثابت حقيقي من مظاهر التأخّر. ما اصعب تلك الايام التي عاشتها الثورة الروسية اذ أخذ القيصر يمارس اشد انواع الانتقام بالغائه كثيراً من حقوق الشعب. ففي روسيا نفسها كادت الحركة الاشتراكية تنهار اولاً بسبب مضايقات الشرطة وثانيا بسبب الانحلال الاخلاقي الداخلي بينما بقي في خارج البلاد شراذم من الاشتراكية الغاضبة . ولم يتوانَ تروتسكي في حث البلاشفة والمناشفة على اعادة الوحدة بينهما ، وربما لم يكن قد تفهم تروتسكي تماما مبلغ الاختلاف بين الحزبين او ربما كان يخشى نتائج تفهمه لتلك الحقيقة . أخذ تروتسكي يتجول من مكان الى آخر رغبة منه احيانا وبأمر ابعاد من الشرطة في اغلب الاحيان وفي جميع هذه الحالات لم يستطع ان يكسب معيشته الا بشق النفس وذلك بالمساهمة في مراسلة الصحف السياسية . وأخيراً وجد نفسه في نيويورك خلال سنوات الحرب ومن هنا أخذ يكتب لصحيفة روسية راديكالية واستمر دائبا على هذا العمل حتى وصلت اليه اخبار ثورة سنة ١٩١٧ فاندفع عائدا الى وطنه . وحري بالذكر هنا انه في غضون السنوات الواقعة ما بين الثورتين الروسيتين انحصر انجاز تروتسكي الثقافي في تطوير نظريته التي تبحث في الثورة الدائمة ـ ومرافعته ضد النقّاد داخل الحركة ـ وهو مجموعة جريئة من الآمال المختصة بالستراتيجية الماركسية في البلدان المتأخرة .

(١) روسيا القيصرية بلاد متأخرة والواجب الأول فيها هو الثورة

الديموقراطية للشعب تلك الثورة التي ستجابه المشاكل التي كانت قد حلتها ثورات الشعب فيما مضى . واعني بهذه المشاكل : الاطاحة بالحكم المطلق والغاء العلاقات شبه الاقطاعية في الريف وحق تقرير المصير للأقليات الوطنية المظلومة والدعوة الى انتخاب مجلس لتأسيس جمهورية واعلان الحريات الديموقراطية الخ .ويعود سبب تأسيس حكم مطلق قوي مركزي في روسيا هو كونها بلاد متأخرة منذ زمن طويل وهي في حاجة ماسة لتحمي اراضيها الشاسعة من الغزاة . « واعتقد بان الرأسمالية برزت وكأنها ابن الدولة » وأعني بذلك ان المراكز المبعثرة لتطورات الرأسماليين في روسيا القيصرية بدلا من ان تعارض استبداد الحكومة انحازت وبكل عطف اعتمدت على الحكم المطلق البيروقراطي القيصري .

(٢) على كل حال فواجب الثورة الشعبية يجب ان يُنْجز في روسيا بعد ان يكون الشعب قد فقد حماسه كطبقة ثائرة تلك الحماسة التي تمتع بها في عهد شبابه ، ويعتري سبب جُبْن وتردد الشعب من الطبقة المتوسطة البورجوازية الروسي الى تأخر وعزلة المجتمع الروسي . وهناك اسباب كثيرة اجتماعية واقتصادية تحفز الشعب الى معارضة الحكم المطلق القيصري ولكنه مضطر الى الارتباط به بروابط من المصالح والوهم والجبن . وفوق كل هذا فقد شاركت هذه الطبقة الحكم المطلق بالخشية المتزايدة من الطبقتين الرئيسيتين في اسفل المجتمع الروسي الا وهما « الفلاحون والعمال » واعتاد تروتسكي وهو يناقش هذه النقطة ان يقتبس جملة لبيتر ستروف(Peter Struve) ، وهو كاتب ماركسي سابق :

« كلما توغلنا في الذهاب شرقاً في اوروبا كلما ازداد الشعب عبودية وجبناً وخِسّة في سلوكه السياسي » . وبسبب هذا الضعف المتأصل ليس

في وسع الشعب الاعتيادي الروسي ان يقوم بمبادرة ثورية حتى ولو لمصلحته الخاصة أي انه لا يستطيع ان يصنع ثورته المختصة به . واذن ففي دولة متأخرة كروسيا لا تستطيع الا العامة ان تقوم بانجاز الأمور الواجبة للثورة . او بعبارة أخرى وبشكل قد يبدو متناقضاً فثورة الشعب يجب ان تقوم ضد الشعب .

(٣) وإذاً فبَينا يتوقف على الطبقة العاملة والفلاحين ان ينفذوا الثورة الشعبية فان هذه الطبقات لا يمكن اعتبارها من وزن متساوٍ إجتماعياً أو تاريخياً . فالفلاحون مثلاً بسبب تشتتهم الجغرافي وسلبيتهم التي امتدت قرونا طوالاً ثم ملكيتهم الحقيرة المتوارثة واخيراً افتقارهم الى الفطنة كل هذه الأمور جعلتهم يظهرون غير قادرين بان يتسلموا زمام الزعامة التاريخية فدورهم لم يخرج قط عن كونهم حلفاء صلبين وإنما ثانويين ، لطبقة الحضر .

(٤) اما الحلفاء الوحيدون للفلاحين فقد كانت الطبقة العاملة في المدن ـ ما لم يكن الفلاحون عبيداً في أرض تمتلكها القيصرية . فالنتيجة الحتمية التي استخلصها تروتسكي هي ان الثورة الديموقراطية الشعبية لا يمكن انجازها في بلاد متأخرة إلاّ تحت زعامة الطبقة الكادحة التي قد تكون قليلة العدد وتفتقد الى الخبرة فلا يمكنها والحالة هذه إلاّ ان تكون تحت زعامة حزب ثوري يتكلم بأسم الطبقة الكادحة . على أن العمّال بعد ان يكتسبوا القوة لن يتوقفوا امام مشاكل الثورة الشعبية فالجهود الدائبة التي تبذل لتعالج بنجاح هذه المشاكل ستضطرهم دون شك ان يتقدموا وراء حدود الملكية الشعبية وكما كتب تروتسكي فيما بعد : « لكي تنمو الثورة الديموقراطية فوراً لتصبح ثورة إشتراكية وبهذا تصبح ثورة دائمة .

(٥) فالثورة الاشتراكية التي بدأت في بلاد متأخرة لا يمكن إكمالها داخل الحدود القومية وذلك لأن القاعدة الاقتصادية ليست مأمونة كفاية كما وأن الطبقة الكادحة ليست قوية كفاية ولا تملك وَعْياً كافياً . فالقوة يمكن إمساك زمامها والخطوات نحو الاشتراكية يمكن أن تُتَّخذ في حالة واحدة فقط ألا وهي اذا تلاها بسرعة ثورات مُظَفّرة في بلدان أوروبا المتقدمة . ومن البديهي ان تأخر روسيا قد يدفعها قُدُماً في المقياس الثوري فتصبح تحت سيطرة الطبقة الكادحة وربما تصل الى هذا الحد قبل التي ينظر اليها بكونها ناضجة تماما لاحتضان الاشتراكية وذلك بسبب بلوغها كمال النمو الاقتصادي . ولكن هذا التأخر بعد أن يحمل الطبقة الكادحة على تسلم زمام القوة ، هذا التأخر سيسبب تدهورها ما لم يأتيها العون من الخارج . أو كما وضّح تروتسكي فيما بعد : « في بلد تسود به قوة الطبقة الكادحة كنتيجة للثورة الديموقراطية يتوقف مصير الدكتاتورية والاشتراكية ليس فقط على القوى المنتجة الوطنية في النهاية انما على تطور الثورة الاشتراكية العالمية .

من المسلم به انها اجرأ نظرية قدمها ماركسي روسي في السنوات السابقة للحرب العالمية الأولى كما وانها اعظمها تشخيصا لمعنى الثورة . وتتجلّ هذه الجرأة بشكل واضح حتى في هذه الأيام اذا حاولنا ان نخترق حواجز المعاني الماركسية ونتفحّص النظرية واضعين نصب اعيننا التوتر الشديد فيما بين البلاد النامية والبلاد المتقدمة في القرن العشرين . ويرى تروتسكي أن المشكلة المزعجة أي مشكلة العلاقات فيما بين التأخر والتصنيع هذه المشكلة التي في عهدنا هذا تشغل اذهان كل السياسيين العظماء ينبغي ان تحلها الجرأة التاريخية للطبقة الكادحة البدائية التطور في

البلاد المستعمرة . اما فيما يختص بالمنشفيك الذين يؤمنون بان سكان المدن هم الذين عليهم أن يقودوا الثورة الشعبية فقد كانت نظرية تروتسكي بهذا الخصوص نظرية تافهة وحتى مارتوف ، اعظم اصحاب النظريات المنشفيك فقد كتب يقول : « يحق لنا ان نتوقع انّ تقديراتنا السياسية الرصينة ستحفّز الديموقراطية الحضرية لتعمل بنفس السبيل الذي سارت عليه الديموقراطية الحضرية في غربي أوروبا في القرن الماضي بإتجاه من الرومانطيقية الثورية . ويبدو لنا ان مارتوف لم يرَ بوضوح كافٍ كم سيكون شكل « الرومانطيقية الثورية » محدوداً اذا توجّب ان تعمل بحوافز من « التقديرات السياسية الرصينة » . أما لينين فَرَغْم انه وافق تروتسكي فيما يختص بالعجز التاريخي لسكان المدن شعر بأن الطبقة الكادحة الروسية كانت اضعف واقل خبرة منْ أنْ تلعب الدور العظيم الذي خصصه لها تروتسكي وأكد بأن الثورة يجب ان يقوم بتنفيذها اتحاد بين الفلاحين والطبقة الكادحة اما فيما يختص بالعلاقة الوثيقة بين هاتين الطبقتين فقد رفض لينين ان يوضحها او يتنبأ بها . ويبدو ان فكرة حكومة ثورية تحل محل القيصرية وتشد برباط قوي الرجل العادي والأهداف الاشتراكية بدا ان هذا أمر غير محبّب للينين لأسباب محددة تاريخياً او معروفة مسبقاً : « إن ذلك لا يمكن حدوثه لأن مثل هذه الدكتاتورية الثورية هو الأمر الذي يمكن أن يكون ثابتاً . . لأنه يرتكز على أكثرية الشعب الساحقة . اما الطبقة الكادحة الروسية فانها الآن تؤلف أقلية السكان الروس » وفيما بعد أي بعد الثورة الروسية اعترف لينين بالنظرية التي سبق وتنبأ بها تروتسكي واذا تأملنا في الماضي فلا نبالغ اذا اضفنا بأن تروتسكي هو الماركسي الوحيد الذي استطاع ان يرى صورة واضحة حقيقية مسبقة لمجرى الحوادث في روسيا .

ولكن ليس هذا كل ما في الأمر اذ أن ذكاء تروتسكي في تشخيص مظاهر الثورة من الناحية التاريخية مكننا بعد عدة عقود بان نتبين الضعف الملازم لها . فالستراتيجية العظيمة الشاملة لتحوّل تاريخي عالمي تحت زعامة طبقة كادحة واثقة بنفسها كل الثقة و بصورة متزايدة وتأخذ مثل هذه الطبقة على عاتقها « المهمة » التي خصتها بها الماركسية - ففي الاوقات الراهنة لا نرى أن مثل هذا التشخيص للثورة قد تحقق كما وانه لا يوجد أي دليل يجعلنا نتوقع تحققه ، على الأقل بالشكل الذي يقبله تروتسكي ، لا في الدول المتقدمة ولا في الدول النامية . فهناك طبقات أخرى او تشكيلات اشتراكية تصبو الى ميزات وسلطات الطبقات الصاعدة قد زحزحت الطبقات الكادحة جانبا او جعلتها تخضع لاهداف تتضارب مع التوقعات الماركسية . فيبدو الآن أن سيادة الطبقة الكادحة وهي بداية ونهاية نظرية تروتسكي يبدو الآن ان هذه النظرية اصبحت عرضة للتساؤ ل بصورة متزايدة في الدول الغربية لأن الطبقة الكادحة اصبحت خاضعة للقيود الاجتماعية وتقبلت عن طيبة خاطر الامتيازات والقوانين المتعلقة بالمصلحة العامة اما في الدول النامية فلأن الطبقة الكادحة في حالة ضعف وقلق نسبي . وسواء كانت هذه الحقائق - وهي دون شك حقائق - تثير التشكك بالخطة المتعلقة بالطبقة الكادحة ودورها في بناء الاشتراكية أم بالنتيجة احتمالات وجود اشتراكية ترتكز على جهود ديمقراطية مستقلة للطبقة الكادحة . انه لتساؤ ل ينبغي ان يراود افكار كل إشتراكي عاقل ويكفي ان نلاحظ هنا ان جميع الجهود التي تبذلها القطاعات الديمقراطية في الدول الديمقراطية الاشتراكية الأوروبية كي تنحرف عن الحدود الحالية عن مصالح الدولة كل هذه الجهود لا تؤ يد نظرية تروتسكي .

وكمعظم الماركسيين الثوريين لم يستطع تروتسكي ان يتبين المدى الذي ستعْمل فيه الطبقة الكادحة في البلاد الصناعية في نطاق النظم البرلمانية لكي تحقق اهدافها . فالعمال الذين يمتلكون بيوتا وسيارات واجهزة تلفزة ليس من المحتمل ان يقعوا تحت سيطرة الافكار التمردية الا اذا حُرموا فجأة وبصورة قاسية من الفوائد التي كسبوها بواسطة نقاباتهم واحزابهم السياسية . ما زال هناك بعض التروتسكيين المخلصين وبعض الماركسيين الارثوذكس يتشبثون بالآمال والرغبات بان تتحقق تلك الرؤية ولكن تحققها ما زال مشكوكا فيه كما وانه لأمر مشكوك فيه تماما ان تؤدي الى تحوّل نحو الاشتراكية .

واذا القينا نظرة على الماضي والى خصائص الوضع الروسي نرى بأن المساعدة التي كان تروتسكي يأمل بأن يحصل عليها من الطبقة الكادحة الأوروبية لانقاذ حياة الثورة الروسية من الغرق هذه المساعدة لم يكن لها أي أثر وبعبارة اشمل لم تكن هذه المساعدة آتية لاسعاف الدول النامية في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية بمقادير كافية لتقطع الطريق على وصمة الدكتاتورية المطلقة التي ستزدهر هناك . كان لتروتسكي قصب السبق في هذه الناحية السلبية : أنكر وصول المساعدة الكافية من الغرب الصناعي لأنه كان مصراً كل الاصرار بأن مثل هذا العون لم يكن ليأتي إلا بواسطة طبقة كادحة منتصرة ، ولا شك بأن التطور الاشتراكي للدول غير النامية سيتخذ شكلاً مُشوّها من اشكال الحكم المطلق ١ .

ولقد مال تروتسكي الى المبالغة في تقدير قدرة الدول غير النامية ـ بأن تأخذ على عاتقها دور الزعامة القومية ـ طبقة كادحة قد تتمركز في مراكز صناعية قليلة مثل شنغهاي أو بمباي ، فوجهة نظر تروتسكي أن مثل هذه

الطبقات الكادحة على صغرها وحداثتها ستصل الى الطليعة في نضالها ضد السيطرة الاجنبية تشق طريقها عابرة الاصلاحات الداخلية التي خصها بها الماركسيون لأنها تتعلق بثورة الشعب المدني (جمهورية وتقسيم الأرض والحقوق السياسية الخ) وتسير قدماً وبكل بسالة لتتخطى ما مضى من قرون التخلف وكذلك لتغطّي المظهر الرأسمالي للتطور التاريخي . لا يمكن لهذا السبيل بأن يتبلور ليصبح ممكنا إلا بالتحالف مع الطبقة الكادحة المنتصرة في الغربِ فشعب هذه البلاد النامية الذي يعتمد على رأس المال الاجنبي ويفتقر الى تكريس نفسه للاهداف القومية سيفشل في تحقيق واجباته « التاريخية » ، وجدير بالذكر هنا أن هذا الجزء من نظرية تروتسكي قد أثبتته التجارب بصورة لا يتطرق اليها أي شك . ولقد ثبت دون أي جدال بأن تروتسكي وحده كان على حق فيما يختص بهذه النقطة لا المنشفيك حتى ولا لينين كان على حق . لا يوجد ولم يوجد ولن يوجد أبداً دخول تدريجي هادىء من قبل الدول النامية الى الحالة التاريخية للتصنيع الشعبي الذي سيعيد فِعْلاً التطور الغربي . فان الثورة الشعبية إذاً يجب أن تتم دون زعامة شعوب البلاد النامية وربما بشكل معارض لها ولقد ثبتت في هذه الايام صحة هذه النظرية . ولكن تروتسكي فشل في معرفة وجود احتمالات اخرى خلف ظلال التوقعات الماركسية (أو أي أمر آخر في زمنه) . ففي بعض البلدان مثل الصين وفيتنام ستتم الثورة للحصول على الاستقلال الوطني ضد السيطرة الاستعمارية ستتم هذه الثورة ليس تحت زعامة الطبقة الكادحة وانما بثورة نخبة من المثقفين الوطنيين ينعتون بشبه مثقفين بيروقراطيين حزبيين يستعملون عبارات ورموز الشيوعية للحصول على السلطة المطلقة . ستجد مثل هذه النخبة عونا في الريف اكثر مما تجد بين الطبقة الكادحة في المدن ٢ .

إن واجبات « التحديث » ، اصطلاح عصري حل محل « الثورة الشعبية » في المناقشات السياسية الحديثة هذا الاصطلاح لم تَتَبنّاه أي من الطبقات التي كان تروتسكي يعترف بها : لا طبقة سكان المدن ولا الطبقة الكادحة . إنما تعهدت البيروقراطية المستبدة بالقيام بهذه الواجبات هذه البيروقراطية التي رفعت نفسها فوق جميع الطبقات : فوق الطبقة الكادحة المُرْهقة وغير الآمنة وفوق طبقة الفلاحين الخاملين وكذلك فوق طبقة سكان المدن المشتتين . يمكن لمثل هذه المنظمة ان تدعو حشداً كبيراً من الشعب للقيام بتحركات سياسية إنما قلّما تمنحهم الحق للتمتع بممارسة سياسات لها قيمتها وبصورة ذاتية . لا يمكن للرأسمالية كما ولا يمكن للماركسية الاشتراكية أن تحسب حسابا لمثل هذه الظروف . يمكن لمثل هذه الزمرة المستبدة ان تمارس احدث انواع الدعاية وكذلك الاساليب الاستبدادية البيزنطية . وستحاول هذه الانظمة بأن تجر أمتها الى العالم العصري ، وقلما يصيبها النجاح ، وللوصول الى اهدافها تمارس القمع الوحشي والراديكالية العسكرية والاستغلالات الفطرية البدائية . وبعبارة أخرى يمكننا ان نذكر هنا أن تروتسكي فشل في توقع الظواهر العصرية للدولة المستبدة او لدولة الطبقات الكادحة ، هذه الدولة التي تستطيع ان تبرز بعض سمات الثورة الدائمة لتصبح سمات تطور إقتصادي إشتراكي فيه بعض سمات ثورة مضادة . مع كل هذا ، حتى ومع أخطائها وضعفها ، تبقى نظرية تروتسكي عدسة لها قيمتها للتعرف على ما حدث في القرن العشرين ـ ولكنها عدسة في حاجة ماسة للاصلاح .



الفصل الثاني

اغتصاب السلطة

غني عن البيان بأن الاشهر المحمومة لسنة ١٩١٧ القت قبضتها الحديدية على كل روسيا . وتوضح الآن بأن النظريات التي طالما ناقشها الثوريون وهم في المَنْفَىَ أصبحت الآن تقرر الستراتيجية السياسية للاحزاب الرئيسية . وظهر بأن ما كان موضوع الجدل والمشاحنة بين المغتربين سنة ١٩٠٣ أو سنة ١٩٠٦ أصبح الآن ذا نتيجة عملية مباشرة .

وثبت تماما بأن المتهكمين والهازئين الذين كانوا يعتبرون أنفسهم « واقعيين » اولئك الذين نظروا الى مدهشات نظريي الجناح الأيسر وكأنها موضوع للسخرية ثبت تماما بانهم هم كانوا مَن لا يستطيع أن يعالج قضية روسيا الجديدة ، وسقطت زُمَر الجناح الأيمن في دياجير اليأس ، أخذت الاحلام تنتابهم احلام اعادة القيصر والسوط والنبلاء والكهنة . وفشل الاحرار الشباب الذين تسلموا زمام السلطة في الحكومة الموقتة فشلوا في تفهم كون الثورة التي أخذت تنتشر في طول البلاد وعرضها ما هي إلا إنقلاب إشتراكي عنصري لا يمكن كبحها وإيقافها تماما في نقطة ما يعتقدون بانها مناسبة وأخذت ميول الاحزاب اليسارية تتحقق طبق الأفكار التي قضوا سنين في تطويرها . وبدا بان الثوريين من اعضاء حزب الشعب ، الاشتراكيين كانوا كما كانوا دائما مخلصين رومانطيقيين مشوشين ومنقسمين

على بعضهم ، وكان بعضهم اشخاصا صادقين نابعين من صميم الحياة الروسية إلا انهم عجزوا عن معالجة اعمق المشاكل الروسية . أما المنشفيك ، الذين كانوا قد اوصلوا الى حد الكمال الفضائل الكلاسيكية وضعف الديموقراطية الاشتراكية ، فقد تمسكوا بوجهة نظرهم القائلة بأن الثورة لن تستطيع أن تمتد وراء حدود الثورة لسكان المدن لأن روسيا المتخلفة لم تكن قد نضجت كفاية لتتقبّل الاشتراكية .

« وبديهي بأن هذه الصيغة نظرية كما وانها مدرسية لأنها اعتبرت كأن التاريخ دائما يسير في مراحل مناسبة ومعينة مذعنة لأوامر كل ما هو ممكن » ، وقد اعتبر تروتسكي وزملاؤه القلائل ، وقد اشتركوا جميعاً في زمرة أسموها مجروينتسي ، اعتبروا احداث سنة ١٩١٧ مؤيدة تماما نظرية الثورة الدائمة . وانهم لعلى صواب الى حد ما في حكمهم على تلك الاحداث كثورة عارمة عامة تتدفق من على حدود « الثورة الشعبية » . ولقد اظهر لينين وحده مرونة كافية لطرح بعض افكاره السالفة وإتخاذ بديلا استراتيجيا بسرعة .

ففيما بين شهري نيسان وتّشرين اول من سنة ١٩١٧ توصل لينين بكل ثبات الى مركز تروتسكي .

صرف تروتسكي سنوات الحرب اولاً في اوروبا ثم في نيويورك يعمل في الصحافة ويساهم في شؤون الجناح اليسار للفئات الاشتراكية . وعند اندلاع ثورة سنة ١٩١٧ تلك الثورة التي جاءت بالحريات الديموقراطية الى روسيا سارع تروتسكي في الذهاب الى بيترسبرج وهو توّاق للمساهمة في السياسات الروسية . لقد جاءت ثورة شباط كانفجار شعبي هائل وكاد

هذا الانفجار يكون ذا صفة عفوية (على ان تروتسكي في كتابه « تاريخ الثورة الروسية » ناقش ظروف الثورة قائلا ان الثورة المحلية في بتروغراد وموسكو حيث تكثر الطبقة الكادحة تزعمها ثُوّار خبيرون مدربون اكثرهم بلاشفة) . والآن وفي ربيع سنة ١٩١٧ تلك الأمة التي طال عليها الزمن وهي في حالة تامة من البُكْم بدأت تتمتع بممارسة مبادىء حرية الكلام العام .

أمّا وقد افتتنوا بالحريات التي صاروا يمارسونها فقد اندفع سكان المدن يتحاورون ويتظاهرون . أخذت الجرائد الجديدة تصدر والاحزاب تبرز الى حيّز الوجود ولقد بدا للراديكاليين ان كل ما كانوا يصبون اليه اصبح الآن بمتناول ايديهم وكأنما قد حدث كل ذلك بواسطة حادثة مباركة من حوادث التاريخ .

ولقد كان الوضع داخل روسيا في حالة ميؤ وس منها : الهزيمة في الحرب ، الجيش في حالة تضعضع كامل واقتصاد ممزّق كُليًا والفوضى تعم اجزاء من الريف ولم يكن هناك أي سلطة او أي مؤ سسة معترف بها دوليا بشكل جَلِيّ : لقد جلبت ثورة شباط معها الى حيز الوجود مركزين للقوة متنافسين رئيسيين . ألا وهما الحكومة الموقتة و« السوفييت » (المجالس) . وبدأت الحكومة الموقتة تمارس سلطتها متشبهة بالحكومات الملكية الدستورية ولكنها ما لبثت ان انتقلت الى الاشتراكية المعتدلة عندما اصبحت تصرفات الشعب تميل الى الراديكالية . اما فيما يختص بالسوفييت فقد كانت هيئات مرتجلة من ممثلين أو « برلمان » من الطبقة الكادحة (العمال) والجنود تحت زعامة المنشفيك والراديكاليين .

اما الحكومة الموقتة التي ترأسها برنس لفف ، وكادت مليوكوف ، والزعيم الشعبي كيرنسكي ، على التوالي فقد كانت بطبيعتها متزعزعة . كانت قاعدتها الطبقية ضعيفة وغير ثابتة : وكانوا على الغالب غير كفء لمقامهم كما هو منتظر : فخبرتهم قليلة جداً في جميع نواحي الحياة : اعلاها وأوطاها فيما يختص بالأمور الديموقراطية .

وكان هناك أقوياء يتربصون ليغتنموا الفرصة ويقضوا على كل من احزاب اليمين أي التجميع الجديد لضباط اليمين وايضا اليسار أي الاحزاب البلشفية وهذا يعني القضاء على الديموقراطية الفتية . اضف الى ذلك بان كل الحكومة الموقتة لم تكن راضية واحيانا كانت اعجز من ان تقوم بتقسيم الأراضي بين الفلاحين وان تضع حداً للحرب المُضْنية التي لم يكن منها جدوى . ومما لا شك فيه ان روسيا تستطيع بأن تشن حربا او تتحمل الثورة انما لا تستطيع ان تواجه الامرين معا . ولقد فشلت جميع جهود الحكومة الموقتة في ارضاء رغبات الشعب ويُعْزى ذلك الى اسباب عقائدية دع عنك الجبن الذي يصُاب به الاحرار والديموقراطيون الاشتراكيون عندما يتسلمون أمور السلطة .

وتتابعت الشهور وبالرغم من التغييرات والتبديلات في هيئة الموظفين تزايدت عزلة هذه الحكومات الموقتة . اذ عندما تثار الآمال العظام خلال الانقلابات الثورية تعجز الاحزاب المعتدلة عن ارضاء جماهير الشعب . وهذه النتيجة تنسجم تماما مع إحدى قضايا تروتسكي المنطقية التي تبحث بالثورة الدائمة وانه لتبصر صحيح ذلك الذي جعله يستنتج بان الثورة لا يمكن ان تُحُدّد طبقاً لصيغة ما . اما لينين ذلك السياسي الذي تفوّق على تروتسكي بصدد الستراتيجية السياسية فانه

سرعان ما عمل على اتباع نفس الفكرة .

وبما أن تروتسكي قد عارض مشاركة العمل مع الحكومات الموقتة حتى وعندما انضم اليها ممثلون عن الاحزاب الاشتراكية المعتدلة تحت زعامة كيرنسكي ، المتأجج حماسا وجد تروتسكي نفسه على طرفي نقيض مع المنشفيك ولفترة زمنية مع البلشفيك ايضاً . خلال الاشهر القليلة الأولى من سنة ١٩١٧ كان البلشفيك في بيترسبرج تحت زعامة جناح « مسالم » قدّم فكرة لا تختلف اختلافاً جذرياً عن نظريات المنشفيك . (وقد قامت احاديث تتعلق باعادة الوحدة للحركتين) كانت هذه الزعامة المسالمة التي تألفت من افراد لم يُنْفَوا هي التي قدمت انظمة للعمل في روسيا وحاولت ان تضغط على الحكومات الموقتة ، بالنيابة عما يطلبه الشعب وحاولت ان تعزّز ممثليها في المجالس وتحدثت عن حكومة سوفيتية كاملة (من السوفييت) ولكن من الجلي انها لم تفكر مطلقاً ببَعْث يقوم به البلشفيك خارج اجواء المجالس ولا بتسلط بلشفي كامل بواسطة المجالس (السوفييت) اتبعت هذه الزعامة خط لينين وافكاره القديمة عندما قدّم نظريته المتعلقة بـ « دكتاتورية الطبقة الكادحة والفلاحين » . لكن عندما عاد لينين الى روسيا في ربيع سنة ١٩١٧ أخذ يوجه اللوم الى زعامة « المسالمين » بسبب سياستهم السلمية وفي اطروحته الشهيرة « اطروحة نيسان » حمل حملة شعواء على الحكومة الموقتة واعلن رفضه مشاركة المنشفيك او أي اشتراكيين معتدلين آخرين وضرورة أثارة الشعب لطلب « الخبز والأرض والسلام » وبقيت مسألة السلطة غامضة ومستورة ، ولكن استطاع من له اذن حادة للسياسة ان ينصت ليتعرّف الى شكل هذه السلطة من خطابات لينين .

ماذا يعني تسلم زمام السلطة بالنسبة للينين في هذا الوقت ؟ انه ما زال يتحدث في ربيع سنة ١٩١٧ عن تشكيل حكومة سوفييت « مجالس » « يجب ان تكون كل السلطة للسوفييت : حكومة تتشكل من البلشفيك والمنشفيك وتكون مسؤولة امام المجالس « السوفييت » في هذه اللحظة وفقط في هذه اللحظة يمكن لمثل هذه الحكومة ان تتسلم زمام السلطة بواسطة وسائل سلمية .

هكذا كتب لينين وهكذا استمر يكتب لبضعة اشهر . ولكن الاشتراكيين المعتدلين المتحجرين بالتشبث بمذهبهم ، رفضوا ، من حيث المبدأ ، ان يتسلموا السلطة بأنفسهم دون إشتراك احزاب العمال معهم . ومما لا شك فيه انهم قاموا بهذا العمل بسلام وبتأييد شعبي . وفي شهر ايلول من سنة ١٩١٧ كتب لينين انه بتسلم السلطة « تستطيع المجالس (السوفييت) ان تؤمن التقدم السلمي للثورة واعتقد ان هذه الفرصة ستكون لهم الاخيرة » . وقد اتهمه خصومه فيما بعد بان كل هذا ماكان إلا حيلة لابعاد الانتباه عن نوايا البلشفيك التي كانت ما زالت تهدف الى التمرد . انما اذا امعنا النظر في أراء أحدث مؤرخي الثورة واكثرهم خبرة أي لينين نجد انه رغم كونه متأكداً من آرائه اكثر من جميع زملائه البلشفيك فانه كان يتأرجح لمدة من الزمن بين فكرة حكومة السوفييت وحكومة يتسلم زمامها البلشفيك . على كل حال فالنقطة المبهمة هنا من الوجهة السياسية انه وبالرغم من نمو الاوضاع الراديكالية للجماهير فان المنشفيك والسوفييت (المجالس) لم يقبلوا التحدي ابداً بمحاولة تشكيل حكومة إشتراكية بكل معنى الكلمة . ولم يتحدث عن مثل تلك الحكومة الا عدد ضئيل من المنشفيك بزعامة جوليوس مارتوف ، اللامع المدهش

وقد اتجه الى هذه الفكرة اكثر الرفقاء ولكن بعد خراب البصرة أي بعد ان تسلم البلشفيك زمام السلطة .

ودون أي اعتراف شكلي ـ قلّما يحتاج الانسان لمثل هذا فيما يختص بالسياسات ـ بدأ لينين يُعُبّىء معادلته الجبرية واسماها « الدكتاتورية الديموقراطية للكادحين والفلاحين » وضمنها اراء تروتسكي المدروسة والمسماة « الثورة الدائمة » ، والى هذا الحد انتقل لينين من فكرة حكومة المجالس (السوفييت) الى مشروع تمرّد بلشفي ـ على أن هذا الأمر كان معقداً إذ كان على البلشفيك ان يربحوا الاكثرية في سوفييت بتروغراد وحينئذ يستطيعون ان يشنوا حملتهم التمردية . فمن الطبيعي اذن انه قبيل تموز سنة ١٩١٧ انضم تروتسكي واصدقاؤه الى حزب لينين وتسلموا مناصب ذات مسؤولية كبيرة .

أما وقد بدأ يعمل مع حزب منظم لأول مرة في حياته العملية اصبح تروتسكي الآن الناطق باسم البلشفية خلال اشهر غليان الثورة . ويحدثنا « سوخانوف » المنشفيكي الموهوب والذي يعتبر شاهد عيان فيما يختص ببيانه التاريخي عن الثورة الروسية يحدثنا هذا المؤرخ قائلا : « لقد تحدث تروتسكي في كل مكان وفي كل وقت وقد عرفه كل كادح وكل جندي في بتروغراد واصغى الى حديثه ولقد كان تأثيره على الجماهير كما وعلى الزعماء تأثيراً بالغاً » . ولقد سجل تروتسكي في كتابه « سيرتي » وَصْفاً جذّاباً لدوره كخطيب من المع خطباء الثورة قال :

كنت عادة اتكلم في الساحات وحتى ساعات متأخرة من الليل احيانا . أمّا جمهوري فكان من الكادحين والجنود والامهات العاملات

والأولاد المتشردين في الشوارع ـ أي أدنى الطبقات البشرية ، الموجودين
في العاصمة . وكانت الساحة تكتظ بمن فيها فلا ترى امامك الا اجساما
نحيلة قد أكل الدهر عليها وشرب ، فالصغار يجلسون على اكتاف ابائهم
والرضّع على صدور امّهاتهم . لم يتعاط أي منهم عادة تدخين السكاير اما
البلكونات فقد كنت انظر الى الازدحام فيها واتوقع ان تنهار لكثرة من كان
عليها ، كنت اشق طريقي الى المنصة خلال خندق من البشر وطالما حملني
بعضهم فوق الرؤوس لشدة محبتهم لي . أما الهواء فحدّث عنه ولا حرج
لقد كان ملوّثاً بسبب التنفس وطول الانتظار وعندما تراني الجماهير يمتلىء
الهواء بالصراخ الحار والهتاف المدوي بالترحيب وانظر هنا وهناك فلا أرى
إلاّ مَرافق متزاحمة وصدوراً ورؤوساً متراصة . وما اشبه كل هذا بحُمارة
من الاجسام البشرية . وكلما مددت يدي كانت تلمس شخصا ما وكنت
اسمع اذ ذاك مَنْ يطمئنني بأن لا اهتم بذلك وان اواصل كلمتي . ولا
اعتقد ان هناك خطيبا مهما بلغ به الاعياء يمكنه ان يقاوم مثل هذا التوتر
الكهربائي والتعطش الهائل للفهم والتعرف على الاوضاع ـ الحُـبطلب
المعرفة والفهم والاصرار لاكتشاف الطريق التي عليهـم ان يسلكوهـا .
وكنت احياناً اكاد المس حب الاستطلاع الرائع الذي يعـمّ ذلك الحشـد
واللذي بدا وكأنه كيان واحد لحشد هائل ، وعندئذ تذوب وتختفـي جميع
الافكار والكلمات التي أُعِدَّت مسبقا ويحل محلهـا كلمات كلهـا عطف
ومحبة كأجوبة للأسئلة التي يوجهها الجمهور بكل الحاح واصرار ، وكانت
أجوبتي تنبثق من صميم قلبي وبكل اخلاص ومحبة ودون أي استعـداد
مسبق . وفي جميع هذه الحالات كنت اشعر وكأنني أستمع الى خطيب من
الخارج يحاول ان يحافظ على ترتيب افكاره وهي تتدفق دون استعداد وقد
كان يخشى بأن يجد نفسه يمشي وهو نائم فوق سطح وقد يقع في كل لحظة

ويهوي الى الأرض حالما يصبح واعيا محاولا ان يجيب بعبارات كان قد اعدّها من قبل .

أما مغادرة الساحة فكان اصعب بكثير من دخولها ويأبى الجمهور أن يحل وحدته والتحامه الجديدين ويرفض التفرق وفي حالة مرهقة من اللاوعي اشعر بأنني اتحرك طائراً وعائما فوق وعلى مئات الايدي التي كانت تتلقفني من مكان إلى آخر وأنا اقطع شبراً بعد شبر فوق الرؤوس حتى أصل في النهاية الى المخرج . وكثيراً ما كنت الاحظ بين الحشد وجهي ابنتي اللتين تسكنان في مكان قريب مع أمّهما اما الكبرى فعمرها ست عشرةسنة وإما الاصغر فعمرها خمس عشرة فلا أكاد اشير لهما بالتحية او اضغط على يديهما وانا خارج حتى يفصلني الجمهور عنهما . كان تروتسكي اكثر من خطيب مصْقع واكثر من وسيط كثير الحساسية يتوسط بين الجماهير الثائرة والزعامة البلشفية الصارمة . وداخل المجالس (السوفييت) حيث اتخذت المناقشات والخصامات أحدّ أشكالها بين احزاب اليسار برز تروتسكي كناطق رئيسي باسم البلشفية وقد اكتسب بذلك كراهية وبغض كثير من اخصامه بسبب ما كان يتمتع به من اسلوب خطابي وطول باع في الجدال وشدة بأس وجرأة تبرز من كل كلمة ينطق بها .

وجاءت « ايام تموز » الايام التي شاهدت مظاهرات شعبية محمومة وغير منظمة ، وحتى البلاشفة واجهوا اشد المتاعب في كبح ثورة هذه المظاهرات التي كانوا يخشون ان تطور الى اغتصاب زمام السلطة من ايديهم . وادت هذه المظاهرات الى رد فعل حكومي وتبع ذلك تدهور في الزعامة البلشفية ونتج عن ذلك ان زُج تروتسكي في السجن لبضعة

اسابيع واضطر لينين ان يلجأ الى مكان خفي يختبيء فيه ، وانتهز الجناح اليميني الفرصة وبدأ يعمل في شهر آب وقام بانقلاب بقيادة الجنرال كورنيلوف ، ولكن قوة الطبقة الكادحة في بتروغراد بالاشتراك مع حامية بتروغراد الباسلة تمكنوا من صد جنود كورنيلوف ثم تمكنت الفرق الثائرة التي ارسلها السوفييت من القضاء نهائيا على جنود كورنيلوف . فانهار الانقلاب وكسب البلشفيك سمعة سياسية للدور الذي قاموا به في حشد الجماهير للاطاحة بالانقلاب . وبهذا مال الميزان السياسي الى جناح اليسار وفي اواخر ايلول نال البلشفيك اكثرية ساحقة في سوفييت (مجلس) بتروغراد واصبح تروتسكي الذي كان قد خرج من السجن لتوه رئيسا للمجلس . وهاكم كلمته عندما انتخب اذ انها تحمل في طياتها بعض التلميحات المفجعة : يقول تروتسكي :

إنني متأكد بأن اللجنة الدائمة الشيوعية سيرافقها ارتفاع جديد في تطور الثورة . اننا ننتمي الى احزاب مختلفة وعلى كل منّا واجبات يجب ان ننجزها . ولكن ونحن ندير عمل سوفييت بتروغراد سنراعي حقوق الافراد والحرية الكاملة لكل الاحزاب واريد ان أؤكد هنا ان ذراع اللجنة الدائمة لن تستعمل لخنق نشاطات أيّة أقلّية .

اما وقد سيطر البلشفيك على سوفييت بتروغراد ، وهو اكبر مجلس في كل البلاد ـ فقد اصبح لهم غطاء شرعيا لثورتهم وسرعان ما بدأوا يقومون بعمليات مُنَسّقة متتابعة بلطف وبنوع معتدل من الصعوبة وقليل من الدماء حتى اطاحوا بحكومة كرنسكي . كتب جوزيف ستالين بعد ذلك بقليل « لقد قام رئيس سوفييت بتروغراد بالتنظيمات العملية للتمرد » ، ولم يكن هذا الرئيس الآ تروتسكي وكما قال ستالين « الرفيق تروتسكي »

و من الممكن ان تعلن وبكل تأكيد أن سرعة انضمام حامية بتروغراد الى سوڤييت بتروغراد وان الانجازات التي قامت بها لجنة الثورة العسكرية (الهيئة المنوط بها ادارة كل التمرد) هذه كلها مدينة بنجاحها بصورة رئيسية وبالدرجة الاولى لجهود « تروتسكي » وتشكلت حكومة ترأسها لينين واصبح تروتسكي فيها وزيراً للخارجية . وقبل أن نلقي نظرة على انجازات تروتسكي كناطق باسم حكومته ومخاطبا كل العالم وكقائد عسكري للنظام البلشفي علينا ان نتوقف قليلا لنلقي نظرة على ماهية ومعنى ثورة تشرين اول . اذ ان أي تقدير لدور تروتسكي كمساهم في التاريخ العصري يعتمد على ما يمكن للمرء ان يستنتجه ويتفهمه من هذه الثورة .

سيطرت اسطورتان رهيبتان على أفكار الدول الغربية فيما يختص بثورة تشرين اول . اما الاسطورة الأولى فتحدثنا بان البلشفيك ـ وهم يحتفلون بالثورة التي اكملت غليان الجماهير الذي لا يقاوم وهذا يُعتبر انجاز مدهش لعملية تاريخية تبشر بعهد الثورة الاشتراكية ـ وقد تحقق كل ذلك بتوجيه وقيادة قام بها ونفذّها خبراء الطليعة البلشفية . اما الاسطورة الثانية فهي « اللابلشفية » أي المضادة للبلشفيك التي تظهر الاسف الشديد على ثورة تعمل تحت سيطرة اقلية متآمرة إغتصبت السلطة من ديموقراطية روسية مزعزعة وبهذا تكون قد بدأت المظالم التي تميز السلطات المستبدة الشيوعية المحتكرة للسلطة (التوتاليتاريا) في هذا القرن العشرين . ومقابل ذلك اسمح لي ايها القارىء العزيز أن ابدي فكرة خاصة ألا وهي بأنني أرى ان كلا من هاتين الفكرتين تحمل في طيّاتها كثير من عناصر الصدق إلا انه يبدو لي ان كلا منهما ما هي إلا صورة

مبسطة بشكل فخم . إذ كلما اقترب الانسان الى الحوادث الفعلية لشهر تشرين اول سنة ١٩١٧ كلما قلّ إقتناعه « بحتميتها » فيما يختص بالماركسية او اللاماركسية وكلما ازداد اكتشافه للاخطاء والضعف والحوادث والفشل والفرص التي لم تكن تنتهز كما يجب والعقل البشري كثيراً ما يقبل ظروف الحتمية التاريخية الفاتنة اذ ان هذه الحتمية تحجب كل بديل لما حدث وتُقصي الشكوك وتؤكد ما يشعر به الانسان لما يبدو ضرورة ملحة على انني أرى ان الحقيقة ابعد من ان تفهم بسهولة واكثر تعقيدا .

استمر الحزب البلشفي في النمو طيلة سنة ١٩١٧ وخاصة في المدن الصناعية والتجارية : ولقد قدمت اسبابا لهذا النمو وهي : صعوبة الحياة في بلاد مقهورة وعجز الحكومات الموقته لتوفير حاجات الشعب الضرورية والصلابة العقائدية والرخاوة السياسية للاشتراكي العصري والمهارة البلشفية لاثارة الشعب اضف الى كل ذلك اندفاع شعب رَفعَ عنه نير القيصرية نحو الحلول مهما كانت متطرفة ، وتقاطر عشرات الآلوف من الاعضاء لينضموا الى الحزب البلشفي ، وبهذا اصبح محتما على لينين ان يعدل نموذجه فيما يختص بالطليعة المنظمة تنظيما تاما . ومن البديهي انه داخل حزب كهذا تتولد تيارات لآراء مختلفة يصرح اتباعها بما يختلج في افئدتهم دونما خوف او وجل معبرين عن ميولهم المتنوعة وكل فئة تتنافس وتتصارع مع الفئات الاخرى متشبثة بآرائها . وانقسم الحزب الى اقسام منظمة منوّعة . يقول رابينوفتش في دراسة تعمّق بها لهذه الفترة في كتابه « استلم البلشفيك زمام السلطة » : خلال الاشهر الحرجة المحمومة لسنة ١٩١٧ ظهرت صراعات عنيفة فيما بين اللجنة المركزية ولجنة بتروغراد وكذلك بين زعامة الحزب ولجنة الثورة العسكرية (التي اقيمت كوكالة

تابعة لسوفييت بتروغراد ولكنها كانت بالفعل تحت السيطرة البلشفية) .

وانقسم الحزب الى اقسام اهمها بزعامة لينين وتروتسكي اللذين تمسّكا بكل الاشياء المرئية للتمرد والقسم الثاني « بلاشفة حزب اليمين » بزعامة كمينيف ورايكوف ، وزينوفيف ، ونوجن ، وكلهم اعضاء في اللجنة المركزية وكانوا يحبّذون العمل الدائب المستمر داخل المجالس (السوفييت) وألفوا إئتلافا من الاحزاب اليسارية ليحل محل حكومة كرنسكي غير المناسبة . ومما لا شك فيه انه لولا سلطة لينين الشخصية الساحقة التي احسن استعمالها وبكل فعّاليّة داخل الزعامة البلشفية والحاحه بان يتحركوا جميعا نحو هدف واحد هو الثورة والتمرد والاّ فسيواجهون جميعا معارك حزبية متواصلة - وباختصار فلولا دور لينين التاريخي الحاسم لما قام الحزب البلشفي بثورة تشرين اول . إن طبيعة هذا الدور يجعلنا غير قادرين على الاثبات المؤكد لكل ما نذكر . ولكن يبدو لي ان الدلائل مقنعة بصورة كافية . ولقد قال تروتسكي كثيراً في كتابه « التاريخ » بأن كثيراً من قدامى البلشفيك تآزروا في المواقف الحرجة واصبحوا اقل قبولا لآراء لينين من تروتسكي نفسه الذي كان ما زال جديداً بين الزعماء البلاشفة . ومن كتاب رابينوفتش نتبين ، بأن جزءاً كبيرا من الزعامة البلشفية كانت ترتاب بآراء لينين فيما يختص بالثورة ويؤكد رابينوفتش ، بانهم كانوا اكثر عدداً ممّن صوّت ضد لينين .

أما على صعيد الطبقة الكادحة والجنود فيبدو ان ما كانوا يهدفون اليه في المدن الرئيسية وما كان ممثلوهم يطلبون بالحاح واصرار فهو حكومة سوفييت وهذا يعني تشكيل حكومة من احزاب اليسار المختلفة حكومة تستمدّ سلطتها من صلاحيات المجالس القوية ومن متانة استقرارها والتي

تتعهد باصلاحات واسعة المدى : (تقسيم الأراضي ومفاوضات للسلام ووضع حد لاحكام الاعدام وسيطرة العمال على جميع نواحي الانتاج الخ) ثم سرعة انعقاد لجنة تأسيسية تُقرر بصورة رسمية شكل الحكم في روسيا . ويبدو ان جميع الدلائل التي تأكد منها المؤرخون تُثبت هذه النقاط . وبالفعل عندما اغتصب البلاشفة السلطة جابهوا مصاعب كبيرة في اخفاء ثورتهم تحت قناع واقٍ هو « الشرعية السوفيتية » . مع انهم قدموا للسوفييت « الامر الواقع » كما أصر لينين على تسميته بكل اخلاص .

ولنأخذ على سبيل المثال سوفيتياً له آراؤه الخاصة على الصعيد السياسي : السوفييت الذي تأسس في كرونسدات ، وهي مركز للاسطول قرب بتروغراد ويشتهر هذا المركز بما لبحّارته من الافكار الخاصة المستقلة عن غيرها . تختلف الاعتقادات السياسية في هذا المركز الراديكالي اختلافا بيّناً عما خلقته الثورة البلشفية من آراء وإعتقادات. اقترح هذا السوفييت « الـKronsdat » كما يقول رابينوفتش ، ما أسموه « انفجار حاسم » والانتهاء من الرأسمالية ، ثم نَقْل السلطة الى العمال والفلاحين والجنود وهم جميعاً الثوار الحقيقيون ثم خَلْق جمهورية ديموقراطية » واعلنوا ، يقول رابينوفتش ، بان جميع الفئات الاشتراكية ستمثّل في هذا السوفييت المقترح ومن البديهي انه من المتوقع مواجهة صعوبات جمّة ليس اقلها مشكلة كيفية التوفيق بين من يريد الاستمرار في الحرب ومن يريد وضع حد لها .

وترددت في الجو اصداء نوعين من الحكومات : الأول يشترك في السوفييت الحاكم كل الاحزاب اللابلشفية وفي هذه الحالة يشكل

البلشفيك حزبا معارضاً مخلصاً للحكومة والنوع الثاني مجلس يشترك فيه جميع الاحزاب بما فيها البلشفيك وهكذا يكون اتجاه السوفييت الى ناحية اليسار . ودارت مفاوضات معقدة بين احزاب اليسار . أمّا داخل حزب المنشفيك ، الذي أخذ يخسر كثيراً من التأييد الشعبي ، فقد برز فيه جناح يساري بزعامة مارتوف تدرّج في ارتقاء سلم القوة ، اتفق جماعة مارتوف مع البلشفيك في التطلع الى نهاية سريعة للحرب والى سلسلة من الاصلاحات الفورية التي ، ومع ابتعادها نوعا ما عن الاشتراكية ، ستدفع بالثورة قدما الى الحدود البرجوازية تلك الحدود التي ما زال حزب المنشفيك متمسكا بها . وقد رأى اليمين من حزب البلشفيك ان في مثل هذا الائتلاف مخرجا واقيا للثورة يحفظها من مصير محتوم ـ وقد رأى كامينيف وزينوفييف ان ذلك قد يؤدي الى كارثة (ومن الغريب ان قلّة من البلشفيك قد تنبأت بأن النجاح قد يؤدي الى كارثة اشد هولا) .

أما داخل صفوف البلشفيك فقد قام كامينيف وزينوفييف بقيادة الزعماء المعارضين للثورة مدعيين بانه بعد مرور بعض السنوات ستقوم نزاعات شديدة داخل حزب البلشفيك معارضة للافكار اللينينية الارثوذكسية . واننا حين ننظر اليوم الى هذه الاقوال نرى بأنها كانت حكيمة . لقد ركّزوا معارضتهم لآراء لينين وقدموها بشكل عبارات تكتيكية (فنّية) مشددين على صعوبات واخطار الثورة بغض النظر عن الثمن الغالي الذي سيدفعونه عند الفشل . انما ليس من الصعب ان نلاحظ من ثنايا مناقشاتهم بأن مشاكل البلشفيك ستزداد عنفا إذا بالفعل تسلموا زمام السلطة . ففي بيان موجه الى اللجنة المركزية عشية شهر تشرين أوّل شددّ زينوفييف وكامينيف على اهمية « البرجوازية الضعيفة

اي الطبقة المتوسطة . واضافوا بان الطبقة الكادحة لوحدها لا تستطيع بأن تتم الثورة - او بعبارة أخرى الوصول الى الاهداف الاشتراكية التي اعلنها الحزب . واردف الزعيمان : « لا يمكننا ان نَغُضّ النظر عن وجود طبقة ثالثة ضخمة بيننا وبين طبقة الفلاحين ألا وهي طبقة البرجوازية الضئيلة العدد القوية الفعل ، هذه الطبقة هي التي انضمت الينا اثناء مشكلة كورنيلوف ، وبهذا جلبت لنا النصر وما من شك بانها ستنضم الينا وتحالفنا مرات عديدة ولكنها الآن اقرب الى الطبقة المتوسطة بشكل عام مما هي الينا » .

ولقد إرتاب كامينيف وزينوفييف بادعاء لينين بان اكثرية من السكان الروسيين يساندون البلشفيك (هل كان لينين بالفعل يؤمن بهذا القول ؟) وكانت وجهة نظرهما بأن اكثرية الطبقة الكادحة ونسبة مئوية كبيرة من الجنود كانت تؤيد البلاشفة ولكن غير ذلك مشكوك فيه ، وأردف الزعيمان مؤكدين بانه في حالة الانتخابات للمجلس التأسيسي سيجد البلاشفة انفسهم اقلّية مطلقة متأخرين كثيراً عن السوفييت الذي يدعمه الفلاحون . وقالا : أمّا بخصوص ما يدّعيه لينين بان اكثرية حزب العمال الدولية مع البلاشفة فاننا ولسوء الحظ نعلن ان هذا غير صحيح . وللثورة في البحرية الالمانية دون شك اهمية كبيرة انما عرضية ومن المُستبعد بأن تمد تلك الثورة أي مساعدة فعّالة للثورة العمالية في روسيا . وأخيراً فمن المضر كثيراً ان نُقَدر قواتنا فوق ما تَسْتَحق .

من الناحية التكتيكية كان كامينيف وزينوفييف مخطئين . ثبت بان اغتصاب السلطة تَمّ بمنتهى السهولة ولم يكن للمحاذير التي عبّر عنها البلاشفة المعتدلون أي اساس . أمّا على الصعيد التاريخي الأوسع فاننا إن

أمعّنا النظر بالثمن الذي دفعه البلشفيك حتى يحتفظوا بسلطتهم والثمن الذي على الشعب الروسي ان يدفعه اذا استمر البلاشفة متمسكين بزمام السلطة عندئذ نحكم بان النقاش الذي اثاره كامينيف وزينوفييف له ما يبرره . اذ بالفعل سيتحول فلاحو الطبقة المتوسطة في الريف الروسي الى عبء ثقيل على كاهل النظام الجديد . فيثبت بأن الطبقة الكادحة غير قوية كفاية ولا واثقة بنفسها تماما بحيث تحافظ على معنوية اشتراكية حقيقية او ان تمنع التباين العظيم بينها وبين الاتوقراطية (حكم الفرد) البلشفية على الصعيد السياسي . واما فيما يختص بالطبقة العاملة العالمية فيجدر بي ان اسجل ملاحظة لتروتسكي اثناء حواره مع مارتوف سنة ١٩١٧ : قال تروتسكي : لو أن روسيا ستقف وحيدة في العالم دون أي يد مساعدة فأني أقر هنا بأن التعليل الذي ابداه مارتوف ذاكراً (بأن روسيا لم تكن قد نضجت كفاية لتتقبل الاشتراكية) لو حصل هذا لكان مارتوف على حق .

صرح نوجن ببيان له قيمته من الصحة في المستقبل ونوجن هذا شخصية لا نعرف عنه الكثير إلا انه بلشفي معتدل . فبعد ان تسلم الحزب زمام السلطة لاح في الجو تساؤل يدور حول تشكيل حكومة إئتلافية ولكن الزعامة المسيطرة اصرت على تشكيل حكومة بلشفية مقصورة على الحزب وعندها قدّم العديد من البلاشفة استقالتهم وبينهم نوجن ، الذي قال : « إن مثل هذه الحكومة لا يمكنها ان تبقى محافظة على سلطتها إلا بواسطة الارهاب السياسي » وأردف انها تمثّل نظاما غير مسؤول ولا شك بانها ستزيل جميع المنظمات العمالية من كراسي الزعامة السياسية » . تصلح هذه العبارات التي تفوه بها زعيم بلشفي من المرتبة الثانية كسَنَد قوي يدعم مناقشات زينوفييف وكامينيف وربما أيضاً تجيب

على السؤال الذي اطلقه لينين في كتابه « هل سيحتفظ البلافشة بالسلطة في الدولة ؟ » اذا كان ١٣٠٠٠٠ من ملاكي الأراضي استطاعوا ان يحكموا روسيا بعد ثورة سنة ١٩٠٥ فماذا يمنع اذن ٢٤٠٠٠٠ الف من اعضاء الحزب البلشفي من حكمها الآن ؟ (عليَّ ان اذكر أن الـ ٢٤٠٠٠٠ يمكنهم أن يحكموا اذا توصلوا الى ، وزادوا على ، روح الظلم والاستبداد التي مارسها الـ ١٣٠٠٠٠ الذين حلّوا محلهم » .

ان ما إرتآه البلاشفة اليمينيون « المعتدلون » يقارب كثيراً ما اقترحه مارتوف أي : دورة برلمانية معتمدة منطقيا على تشكيل حكومة سوفيتية مسالمة وتحضرّ هذه الحكومة لجمعية تأسيسية يكون فيها الأغلبية المطلقة لأحزاب اليسار وحينئذ تستطيع هذه الاحزاب ان تسبل الصفة الرسمية على سلطتها الديموقراطية . ومن الجدير بالذكر هنا بأن مناقشات لينين وتروتسكي لهذه السلسلة الموصلة الى الحكم الديموقراطي هذه المناقشات لها وزنها وما يبررها . كيف يمكننا أن نتوقع أن يقوم المنشفيك ومجالس (السوفييت) بِسَنّ القوانين الاصلاحية اللازمة بينما نرى انهم اثناء الاشهر التي تولّوا فيها زمام الحكومات الموقتة لم يعملوا أي شيء في هذا السبيل ؟ وكيف يمكن لحكومة إئتلافية إشتراكية بان تتخذ موقفا واضحاً على صعيد الحزب ونحن نرى الاحزاب الاشتراكية مقسّمة بصورة لا رجاء فيها . ؟ أوَ ليس من الجلي بأن مثل هذا النظام سيكون بالتأكيد ضعيفاً وغير مجُد ويؤدي الى انحطاط متزايد في الروح المعنوية للشعب وبعد ذلك الى النصر المحتمل لثورة جديدة يمينية مضادة ؟ طبعاً هناك اجوبة على هذه التساؤلات . لقد اصبحت الفئة المضادة للحرب بين صفوف المنشفيك اقوى ممّا كانت عليه . ستُجْبر ممثلو الكتل الشعبية

الحكومة الاشتراكية بان تقف في وضع اكثر ثباتا . ولقد كان دعم العمال والجنود للاحزاب السوفيتية (المجالس) قويا لدرجة يصبح فيها انتصار ثورة مضادة بعيد الاحتمال . ان المسائل التي نعالجها هنا طريقنا اليها كلها نظريات وتوقعات واحتمالات وانه لمن غير المتوقع التوصل الى نتائج مضمونة بالفعل . انما عندما نعود الى الوراء لنلقي نظرة على النتائج التاريخية التي اسفر عنها تسلم البلشفيك زمام السلطة فمن الصعب علينا ان نؤمن بان مصير روسيا سيكون أسوأ لو أن الحزب إتبع الخطوط التي رسمها زينوفييف وكامينيف ونوجن والمعتدلون الآخرون . وهناك إحتمال ، على ضآلته ، بان روسيا ستحافظ حينئذ على نظام ديموقراطي . وهنا يمكن للمرء ان يجيب على دور الفرد في مجريات التاريخ . اذ كان لسلطة لينين المتفوقة ومواهبه السياسية ومقرراته الحاثة على الثورة نتائج حاسمة .

خلال الاسابيع التي تلت مباشرة اغتصاب السلطة توترت العلاقات الى اقصى حدود التوتر وظهرت الخلافات بشكل جلي بين كل من البلاشفة واحزاب اليسار المنهزمين . وحدثت مجابهات بدا من خلالها ان الموقف كان اشد حرجاً واعمق مما ظهر اثناء الجدال والخصام :

ـ منتصف نهار ٢٥ تشرين اول . لقد انتصرت الثورة في بتروغراد . انعقد سوفييت بتروغراد ، واعلن تروتسكي : « بالنيابة عن لجنة الثورة العسكرية أعْلنُ ان الحكومة الموقتة لم يعد لها وجود ».

أصوات حماس وهتاف من جمهور المستمعين . علينا أن نذكر هنا انه قبل يومين فقط من هذا الاعلان قال تروتسكي ان نزاعا مسلحاً « اليوم أو

غداً عشية مؤتمر السوفييتات (المجالس) الروسية ليس في نيتنا ابداً » .
وقاطع تروتسكي صوتٌ من بين المستمعين : « يبدو انك تتحدث سلفاً عن رغبات مؤتمر السوفييتات الثاني ! » والتهب تروتسكي بحماس الثقة الثورية واندفع مجيبا بصوت مرتفع « ان رغبات مؤتمـر « السوفييتـات » الثاني قد قررها وعبّر عنها بكل وضوح ثورة الكادحين والجنود » وهكذا فقـد تأكدّ البلاشفـة المنتصرون بأن السوفييتـات لن يكون لهـا أي ارادة مستقلة وقد تمكنوا من التوصل الى ذلك بواسطة السيطرة على ارادة العمال الكادحين والجنود .

- في نفس المساء إنعقـد مؤتمـر السوفييتـات لجميع روسيا . حصـل البلاشفة على اغلبية مطلقة وهذا يظهر انهم استطاعوا ان يدخلوا الى قلوب الجماهير (قبيل تموز كان عدد حزب البلاشفة في بتروغراد ٣٢٠٠٠ امـا المنشفيك فبلغ عددهـم ٣٠٠٠٠) . اثناء انعقـاد المؤتمـر شن المنشفيك والراديكاليون حملة شعواء ضد البلاشفة بسبب اغتصابهم للسلطة وقالوا « ما هذا إلاّ إنتهاك للأصـول الديموقـراطية إن ذلك يُقَـوِّض شرعية السوفييت اقترح مارتوف وهو يتكلم باسم الجناح اليسار لحزب المنشفيك ان يتبنى المؤتمر قراراً سلمياً فيما يختص بالنزاعات مع النظـر في تشـكيل حكومة برلمانية لجميع السوفييتات تكون الطليعـة للجمعية التـأسيسية .. وهتف النواب لهذا الاقتراح ونهض لوناشرسكي ، وقـال « ان حزبـه لا يعارض ابداً هذا الاقتراح » هذا مع العلم ان لوناشرسكي ، كان بلشفياً معتدلاً . والسؤال هنا « هل قيل هذا باخلاص ؟ » لقد آمن باخـلاص بعض البلاشفة اما البعض الآخر فقد قال بان ذلك الاقتراح لم يكن إلاّ لكسب الوقت بحيث يستطيعون ان يعـزّزوا سيطرتهـم . أُقِـرّ إقتـراح

مارتوف بالاجماع . وعند هذه النقطة قام المنشفيك والراديكاليون اليمينيون بغلطة كبيرة لأنهم انسحبوا من المؤتمر قائلين بأن ذلك القرار قد نُفّذ بالقوة[4] أمّا مارتوف الذي اصبح في اشد حالات الحيرة بين رغبةٍ للتنديد بالتمرد البلشفي وحاجة ملحة لايجاد حل وسط فارتأى ان يتبنى المجلس قراراً يحمل على « الانقلاب » ويدعو الى حكومة ديموقراطية تشمل البلاشفة . وعند هذا ينهض تروتسكي وهو الناطق الفذ باسم البلاشفة ، ويقف على المنصة قريبا جداً من صديقه القديم مارتوف . كان عندئذ في القاعة شاهد امريكي اسمه جون ريد ، واخذ يصف لنا ردّ تروتسكي الذي كان يقف منحنيا الى الامام « بوجهه الشاحب القاسي بينما تدفقت كلماته بصوته العذب الهازىء» قال جون ريد : قال تروتسكي :

إن ثورة جماهير الشعب ليست في حاجة الى تبرير . ان ما حدث هو ثورة وليس مؤامرة . نحن الذين شدّدنا طاقات جنود وعمال بتروغراد . واذن فليس هناك ما يسمى حلّ وسط . اما بالنسبة لمن تَركنَا ولمن يطلب منّا ان نقوم بهذا علينا ان نجيب : ما انتم إلا بؤساء مفلسين . لقد لعبتم دوركم فاذهبوا الى حيث تنتسبون : الى صندوق القمامة والى زبالة التاريخ .

لا شك ان كلمات كهذه ينطق بها رجل سيحكم عليه بالنفي فيما بعد تبدو مخيفة ومحزنة في نفس الوقت . مخيفة ومحزنة لأن قائلها قد فشل في الرؤية بأن الذين ينتهون الى صندوق قمامة التاريخ هم ليسوا دائما غير الجديرين او حتى الذين على صواب على الصعيد السياسي .

ويصيح مارتوف وهو يرتجف في حالة قنوط تامة « واذن فسنغادر هذا

المكان ! » ويذكر بوريس نقولافسكي ، صديق مارتوف أن هذا الاخير : مشى بصمت ولم ينظر الى الوراء حتى ولم يتوقف حتى وصل الى باب الخروج وعند ذلك التفت اليه شاب بلشفي وقال ببرارة ظاهرة : « إن ما كنّا نفكر به هو أن مارتوف على الأقل سيبقى معنا » . لدغت هذه الكلمات صميم قلب مارتوف توقف ورفع رأسه في تلك اللحظة الحاسمة كما لو انه اراد ان يجيب ولكنه اقتصر على القول : « ستدرك يوما ما جسامة الجريمة التي تشترك فيها » .

من غرائب المصادفة ان هذا العامل البلشفي ، إيفان أكولوف قد اختفى عندما قام ستالين بعمليات التطهير في الثلاثينات من القرن العشرين وكأن كلمات مارتوف كانت كتورية لما سيحل بهذا الشاب بقيت هناك امكانية ضئيلة لانعقاد حكومة سوفييتات صرفة . ففي اوائل تشرين الثاني اعلن اتحاد عمال سكك الحديد فكجل ، اثناء انعقاد جلسة من جلسات مؤتمر السوفييتات بان الاتحاد ما زال يصر على معارضته استلام حزب واحد كل السلطة . وطالب الاتحاد بعناد بأحداث نظام يرتكز على القوى العاملة لجميع الاحزاب الاشتراكية ثم وضّح الاتحاد بانه يصر على ابقاء سيطرته على جميع السكك الحديدية وانهى الاتحاد اعلانه بالتهديد بقطع الاغذية عن بتروغراد في حالة ممارسة الاعمال الانتقامية ضد اعضائه . ولا شك بان تهديداً كهذا له قيمته لأن لهذا الاتحاد قيمته المحلية الستراتيجية . وتتابعت المفاوضات : لزم لينين وتروتسكي الصمت لبرهة . وحري بالذكر هنا ان المؤرخ ليونارد شابيرو ، الشجاع يقول : « ظهرت المفاوضات وكأنها محاولة مخلصة لتشكيل إئتلاف اوسع وبهذا تُتَجنّب حرب اهلية ويُستَبْعد حكمُ الاقلية بالقوة » . وهنا مرة ثانية ودون

احكام الرأي يتخذ المنشفيك والراديكاليون اليمينيون وضعا اقل ما يقال فيه انه يدل على الكبرياء الفارغة : واعلنوا اول ما اعلنوا بان البلاشفة يجب ان يُسْتَثْنوا من مثل هذه الحكومة لأنهم ، قالوا ، قد انتهكوا حرمة الديموقراطية (لا شك في ذلك ولكن يجب ان لا ننسى انهم يمتلكون القوة . .) . وبعدئذ تنازل المنشفيك والراديكاليون اليمينيون عن تطرفهم ووافقوا على تشكيل حكومة إئتلافية يشترك فيها البلاشفة ولكنهم اشترطوا ان يمنع كل من لينين وتروتسكي من الاشتراك في مثل هذه الحكومة . لو أن تلك الاحزاب الاشتراكية التي كانت حينئذ لا حول لها ولا قوة إختارت بان تساند لينين وتروتسكي لما استطاعت ان تقوم بعمل افضل . ونهض لينين في جلسة تالية من جلسات اللجنة المركزية البلشفية وقال : « إن النقاش الذي بدأه اتحاد سكك الحديد « فكجل » لم يعالج كما يجب اذ في رأيي انه كان علينا ان ننظر اليه كغطاء سياسي لعمل حربي ، واعني بذلك اعطاء الحكومة البلشفية وقتا كافياً لارسال تعزيزات الى موسكو حيث لم تكن الثورة قد وصلت الى كمالها بعد . وفي غضون هذه التطورات اخذت شقة الخلاف بين البلاشفة تزداد عمقاً .
وحدث في ١٥ تشرين الثاني ان صوت بعض البلاشفة المعتدلين ضد الخط الذي كان حزبهم يسير عليه فيما يختص بالمفاوضات للتوصل الى حكومة إئتلافية وذلك أثناء إنعقاد اللجنة التنفيذية المركزية للسوفييتات . وبعد يومين قدم سبعة او ثمانية اعضاء من الحكومة البلشفية استقالتهم وذلك احتجاجا على تعطيل صحيفة حرة برجوازية ، ولكن سرعان ما فشل تمردهم وذلك اولاً لأن المعارضة ضد لينين داخل الزعامة لم تكن ثابتة تماما ولم تكن ترتكز على مبدأ مقبول وثانياً لأن الاحزاب الاشتراكية الاخرى اظهرت عدم كفاءة بشكل واضح اضف الى ذلك انه كانت قد تمت

المصادقة على القرار . وبقيت القوة في يدي لينين وتروتسكي على الأقل في العاصمة ومع انه قد دخل الحكومة عناصر من الراديكاليين اليمينين لبرهة من الوقت ولكن البلاشفة هم الذين حكموا . واستمرت المعارضة قادرة على الكلام لبرهة وجيزة هذه المعارضة التي تزعمها الراديكاليون المنشقون وبعد ستة اسابيع مضت على ثورة اكتوبر كتبت جريدة مكسيم غوركي ، نوفايا جيزا ، انتقادا لاذعاً هاجمت فيه الحكام الجدد .

لقد كانت سيطرة السوفييتات حبراً على ورق خيالا وليس حقيقة . واجه مؤتمر السوفييتات الثاني لجميع روسيا واقعاً تسلّم فيه البلشفيك زمام السلطة وفقدتها السوفييتات . واستمرت جلسات المؤتمر في جو مشبع بالتمرد اذ ان البلشفيك اعتمدوا على قوة الحربة والبندقية . اما في المدن الاقليمية حيث كانت السوفييتات في موقف تردد وحيث لم يكن البلشفيك قد حازوا بعد على اكثرية أخذ البلشفيك يلقون الرعب في قلوب اعضاء السوفييتات . وتحول الشعار الذي كان يقول « للسوفييتات كل القوة » الى « للأقلية البلشفية كل القوة » . لقد تزايدت سلطة السوفييتات في التدهور وكادت تصبح لا شيء . وعبارة « جمهورية سوفييتات » اصبحت بلا معنى ، كلمات جوفاء . والصحيح ان الحكم اصبح في يد أقلية إستأثرت بكل السلطة . جمهورية قلّة من القميسارين أي رؤساء الادارة .

ربما كنت قد بالغت في فكرة الحكومة الإئتلافية الاشتراكية اذ بعد ثورة اكتوبر (تشرين اول) لم يبق من الفكرة إلاّ أمل ضعيف . لا بأس بالفكرة من حيث صحتها إنما تكمن اهميتها بكونها محّكٌ لمقاصد الشخصيات الرئيسية السياسية التي كانت تباشر اعمالها حينئذ . وناقش

حماة البلشفية الذين هدفوا الى تغطية الفكرة بنوع من الشكل الديموقراطي فقالوا انه ليس هناك ما يمكن ان يسمى « لا ديموقراطي » في ما قام به لينين عندما شكل حكومة مؤلفة من اعضاء حزبه فحسب . اذ كثيراً ما يحدث هذا حتى في أعرق الأمم الديموقراطية . لا غرو ان هذا صحيح تماماً ولكن هذا الأمر أي ان حزباً واحداً يتسلم زمام السلطة يجب ان يكون نتيجة لوسائل ديموقراطية وان يستمر باحترام حقوق الاحزاب الاخرى التي لم تدخل الحكومة وحينئذٍ يعتبر هذا الحكم ديموقراطياً ولكن بما ان هذه الشروط لم يمكن للبلاشفة أن ينفذوها بشكل مناسب لذلك فان المفاوضات التي اجروها في اواخر سنة ١٩١٧ مع الاحزاب الاشتراكية الاخرى اسفرت عن فشل تام . كان تروتسكي على صواب الى حدّ ما عندما عنّف مارتوف بقوله انه ليس هناك من حل وسط لأن هذا يعني ان حزبا إغتصب السلطة بالقوة سيشارك الاحزاب الاخرى بهذه السلطة تلك الاحزاب التي سبق وانتزع منها السلطة . ومن البديهي ان مثل هذه المشاركة ليست مستحيلة انما ليست محتملة . وقد تحدث تلك الامكانية لو أن القوى الاخرى كانت قوية كفاية للضغط على البلاشفة لاتخاذ تلك الخطوة وما من شك في أن وجود مثل هذه القوات كان بامكانها ان تقف في سبيل التمرد في الوقت المناسب وقبل كل شيء آخر . أمّا البلاشفة المعتدلون فما من شك بانهم أسِفوا كثيراً وشعروا بالقلق والشؤم ولكن لم تكن عندهم القوى المعنوية والفكرية حتى يعارضوا لينين لأنهم رأوا انهم في حالة انتصار وجهة نظرهم فان لينين سيقف معارضاً لهم وانهم ليخشون ذلك .

لقد اعلن لينين لدى عودته الى روسيا بعد ثورة شباط سنة ١٩١٧ بان

روسيا الجديدة ستتمتع بحرية اكثر من أي دولة اوروبية أخرى . كان على صواب لم تشهد الحريات العامة اثناء حكم القياصرة ما شهدته الآن من النشاط السياسي الذي عانى سكرات الموت أثناء حكم القياصرة واصبحت الطبقات الاشتراكية قادرة على العمل بكل نشاط وتتكلم بما تشاء علانية وهكذا فعلت كل الفئات السياسية الاخرى التي رزحت السنين الطوال دون ان تستطيع التفوه ببنت شفة . وكذلك تطورت اشكال اشتراكية جديدة ولجان محلية للفلاحين ـ ان ما ذكرته هنا ما هو إلا بعض ما برز الى النور بسبب الثورة . وحري بالذكر هنا انه بين شهري شباط وتشرين اول كانت مشاكل البلاد الاجتماعية قد تراكمت او على الأقل بدت للعيان بشكل كاد أن يكون اسرع من ان يُستطاع حلها . وبالتأكيد لقد أصابت احزاب اليسار المتطرفة ، البلاشفة وغير البلاشفة ، بالعديد من انتقاداتهم عندما قالوا بان الحكومات المؤقتة كانت جبانة ومناسبة للحكم . ويبدو ان البلاد كانت في حاجة لنوع من الاستقرار ولا يمكن للحمّى السياسية التي ميزّت سنة ١٩١٧ ان تستمر الى ما لا نهاية وقد استطاع لينين ان يرى ان اللحظة قد حانت وقد لا تحين مرة أخرى اللحظة التي يمكنه فيها ان يتسلم زمام السلطة . وليس هناك اي ظل من شك بأن مواهب تروتسكي الخطابية كان لها الاثر الفعّال في تحقيق برنامج لينين . ولكن في هذه الفترة القصيرة من النجاح ليس هناك من يستطيع القول عن روسيا ما قاله لينين في ربيع سنة ١٩١٧ : أي انها افضل بلد في اوروبا .

وبدا بان آراء تروتسكي صاحب النظريات قد تحققت ففكرة التحول من البرجوازية الى الثورة العمالية الكادحة التي أخذت تتحقق قدمت تبريراً تاريخياً رائعا لتسلم البلشفيك زمام السلطة . ووضحت نفس هذه

النظرية السبب الذي سيقود هذه الثورة الى الانهيار والتدهور ما لم تنقذها ثورة اخرى تأتي من الغرب . ومن المعروف بانه اذا تسلم زمام السلطة نظام الاقلية فعلى تلك الاقلية ان تستعمل الاجراءات القمعية ثم الى تصفية بعضها البعض رغم انها تكون قد اغتصبت السلطة باسم الاشتراكية والجدير بالذكر ان الناقدين في ذلك الوقت قد حذّروا من هذه النتيجة . وفي هذه الحالة ايضا عندما يتسلم زمام السلطة اقلية باسم الاشتراكية فعلى هذه الاقلية ان تلجأ الى الاعمال المرتجلة والى الترددات المستهجنة وتتخذ خطوات عشواء لم يحلم بها أحد في ما يختص بالسياسات الاقتصادية ، سياسات اقتصادية لم يهتم احد في درسها . لقد لاحظ سوخانوف في مذكراته عن الدعاية البلشفية قبل اغتصاب السلطة فقال : « لم تكن هناك حتى اقل اشارة الى المنهج الاقتصادي » .

أعلن عن هذه الصعوبات التي تلت اغتصاب السلطة كل من المؤرخين المساندين للبلشفية والمقاومين لها . كتب اسحق دوتشر ، الموالي للبلشفية في سنة ١٩١٧ ، والفترة التالية مباشرة :

في مبدأ الامر لم تفكر ديموقراطية سوفييتات العامة بانها دولة مستبدة محتكرة لكل شيء وتتكون من طينة واحدة وذلك لأن قادة هذه الدولة كانوا واثقين بان جميع الشعب الروسي يشاركونهم في جميع أمانيهم . ولم يخطر على بال اولئك الزعماء بسرعة ماذا عليهم ان يعملوا اذا ثبت خطأ هذا الاعتقاد .

فكرة تدل على الذكاء إنما ليست صحيحة . وطالما تساءل مارتوف وشاركه في ذلك محبّو الاصلاح داخل الحزب البلشفي ، حذروا جميعهم بما

سيسفر عنه الاستبداد بالسلطة استبداد يمسك بزمامه نظام الاقلية ذلك النظام المسيطر على مجتمع ممزق فقير محاولا فرض تغييرات راديكالية على شعب شكوك محب للمقاومة لن يؤدي مثل هذا الحكم إلاّ الى ديكتاتورية لم يكن هناك من استطاع ان يتنبأ بالاهوال الستالينية في اسوأ اوقاتها انما رأى الكثيرون من احزاب اليسار وغيرهم من الظروف التي كانوا يعيشونها اصبحت مقدمة مناسبة لحكم ستاليني . أوَلَمْ يحذّر تروتسكي نفسه ، تروتسكي القديم ، من مثل هذه الامكانيات ؟

أمّا تروتسكي وقد وصل الآن الى ذروة القوة والسلطة بما اتصف به من الشجاعة والمواهب الرائعة فقد تمتع الآن بتحقيق كل احلامه الثورية . لم يعد يفكر ابداً كما كان يفعل سابقاً بتروتسكي القديم الذي طالما حذّر وأنذر من حكم الفرد او الاقلية المغتصبة ، فهل كان ما توجس منه سابقاً على وشك الحدوث ؟ اقتنع ترُوتسكي الآن بان الرؤية التاريخية التي كان دائماً يقرنها مع الماركسية مكنّت الثورة التي هزّت العالم بان تنتصر . ولكن تروتسكي افتقر الى الافكار الناقدة أو الرؤية التي قد ترى مأساة المستقبل لذلك فلم يتبادر لذهنه أي شك بأن ما سيحصل هو نتيجة اسفرت عن عماه التاريخي .

أكان هناك شيء فطري أو « خطيئة أصلية » من حيث المذهب أو العقيدة ، في صميم الحركة البلشفية مما سبب القضاء على بروز التوتاليتارية ؟ (حكم التجمّع) ؟ أو ان الحقيقة اكثر تعقيدا مما يظهر ؟ وهذه العناصر المحبة للتسلط التي ملأت عقول البلاشفة وقد اصبحت الآن بارزة بشكل جلي هذه الروح التسلطية التي اسفرت عن قرارات خاطئة أومّا كانت هذه العجرفة التسلطية وما احاط بها من ظروف تاريخية

هي التي وقفت سداً منيعاً في سبيل الحكم الديموقراطي بغض النظر عمّن سيتسلم زمام السلطة في روسيا ؟ . لا يمكننا ان نجيب على مثل هذا السؤ ال بما يستحق من التأكيد . واليكم في ما يلي ما كتبه ليونارد شابيرو مسانداً وجهة نظر البلاشفة في كتابه « اصل الاتوقراطية (الحكم المطلق) الشيوعية » ويعتبر ما في هذا الكتاب بياناً واضحاً عما سببه الحكم البلشفي من تحطيم مستمر لجميع الحريات .

قال شابيرو :

ان ولعهم بالعدالة كان سيقودهم الى الكارثة حيث انهم لم يستطيعوا رؤ ية الحاجة الملحّة للتوفيق بين المصالح المتضاربة التي لا بد من وجودها في كل دولة بشكل أو بآخر . وعندما تخلو الدولة من القضاء النزيه والقضاة المستقلي الارادة فيصبح الاغراء قوياً لدرجة تجعل الحكومة أولا تُضَحّي بالأكثرية لفائدة الأقلية ثم تُضَحّي اليوم في سبيل الغد واخيراً تُضَحّي بجيل كامل في سبيل اجيال المستقبل ويبدو ان هذا ما قام به لينين ومن خَلَفَه . ولكن يجدر بي أن أؤكد هنا أن ما قاموا به عند بدء إنطلاقهم كان عن عقيدة راسخة بانهم كانوا بذلك يخدمون قضية العدالة .

يبدو أنّ هذا نقدٌ عادلٌ مُتّزنٌ . يختلف إختلافاً بيّناً عن الفكرة غير الناضجة التي تؤكد انه لا فرق بين (الستالينية) والبلشفية أو الفكرة القائلة بأن البلشفية ليست إلاّ حكماً مستبداً في جوهرها .

بما ان هذا الكتاب ليس تاريخ الثورة الروسية فلا حاجة للاستمرار بهذا الابتعاد عن الموضوع الاساسي . يكفي ان نذكر هنا بأن المجلس التاسيسي الذي كان للبلاشفة فيه ٢٥٪ من الاصوات حُلّ بالقوة وبهذا

تكون آخر فرصة للحياة البرلمانية قد ضاعت . لكن دعنا نُفكّر ، ماذا كان البلاشفة يستطيعون ان يعملوا ؟ كيف يمكن ان يخضع نظام قام على أكتاف ثورة الى إحتمالات خسارة كل شيء حتى وإحتمالات الكبح والطرد بواسطة مجلس انتخب بالاقتراح العام ؟ لو كان البلاشفة مستعدين ان يقبلوا بمثل هذا الاستسلام لما كان هناك داع للقيام بهذه الثورة .

ولكن يبدو صحيحا ان البلاشفة في المدن الكبيرة كانوا يتمتعون بشعبية كبيرة سنة ١٩١٧ ، وبعد ذلك بفترة قصيرة . ويبدو صحيحاً أيضاً بأن ثورة البلاشفة كانت أكثر من مجرد إنقلاب قامت به أقليّة متآمرة . ولكن مع كل هذا لا يمكننا أن نفكر بانهم عندما إغتصبوا السلطة قد إنتهكوا حرمة العقائد الديموقراطية الجوهرية مبادىء وعقائد بشر بها كثير من البلاشفة . وقد حدث مرة انه حتى ونقّاد لينين داخل الحزب قد غضّوا النظر ، حتى وقد قبلوا وباركوا الثورة لقد كانوا في مركز اضعف من ان يقاوموا منه النتائج اللاّديموقراطية .

هذه الثورة ثورة اكتوبر (تشرين اول) التي حضنت بين ذراعيها آمال عددٍ لا حصر له من العمال الروس والجنود والفلاحين والتي استمد من قاموا بها الكثير من التقاليد والعقائد الاشتراكية الاوروبية وفجروا هذه العقائد في ارجاء بلاد لم يعرف سكانها إلا العذاب المرير ، هذه الثورة خلقت ظروفاً أدت الى فشلها في النهاية . ففي اليوم التي انتصرت فيه الثورة اطلقت العنان لثورة مضادة قامت من داخل الثورة بسبب الافكار الخاطئة وبسبب انانية الكثيرين من الذين حاربوا وماتوا في سبيل هذه الثورة . ونحن ننظر من هذا البعد نلاحظ ان الثورة والثورة المضادة لا يمكن الفصل بينهما .

الفصل الثالث :
البلشفية تنال من نفسها

عزم تروتسكي بصفته وزيراً للخارجية في حكومة البلاشفة الجديدة ، كما قال مازحاً ، ان يصدر بعض البلاغات الثورية ثم « يغلق الدكان » . أمّا الحقيقة فكانت اكثر تعقيداً اذ كان عليه بان يشكل بصورة إرتجالية وزارة جديدة على انقاض الوزارة القديمة . اضف الى ذلك أن عليه ان يدير مفاوضات برست - ليتوفسك ، الصعبة مع المانيا الامبراطورية تلك المفاوضات التي جاءت بالسلام الى روسيا ولكن بأغلى ثمن . خلال هذه المفاوضات اختلف تروتسكي مع لينين . اقترح لينين ان توقع الحكومة الجديدة معاهدة مع المانيا مهما كان الثمن لأنه كان يشعر ان السلام ضرورة قصوى لبقاء البلاشفة . أمّا تروتسكي ، وقد كان يأمل بان تقوم في المانيا ثورة عمّالية ، فقد اتخذّ تكتيكاً خاصاً للاعاقة وذلك بواسطة خطبه الثورية المذهلة امام الممثلين الالمان في برست - ليتوفسك . وداخل حزب البلاشفة تبنّت زمرة يسارية سياسة حرب ثورية بقيادة نقولاي بوخارين وأخذت هذه الزمرة تنشر جريدة خاصة واصبحت تشكل حزباً صغيراً داخل الحزب . ويظهر من هذا انه كان لا يزال يحق لزعماء الحزب بان يخالفوا بعضهم البعض .

سنة ١٩١٨ ، عندما نشبت الحرب الأهلية في جميع روسيا اصبح تروتسكي وزيراً للحربية . لم يكن لتروتسكي أي خلفية عسكرية اللهمّ الا النزر القليل من خبرة اكتسبها عندما خدم خلال حرب ثانوية نشبت في البلقان . واستطاع تروتسكي بسرعة مذهلة بأن يخلق جيشاً من لا شيء تقريباً وذلك بما كان يتمتع به من المبادىء الثورية والحماس الثوري وليس

أي شيء آخر . وكان تحت تصرفه بضعة آلاف من البلاشفة من اعضاء ميليشيا الحزب او الحرس الاحمر الذين حاربوا في الثورة ويمكن في افضل الاحوال اعتبارهم شبه قوة عسكرية . اضف اليهم جماعة لا بأس بها من ضباط الجيش الروسي الذين عن طيبة خاطر رغبوا في خدمة النظام الجديد بصفة غير سياسية وكذلك جماهير من متطوعين غير مدربين كانوا يفتقرون الى التدريب اللائق وتنقصهم الاسلحة .

لمدة سنتين تقريباً عاش تروتسكي في قطار مسلّح أعْتُبِرَ مقراً عسكرياً سياسياً متحركاً للجيش الجديد واخذ تروتسكي يتنقل بسرعة من جبهة الى أخرى يعمل بنشاط يكاد يكون وحشياً ويعرّض نفسه لمعارك في منتهى الخطورة هادفاً لِلَمّ شعث جنوده الخائفين والمرتعبين ومصراً على منح الضباط القدامى جميع سلطاتهم العسكرية ولكنه احاطهم بشبكة محكمة من القوميسارين (رؤساء الدوائر) ، ومحاولا جهده لرفع مستوى الكفاءة والنظام بين الجنود الذين قد فسدت اخلاقهم ووهنت عزائمهم منذ أمد طويل وفوق كل هذا كان تروتسكي يحث جنوده بأن يحاربوا ويموتوا في سبيل قضيتهم وذلك بما كان يلقيه عليهم من خطبه الطنانة ومنشوراته الرائعة . وهكذا تمكن تروتسكي مع من سانده بان يخلق جيشا يتمكن في النهاية من التغلب على الروس البيض . وكان قد فهم تماماً بان ارادة النضال والاصرار عليها هي التي تقود جيش الثورة الى النصر النهائي الحاسم . وليس هناك أي شك في ان النصر سيكون مؤكداً ما زال الجنود المحاربون يؤمنون بانهم صليبيون يحاربون للتوصل الى عالم افضل وبانهم مستعدون لمواجهة الموت مقتنعين تماماً ، كما قال تروتسكي في خطابه « بانهم شركاء في محاولة تاريخية ليس لها نظير سابق لخلق مجتمع

جديد تعتمد فيه كل العلاقات البشرية على التعاون ويصبح الانسان أخا للانسان وليس عدوا له .

الواقع ان هذا « المجتمع الجديد » خلال الحرب الاهلية كان ابعد ما يكون عن الأخوة . وهذا منتظر تماما ، فانهيار الصناعة والجهود والتضحيات الضخمة التي تطلبتها الحرب الاهلية ثم العراقيل والتدخلات التي ما فتئت قوى الرأسمالية تمارسها وكذلك اخطاء وعدم خبرة البلاشفة في ما يختص بالامور الاقتصادية ثم ضعف حماس الفلاحين (الذين كان همهم الوحيد هو الحصول على الأرض ولا شيء آخر) وأخيراً التفكك الذي حلّ بالطبقة الكادحة نتيجة للشلل الاقتصادي والخدمة العسكرية والهرب من المدن التي كانت تتضور جوعاً ـ ويعني كل ما ذكرنا الآلام والجوع والموت والظلم ولا شيء آخر . وأخذ البلاشفة يلجأون الى إجْراءات متطرفة ما حلموا بها ولا خطرت على اذهانهم في برامجهم السابقة . فأمموا جميع انواع الصناعات وحظرت التجارة الخاصة وارسلت جماعات من الحزب الى الريف لطلب الغذاء من الفلاحين وكانوا احيانا يدفعون الاجور عيناً (ليس نقداً) ولم يعد للنقود الحكومية أي قيمة تذكر . واصبح كل شيء على الصعيد السياسي يزداد في اساليب الظلم والارهاق . واما باقي الجماعات اليسارية التي حاولت ان تحفظ التوازن بين مساندتها للبلاشفة وانتقادها لتصرفاتهم المتطرفة هذه الجماعات اصبحت واقعة تحت الرقابة الشديدة القاسية لجماعة « الشيكا » أي البوليس السري الجديد . وجدير بي هنا ان اذكر ملاحظة اسحق دوتشر ، قال : شيوعية الحرب هي الفكرة الساحرة الماركسية لمجتمع المستقبل . يجب ان يملك مثل هذا المجتمع كصورة خلفية موارد عالية

التطور ومنتجة بطريقة منظمة تماماً كما ينبغي ان يكون حائزاً على مقادير وافرة من البضائع ومختلف الخدمات . وينتج كل هذا بالغاء اللاّمساواة الاقتصادية الغاءً نهائياً وبجعل مستوى المعيشة بصورة مناسبة للمجتمع . على ان شيوعية الحرب ، عكس ما ذُكر ، نتجت عن تفكك اجتماعي . ولا شك أنها حاولت الغاء اللاّمساواة ولكن الضرورة قضت ان ينجز هذا العمل بواسطة تَدنّي مستوى المعيشة وجعل الفقر يعمّ البلاد بأسرها .

من هذه اللحظة المأساوية نستطيع ان نرى صورة تروتسكي الشعبية كقائد حربي ، كل شخص يعرف صورة تروتسكي وهو يرتدي معطفه الحربي الطويل ولحيته القصيرة المدببة وقامته المنتصبة المهيبة الملكية ، أمّا فيما يختص بالبلاشفة العسكريين وخاصة من كان يرى منهم بأن الحرب الاهلية تشكل الخبرة المركزية لكل حياتهم لم ينس تروتسكي بان يبرز بشكل واضح هذا الحنين التاريخي لقضيتهم ، وقد اصيب مثقفو العالم بالذهول وهم ينظرون الى هذا الخطيب الألمعي وقد تحوّل في غمضة عين الى رجل اعمال بما كان يتصف به من ارادة لا تُقْهر . ولكن ماذا كان رأي المنشفيك والفئات اليسارية المهزومة الاخرى في ما يختص بتروتسكي ؟ كانوا ينظرون اليه بنظرة كلها كراهية كانوا يبغضونه اكثر من أي حاكم من الحكام الجدد فوصفوه بانه متعجرف قاسٍ ودكتاتوري وقد تجرد من كل كلماته الجوفاء والاحساسات التي اظهرها وهو في المنفى ، اما اولئك البلاشفة الذين كانوا يتصدرون المراكز الحزبية وكانوا يواجهون اشد الاخطار وبرزوا الآن ليتمتعوا بمباهج السلطة اولئك كانوا ينظرون الى تروتسكي بانه دخيل متطفل على البلشفية . واصبح تروتسكي كما رأوه ذكياً انما مغروراً واكثر شعبية من ان يستطيع أي انسان بان يهاجمه إلا في

بعض العبارات النقدية الخفية ومن الجلي انه لم يُقْبَل أبداً في صميم حياة البلاشفة الزعماء اثناء السنوات القليلة التي تلت الثورة عمل تروتسكي كزعيم للدولة اكثر منه زعيماً للحزب . ولم يكن يملك الوقت ولا الميل للتمتع بمحاسن السلطة البيروقراطية ومما لا ريب فيه ان خشونته سببت عداء كثير من موظفي الحزب الذين استطاعوا بعد بضع سنين بان يأخذوا بالثار منه . صار تروتسكي ينظر الى نفسه كضابط كبير في جيش الثورة العالمية ولم يعد يتحمل اي ازعاج مما كان يحدث في مكتب منظمة اللجنة البلشفية المركزية وانها لغلطة فظيعة ـ اذ في بلاد ليس فيها الا حزب واحد او حتى متعددة الاحزاب ما يحدث في مكتب المنظمة قد يؤثر بعمق على السياسة الانسانية . كانت علاقات تروتسكي مع لينين عادة وديّة الا انها لم تكن علاقات وثيقة ورغم الاختلافات المتكررة بينهما فقد استمرا يعملان معاً ولكن بدأ غشاء من الحملات والاتهامات القديمة ينسج خيوطه بينهما . قالت زوجة تروتسكي وهي تستعيد بعض ذكرياتها :

كان الطعام في الكرملين الذي تناوله الزعماء اكثر من بسيط واقتصادي تماماً . اعتاد تروتسكي ان يقول « علينا ان نعيش حياة ليست افضل ممّا كنّا عليه ونحن في المنفى » ووافقتُه على ذلك لأنني كنت اعرف تماماً حالة الحرمان التي كان يعيشها العمال . على كل حال كنت اشتغل لدرجة لم يكن فيها أي مجال للاهتمام بالغذاء ولم يتمتع بنوع من التوفيق ورغد العيش الا أصحاب الاعمال الخاصة القليلون وكذلك اصحاب الأراضي السابقون الذين كانوا يعيشون بعيدين عن السوق السوداء . حدث مرة أن جلس تروتسكي الى وجبة طعام ولاحظ وجود قطعة من الزبد فسأل منذهلاً « من أين جاءت هذه ؟ » . لقد أحضر لنا هذه القطعة النادرة من

الزبد ليونيد سربراياكوف سكرتير اللجنة المركزية الذي كان الطبيب قد اعلمه عن حالة الضنك التي نعيشها ، ولقد مضت عدة شهور حتى تمكن اعضاء الحكومة ان يحصلوا على طعام شبه مقبول » .

استطيع ان اقرر هنا أن اوضح صورة تمثل تروتسكي خلال السنين التي تلت الثورة مباشرة هي تلك التي رسمها لنا فكتور سارج الكاتب الذي امضى مدة يعمل في مركز الشيوعية العالمية .

قال فكتور :

ليس هناك من استطاع ان يتحمل مصير شعب بمثل هذا الاسلوب . كان تروتسكي في الحادية والاربعين وفي قمة سلطته وشعبيته وشهرته كان قائد جماهير بتروغراد في ثورتين وخالق الجيش الاحمر ذلك الجيش الذي قال عنه لينين وهو يحادث غوركي : لقد ألّفه تروتسكي من لا شيء ، وهو المسؤ ول شخصياً عن كثير من الانتصارات في معارك حاسمة في سفياجك وكازان وبلكولو ، واليه يُعزى تنظيم جميع الانتصارات في الحرب الاهلية ولقد تفوق على لينين بواسطة مواهبه الخطابية وفي مقدرته التنظيمية في ما يختص بالجيش ثم السكك الحديدية اضف الى ذلك ما كان يتصف به من مواهب مرموقة في ابتكار النظريات ، أما في ما يختص بلينين فكانت ثروته الكبيرة الفكرية وعظمته البارزة هي في كونه حتى وقبل الثورة ، زعيم حزب البلاشفة في أول تكوينه وهذا الحزب الصغير هو الذي شكل نواة الدولة وعمودها الفقري تلك النواة التي كانت دائماً ترتاب بأفكار رئيس مجلس الحرب العالي (تروتسكي) تلك الافكار الغزيرة والشديدة الميوعة .

حدث مرة في مؤتمر الشيوعية العالمية ان ظهر تروتسكي وهو يرتدي بدلة رسمية بيضاء خالية من الاوسمة وعلى رأسه قبعة عسكرية عريضة بيضاء وكان مظهره بالفعل عسكرياً تماماً بصدره القوي العريض ولحيته السوداء الفاحمة وشعره الاسود ونضاراته اللامعة ، بدا موقفه اخشن من لينين وبدت عليه ملامح السلطة والقوة . واسمحوا لي هنا ان اقرر ان تروتسكي بدا لي ولاصدقائي نحن النقاد الشيوعيون بهذا المظهر وبشكل بارز تماماً . لقد كنّا نعجب به جميعاً انما لم نُكنّ له أي حب » .

وعلى صعيد المناقشات البلشفية التي ظهرت الآن والتي اخذت تعالج اعادة الاعمار بعد الحرب كان دور تروتسكي شاذاً ومثيراً للسخط . صار تروتسكي يسعى جاهداً ـ كما فعل النظريون الآخرون في المخيم البلشفي امثال لينين وبخارين ـ ليَشق طريقه خلال صعوبات لم يتكهن بها أي ماركسي روسي إذ لا أحد قد تخيل ما يشبه شيوعية الحرب . (ومع ذلك فان بعض النقاد قد تكهنوا بذلك) ففي كانون الأول سنة ١٩١٩ قدم تروتسكي سلسلة من المقالات الى اللجنة المركزية للحزب ناقش فيها ضرورة الشغل الالزامي ووجود الجيش العامل الذي يحكمه النظام العسكري بواسطة اتخاذ اجراءات مشددة لا بد منها لرفع مستوى الاقتصاد المفكك لكي يصل به الى ادنى مستوى انتاجي حيث الحوافز الاعتيادية قد تبدأ بالعمل ثانية . وكان لخطة تروتسكي هدفان رئيسيان : ان يجد طريقاً لاعادة الطبقة العاملة الى المعامل التي هجرتها وان يكتشف وسيلة لاستخدام نشاطات الجيش الاحمر لاعادة بناء اقتصاد البلاد . وكان يكمن وراء هذه الخطة مشكلة فادحة ألا وهي انّ الاقتصاد كان في حالة مريعة . واذاً فلا بد من استعمال الوسائل الاجبارية في البدء لكي تكون

فعّالة ، وقال تروتسكي ان الفكرة التالية كانت أن « أجهزتنا الفنية قد بليت وعلينا ان نعوض باستمرار عن هذه النواقص بواسطة الطاقات البشرية النشيطة » . وناقش قائلا :

من الضروري ان اصرح هنا بكل جلاء وعلى مسمع من آذان جميع الأمّة بان حالتنا الاقتصادية اسوأ بمائة مرة مما كانت عليه ظروفنا العسكرية وكما كنت قد اصدرت اوامري سابقاً مناشداً الطبقة الكادحة بان تبادر الى ركوب الخيل وحمل السلاح فانني اعود واناشدهم اليوم بان يعودوا الى المعامل وان يسارعوا الى الانتاج .

ورغم أن لينين قد دعم هذا الاقتراح إلاّ انه لاقى مقاومة قاسية من بين صفوف البلاشفة وخاصة نقابات العمال الذين ما زالوا يتأثرون بالضغوط الشعبية ويخشون من تعزيز النخبة البيروقراطية العسكرية . ولمدة قصيرة اقيم عدد من معسكرات العمل مما سرّ له تروتسكي وبدأ يكتب بصورة بعيدة عن الواقعية عن دور هذه المعسكرات في « بناء الشيوعية » .

في اوائل سنة ١٩٢٠ ، بدأت افكار تروتسكي تتحول بصورة حادة وغريبة . فخلال رحلة الى الأورال خرج قطاره العسكري عن الخط وبالرغم من الرسائل البرقية المحمومة بقي القطار بين الثلوج لعدة ساعات وبدأت التحقيقات لمعرفة السبب واكْتُشف أخيراً بان السبب كان يُعزى الى البلادة وعدم الكفاءة الناتجة عن نقص الطعام والعمل المرهق والسنين الطويلة من التعب . وعرف تروتسكي انه اذا لم يستعمل الارهاب فانه لا يمكن اجبار الجماهير على العمل حتى ولو كان الهدف

التوصل الى ادنى حد ممكن من الانتاج المفيد لهم اذا توصلوا اليه . واقترح تروتسكي الآن كثيراً من الاجراءات التي يجب ان تنفّذ خلال سنة وأسماها « السياسة الاقتصادية الجديدة » . إنتهى بذلك نظام إسترداد المحصولات وسمح للفلاحين بان يبيعوا فائض محصولهم بربح لهم وهكذا فقد اعتبر هذا وكأنه رجوع جزئي الى السوق الحرة وهذا النظام هو الذي كان يهزأ منه البلاشفة والذي كان النقاد المنشفيك يدعون اليه .

بالاختصار هُزم اقتراح تروتسكي . فبإيعاز من لينين تمسكت اللجنة المركزية الى « الاجراءات المفزعة » والمُسَمّاة « اجراءات الشيوعية الحربية » . واصبح ما ظُنّ بانه عمل إرتجالي في البدء يُعْتَقد الآن بانه « عادي » او على الاقل لا بد منه ولسوء الحظ لم يُصرّ تروتسكي على وجهات نظره ، ولقد كره تروتسكي بان يرفع أراءه الى المراتب الحزبية خوفاً من ان يثير ذلك نتائج مدمرة ونزاعات لا نهاية لها داخل صفوف الحزب بعد انتهاء الحرب الاهلية فاضطر ان يرجع الى برنامجه السابق برنامج عمل المعسكرات والى الاساليب المذهلة في الحياة الاقتصادية كان المنطق بجانبه اما الحقيقة فلم تكن . فقد بدا منطقيا انه أمّا وقد رفض الحل لمصلحة المجتمع فلم يبق بديل عن الاجبار . اما من الوجهة السياسية فقد كان هذا كارثة ويا لها من كارثة . لأنه بذلك أعان تلك القوى المتغلغلة داخل الحزب والتي اخذت تستعمل الاساليب القمعية التي تتمشى مع الانتقاد وعدم الرضاء .

نشاهد هنا تردد يائس فظيع في السياسة الاقتصادية ليس فقط فيما يختص بتروتسكي بل ايضا في جميع الحركة البلشفية . ولقد اصبح البلاشفة وعددهم ٢٤٠,٠٠٠ « العدد الصحيح سنة ١٩٢٠ اصبح

٦١٢,٠٠٠ » ، في عزلة تامة عن الشعب . اولئك البلاشفة الذين اعتقد لينين انهم سيحكمون البلاد . جابهتهم الآن الكوارث الاقتصادية التي لم يحلموا بها وما تمكنوا من التغلب عليها . فأخذوا يستخدمون إجراءات متطرفة إرتجالية مستخدمين بيروقراطية الدولة بشكل متزايد مما سبب ارهاقا اجتماعيا ونفسانيا في الطبقات الدنيا . وأصبح الحكام البلاشفة الآن يدفعون ثمن فشلهم لعدم تدقيقهم في معرفة نتائج اغتصابهم السلطة كما وان جميع البلاد ايضا صارت تدفع ثمن هذا الفشل .

انه لحري بالذكر انّ ما بقي من الحرية التي سمحت لشيء من المعارضة جعلت رافائيل ابراموفتش ، ينهض اثناء احدى المناقشات العامة ويوجه استجوابا الى كتائب العمال ضمنه نقداً جارحاً قال : هل لكم أن تبيّنوا اذا كانت إشتراكيتكم تختلف عن العبودية في مصر ؟ اسمحوا لي ان اذكركم بان الفراعنة بنوا الاهرامات بأساليب مشابهة لأساليبكم . فها أنتم تسخّرون الجماهير وتجبرونهم على العمل . وأجاب تروتسكي « إن ابراموفتش لا يرى فرقاً بين النظام المصري ونظامنا . لقد غرُبَ عن باله الطبيعة الطبقية للحكومة وانني اذكر هنا انه ليس الفلاحون المصريون هم الذين قرروا من خلال مجالسهم بناء الاهرامات أمّا الالزام هنا فناتج عن حكومة عمال وفلاحين .

انه لحوار ظهر فيه تروتسكي في اضعف حالاته اذ انه نسي او تناسى بانه قُبَيْل سنة ١٩٢٠ ، لم يعد للعمال الكثير ليقرروه بأنفسهم . إتخذت كل القرارات الحكومة البلشفية متذرعين باسم الطبقة الكادحة العمالية بينما كانت معظم القرارات ليست في صالح العمال . لقد خسر البلاشفة جزءاً كبيراً من الدعم الذي قدمه لهم العمال منذ ثورة تشرين اول وهاكم

فيما يلي ملاحظة سجّلها دونشر ، قال « لو سمح البلاشفة الآن باجراء انتخابات عامة للسوفييتات لكان من المؤكد ان يُطاح بهم ويفقدون سلطتهم » . وعلى هذا الصعيد لا يمكن تبرير سياسات الحكومة لمجرد كونها « حكومة عمال » . ولا يحق للحكومة الادعاء بانها حكومة عمال إلاّ اذا عملت على تنفيذ السياسات التي ترفع من شأن العمال . وأسوأ من كل هذا ان نقاش تروتسكي قد مهد السبيل لتصويب الممارسات الستالينية التوتاليتارية .

ويظهر ان الجيش الذي كان تروتسكي يدعي بانه يدافع عنه اخذ يرتاب بأهداف تروتسكي ولما أخذ يحاول تبرير المظالم التي مارستها الفئات الاشتراكية المتمردة إستند الى الضرورة الماسة لكسب الحرب الاهلية وإنقاذ الاقتصاد المنهار . ولما التفت من دوره الحربي الى دوره لانقاذ وانعاش الانتاج الاقتصادي جمع جميع مواهبه ووجهها نحو هذا الهدف . على ان دوره السياسي اتخذ طريقا تسلطيا قاسيا لا يمكن تبريره رغم أن هذه الاجراءات اتخُذَت خلال الحرب . ولما اجبر تروتسكي بسبب الظروف التيلاتطاقوالتي سببها حصر السلطة بيد زعماء البلاشفة من جهة وللاجراءات الشاذة المستغربة الظالمة من جهة أخرى بينما كان من السهل انتهاز هذه الفرصة لتعميم الانفتاح على الحياة السياسية والاشتراكية مِمّا يكون فعّالاً ومجدياً لانقاذ الموقف أقول ان تروتسكي أجبر على سن قوانين ظالمة قضت على ما تبقىّ مما سُمّيَ « الديموقراطية السوفياتية » وأسوأ من كل هذا ان تروتسكي قام بهذه الأمور بحماس شديد كما لو انه اراد ان يمحو من ذهنه ذكرى ما قاله في السنين الأولى .

في هذا الوقت اي سنة ١٩٢٠ ، نشر تروتسكي كتابه « الارهاب

والشيوعية » ، وربما كان هذا اهم كتبه في ما يختص باطاعة الحكم . لقد انشأ كتابه هذا مجيباً على إنتقادات كارل كوتسكي ، للنظام البلشفي . يُبرز هذا الكتاب خيلاء الحاكم صاحب السلطة وعدم تحمل القائد الذي إعتاد على التمتع بأقذار الحرب الاهلية أي نقد من أي نوع وقد نرى هنا أثراً للمحاور الذي قبل بضع سنوات كان يوجه الى لينين إنتقادات لا تختلف أبداً عن النقد الذي وجهه كوتسكي الى تروتسكي انما علينا ان نؤكد هنا ان هذا الكتاب « الأرهاب والشيوعية » هو عمل رائع يتصف بقوة حوارية بارعة لاذعة قلّما وصل اليها أي كتاب آخر .

يَرتَكز اساس فكرة تروتسكي على قوله : « لم يفكر التاريخ منذ اقدم الازمنة وحتى الآن بطريقة أخرى لدفع الجنس البشري الى الامام غير قيام حكومة ثورية بشكل عنيف تقودها الطبقات التقدمية للقضاء على ظلم الطبقات المحافظة المهترئة » . لقد كثرت المواعظ اثناء الحرب بين الفصائل الحمراء والبيض مواعظ تذكّر « بقدسية الحياة البشرية » ، وتندد بفظائع البلاشفة في الحرب الاهلية . وهذه الممارسات البلشفية « الارهاب وأخذ الرهائن الخ » . التي كثر الكلام عنها كانت مسببة إما عن متفرجين يحاولون النقد واظهار الفضائل والتنديد بما هو مخالف للفضيلة وهم جالسون في بيوتهم بعيدين عن مسرح الحوادث أو انهم فئة من الناس التي رفضت ان تعترف بضروريات الأمور الواقعية . فلنصّغ هنا الى تروتسكي وهو يوجه اسئلة الى كوتسكي باسلوبه اللاذع القوي :

قال : على البرجوازية التي اطيح بها أن تطيع الدولة السوفيتية . بأية وسيلة ؟ لقد إعتاد الكهنة على افزاع الشعب بواسطة ترديد عبارات العقاب في المستقبل . اننا لا نملك مثل هذه الموارد تحت تصرفنا . ولكن

حتى وجهنم الكهنة لم تكن تقف لوحدها بل كان هناك ايضاً النيران الحقيقية المتدفقة من ديوان التفتيش المقدس ومن العقارب اللاذعة التي تكمن في الدولة الديموقراطية . أيمكن ان يكون كوتسكي يعتمد في حواره عن فكرة البرجوازية بانه يستطيع ان يكبح جماحها بواسطة الأوامر الطبقية الحتمية التي اعتبرها كوتسكي في آخر ما كتب بانها « الروح القدس » ؟ أما نحن من جهتنا فلا يمكننا تقديم العون من « الروح القدس » انما نقدم العون الذي نستطيعه وعليه هو شخصياً أن يجهز ويرسل بعثة كانتية (الفيلسوف كانت) الى مملكة زعماء البيض دانيكن وكلشاك .

فاذا سلّمنا بفكرة تروتسكي القائلة بأن سياسات النظام البلشفي هي استجابة ضرورية لا بد منها للحرب الاهلية ولا تسمح مثل هذه الحروب للطائف الامور المختارة الى طرقها ، وبان استعمال الصنف من كلا الجانبين لا يستوجب اللعنة بل يجب أن نحكم على ذلك حسب ما تقتضيه الصفات الاجتماعية للقوى المتصارعة ـ فاذا سلمنا بكل ما ذكرنا فيظهر لنا جلياً ان حوار تروتسكي قوي متين . ولكن تروتسكي استمر يسائل نفسه اذا كانت هذه الفرضيات يجب ان تُقْبل بكاملها وبدون أي سؤال .

ألاّ يجدر بنا ان نعتبر نقد الراديكاليين غير البلشفيك الذين كانوا يدعمون نظام لينين الموجه ضد الحرس الابيض مفيداً كأنه محَكٌّ لاظهار الخطأ والانتهاكات التي تقوم بها السلطة ؟ ألَم يكون هناك حوافز للتسلط المطلق في الممارسات البلشفية غير التي حفزتها الحرب الاهلية ؟ وهل يجب علينا أن نعلّق الحوار السياسي خلال الحرب الاهلية (لم يفكر تروتسكي بهذا الأمر في ما بعد وهو يطور سياساتها اثناء الحرب الاهلية الاسبانية) ، واذا كانت الجماهير الروسية قد كرست نفسها بكل حرارة

الى جانب البلاشفة كما يدّعي تروتسكي ألا يفسح هذا مجالا لبعض الاعمال المتبادلة في الحياة السياسية لكلا الجانبين حتى وفي اصعب الظروف وأدقّها ؟ ولنسّلم ان الحرب تفرض ضروريات لا بد منها ـ ليس أقلها ضرورة قتل الانسان ـ الا يجد باولئك الذين يدعون بأنهم يمثلون مستقبلاً بشرياً أفضل ألا يجدر باولئك بأن يفكروا بالسماح لبعض الاساليب المفيدة ؟ أليست هناك قوانين كابحة يمكن تنفيذها حتى وفي اصعب الظروف وأدقها ؟ قوانين لا يهتم بها أمثال دانيكن وكولشاك ، وانما تهم لينين وتروتسكي ، ولو كان ذلك فقط كعلامة للسيادة التاريخية الاخلاقية للجانب التقدمي ؟ أوّلاً يجدر بنا ان نفكر بالخطر الناجم من التبرير الظافر للطرق البغيضة بأن هذا سيؤدي الى فكرة لجعل مثل هذه الطرق دائمة ؟ .

لا شك ان مثل هذه الاسئلة يمكن ان ترتدي حلة اكثر تعقيداً ولكن ربما كان من الأفضل أن نحتفظ بها بسيطة غير معقدة . ويبدو لنا ان هذه الاسئلة معقدة كانت أو بسيطة لم تُربك تروتسكي أبداً وهو يكتب « الارهاب والشيوعية » يمكن لمن إعتاد على سماع هذا الصوت المسيطر على الكتاب أن يتصور بسرعة الاستهزاء واللامبالاة التي يقابل بهما أي ريبة أو شك يدُخل في أذهان « الطبقة المتوسطة الحقيرة » ومع ذلك فان نقاش تروتسكي يبدو ابسط واقل جاذبية من حملة كوتسكي . أخيراً ألخص هنا بأن خلاصة قول تروتسكي هي أنّنا « نحن الماسكون زمام السلطة نمثل القوى التقدمية لذلك يحق لنا أن نتخذ الاجراءات التي مارسناها بالفعل » . بَيْد أن إستعمال إصطلاحات مثل « أساليبنا نحن» تجعل الغايات المستهدفة مشكوكا بها لأن تكرار إستعمال مثل هذه الوسائل يجعل

من المستحيل التوصل إلى الغاية المنشودة . واننا لنشاهد دائما ونحن نستمع إلى هذا الحوار نوعاً من تكرار ذكر كلمة « نحن » وكأنها اسطورية كما لو انها إمتلاك فخم للدلالة على تقدم البروليتاريا ويبدو ان هذا يمثل لنا ذروة وجهة النظر البلشفية . « نذكر هنا ان كلمة « نحن » اخذت طريقها الى الفناء في مستهل القرن العشرين مفسحة المجال لنوع من الوضوع السياسي » .

هذا وليس هناك نقطة سببها الجدال مع كوتسكي اكثر اهمية من الفكرة التي يشرحها لنا تروتسكي في كتابه ، الفكرة التي جعل عنوانها « التعريف بالحزب البلشفي مع مصير ومصالح الطبقة الكادحة » قال تروتسكي :

« ان استمرار إستقلال حركة نقابة العمال ، خلال فترة الثورة البروليتارية أمر مستحيل كإستحالة سياسة الإئتلاف (مع الاحزاب الاخرى) . لقد وصلت نقابة العمال الى مركز من اهم المراكز الاقتصادية في هذه الحكومة حكومة البروليتاريا . واذن فانها تقع تحت سيطرة الحزب الشيوعي . ومن الجدير بالذكر ان اللجنة المركزية لحزبنا تقرر ليس فقط المسائل المتعلقة بالمبادىء في نقابة العمال ولكن ايضا المشاحنات الخطيرة التي طالما تفجرت داخل النقابة نفسها » .

سنة ١٩٣٦ ، اعلن تروتسكي وهو يكتب عن دستور ستالين مُعَرِّفاً بالدولة والحزب ثم الحزب والبروليتاريا بانها « مغالطات سفسطائية ولكنها جوهرية للمذهب الرسمي » . ومما لا شك فيه ان هناك فرق شاسع بين « روسيا لينين سنة ١٩٢٠ وروسيا ستالين سنة ١٩٣٦ ، مع كل هذا

ألا يجدر بنا ان نذكر أن السفسطة التي هاجمها تروتسكي في كتابه وكان على صواب في ذلك تجد بعض التوقّعات في الفقرة التـي إقتبسناهـا من كتابه ؟ لا شك ان توقعه كان صحيحاً ويعتبر هذا من فضائله . اليكم ما قال أيضاً ، مردداً الاسئلة الموجهة إليه !

ولكن أين ضماناتكم ؟ يسألنا بعض من يعتبر نفسه من الحكماء ، أين ضماناتكم بكون حزبكم وحزبكم فقط هو الذي يعبر تعبيراً شافياً عن مصالح التطور التاريخي ؟ إنكم وقد دمرتم قوى الاحزاب الأخرى منعتم بذلك منافستهم السياسية واسفر ذلك عن حرمانكم من امكانات فحص اعمالكم .

ويجيب تروتسكي على هذه الاسئلة :

في فترة ترتدي فيها الخصومات مظهراً مكشوفاً فيصبح لدى الحزب الحاكم مادة عالية المستوى يستطيع بواسطتها فحص أعمالـه دون تعميم الجرائد المنشفية المحتمل . تذكروا ان نوسك ، (الديموقراطي الاشتراكي الالمانـي المبغـوض لسبـب دوره في وفـات روزا لكسمبـريج وكارل ليبخناخت) قد سحق الشيوعية ولكنها نمت اما نحن فقد كبحنا جماح المنشفيك والراديكاليين فاختفوا جميعاً .

ألا يجد تروتسكي وهو في اوائل حياته السياسية او تروتسكي فيما بعد ألا يجد هذا الجدال مربكاً ؟ إذ مَنْ يستطيع ان يؤمن بان النمو هو دليل واضح للتصحيح السياسي ؟ أليس من الجلي ان حوار تروتسكي مقارب كثيراً لما قاله اخصامه الذين اخذوا يهزأون من الحركة التي ترأسهـا في الثلاثينات من القرن العشرين وظاهـر ان المنشـفيك قد تكاثـروا في

العشرينات من القرن العشرين قبل ان يقضي عليه التشيكا . لا ـ ان هذا الكتاب لا يُشرِّف تروتسكي فانني اقرر هنا انه ليس هناك أي كتاب يوضح الرباط الوثيق بين اللينينية والستالينية او يبينّ خطاً من الاستمرارية من لينين الى ستالين أكثر مما يظهره كتاب تروتسكي « الارهاب والشيوعية » .

لقد كان سحق كوتسكي أمراً سهلاً أمّا مكافحة المشاكل التي وصفها كوتسكي فقد كانت أكثر صعوبة . لقد كانت الفترة التي تلت الحرب الأهلية مليئة بالألم المبرِّح في ما يختص بتروتسكي وكذلك المنشفيك كَكُلّ . اذا لا شيء حدث كما تخيّلوا وتأملوا او توقعوا . لقد اصبحوا سادة فوق الخرائب وحكاماً مسيطرين وحاكمين على جائعين . لقد حدث في اوروبا ثورات وإنتفاضات وانقلابات فاشلة ولكن في روسيا لم يحن بعد يوم الانقاذ بواسطة البروليتاريا العالمية . ما زالت قطاعات كبيرة من الطبقات الكادحة وربما الاكثرية في اوروبا منضمّة الى الديموقراطيين الاشتراكيين . لقد عرف البلاشفة فيما بينهم بانهم يسيطرون على البلاد ويحتفظون بسلطتهم بواسطة قوة الجيش وقوة الشرطة . وعرفوا تماماً ان الفلاحين الروس كانوا يكرهون السياسة الزراعية للنظام البلشفي . وقد فهموا تماماً ان الطبقة الكادحة قد فقدت حماسها الثوري . قال اللورد أكتن ، القوة تفسد والسلطة المطلقة تؤدي الى تمام الفساد المطلق ولكن لا يبدو هذا مزعجا اذا كانت السلطة في أيدي نوع من نخبة من الناس وخاصة الذين لم يقعوا في قبضة عقائد متطرفة . يستطيع الحكام الذين لا يشعرون بحاجة لتبرير استبدادهم باظهار مُثُلٍ عالية من الاخوّة والمساواة ، مثل اولئك يطمئنون تماماً للمظالم التي يقومون بها والدم الذي يهرقونه . اما بالنسبة للحكام الذين يشعرون بان اخذهم السلطة ناتج

عن التزامات تعهدوا بها بشكل حار وعن مُثُل عليا تبنوها ولم يترددوا أبداً بالتضحية بأنفسهم (والآخرين) لأجل هذه المثل فمن المثير حقاً ان نرى امثال هؤلاء ينتهون الى زمرة من الدكتاتوريين القساة حتى ولو استمروا بالاستناد بشدة الى شعار « دكتاتورية البروليتاريا » . في نظر البعض قد يؤدي هذا الارتباك الى اعادة نظر مدروسة تماما ويعتبر آخرون ان ذلك ليس إلا الانغماس في مساخر البيروقراطية الكسولة وجماعة أخرى تعتبر ان ذلك ليس إلا تصميما لتجربة مسيرة تاريخية آملين ان يتوصلوا الى المُثُل التي تبنوها في السنين الأولى .

انني لا اقرر هنا بان تروتسكي او آيا من القادة الروس الآخرين قد ساروا سيراً واعياً على أي من الطرق التي ذكرتها . لم يحن الوقت بعد لهذا الأمر . ما زالت هناك ارادة صلبة ثورية وولع هائل جنوني بالسلطة وتصميم واصرار على صواب العقائد التي تتحلّى بها الطليعة . انما بدأت علامات الفزع والريبة في الظهور ومن الطبيعي انها توضحت في ما مضى أكثر منها في الوقت الحاضر .

تأرجحت افكار تروتسكي في ما بين مركزين في نهاية التطرف . . ففي احدى النقاط توقع تراجع او تراخي السياسة الاقتصادية الجديدة . ومن ناحية أخرى اندفع نحو شيوعية عسكرية متطرفة آملاً بذلك رأب صدع الخيوط الاقتصادية الممزقة في الاقتصاد الروسي . استجاب كثير من الروس الآخرين بطريقة مختلفة تماما . فقد ندّدت جماعة من المنشقين من داخل الحزب ـ المعارضة العمالّية المكونة رئيسياً من العمّال الثوار ويرأسهم شليابنيفوك، الزعيم المحنّك ، نددت بهذا الاتجاه العسكري البيروقراطي الذي سار عليه النظام الجديد . وطالبت هذه الجماعة بالحاح بان تتسلم

نقابات العمال وبجانبهم زمام تسيير الامور الاقتصادية . بيد ان هذه الفكرة شبه النقابية هددت بشكل واضح جلي احتكار الحزب للسلطة وكانت غير عملية بتاتاً في ما يختص باقتصاد مُرْتجل وفي حالة من الفوضى الشديدة . ولهذين السببين المذكورين عارض كل من تروتسكي ولينين هذه الجماعة . وظهرت هناك فئة اخرى من حزب الديموقراطيين الوسط المؤلف رئيسياً من المثقفين وطالبت هذه الفئة بكل إلحاح اعادة الديموقراطية الى الحزب والسوفييتات واثناء التحدث عن « الثقافة الروسية المدنية » ذكرّ اولئك الديموقراطيون الوسط الحزب الى القيم التي ذكرها لينين سنة ١٩١٧ ، في كُراسه « الدولة والثورة » . أما تروتسكي فقد تحدث بمهارته المنطقية السياسية وشدد في نقاشه الى درجة غاية بالتطرف المتشدّد وذكر بانه لا بد في تلك الاوقات الحرجة من زيادة سلطة المؤسسات الحاكمة .

هذه القضايا التي اخذت تنخر في عظام الحزب تفجرت سنة ١٩٢٠ ، وحملت اسماً غريباً ألا وهو « حوار نقابات العمال » وبدا في البدء ان لا شيء هناك يدعو الى القلق انما تطورت الأمور في النهاية وتفاقمت . ناقش تروتسكيُ الفكرة قائلاً ان نقابات العمال يجب ان تندمج في الدوائر الحكومية ، اما لينين فلم يكن راغباً في منح النقابات أي حرية في ممارسة اعمالها فقد ظهر واقعياً اكثر من تروتسكي وابدى ليونة في منح النقابات نوعاً من الاستقلال الذاتي لأنه اعتبر هذه النقابات وكالات يمكنها ممارسة الضغط علىْ الحكومة لكي تلبي حاجات العمال الماسّة .

في المؤتمر العاشر المشهور للحزب سنة ١٩٢١ قال تروتسكي :

إن الحزب مُجبر على الابقاء على دكتاتوريته بغض النظر عن

التأرجحات الموقتة في امزجة الجماهير العفـوية وايضـاً بغض النظـر عن التذبذبات حتى وفي طبقة العمال لا ترتكز الدكتاتورية في كل لحظة على مبـدأ الديموقـراطية العمالية ، مع ان الديموقـراطية العمالية هي بالطبـع الطريقة الوحيدة التي يمكن بواسطتها جلب الجماهير الى الحياة السياسية بشكل متزايدمستمر .لا يمكن حتى لاعظم التصورات الجدلية ان تنـكر المعضلات الغامضة الجمّة التي تتمخض عنها هذه الفقـرة الصريحـة في فحواها . وربما كان العنصر المنقذ السالم الوحيد المتواجد بـين الـزعماء البلاشفة خلال العشرينـات من القـرن العشرين هو ان الحـوار داخـل الحزب بقي صريحاً وحاداً وبهذا أمكن سماع سلسلة من الآراء التي يشمل بعضها ما يمكن ان ترتاح له احزاب أخرى لو كانت الظروف أفضل .

ومـا زال النظـام البلشفي يتمتـع بدعـم الجمهـوريات اليســارية الأوروبية ، وانفصلت اجـزاء من الاحـزاب الاشتـراكية وساعـدت في تشــكيل الشيوعية الــدولية . . وكثــر الهمس والتلميح عن « تجربــة السوفييتات » ـ وقد استمر ذلك لعقدين او ثلاثة عقود ـ همسات مميزة ولها معناها اكثر مما توقع الزعماء البلاشفة حتى واكثر بكثير مما اعترفـوا به ، همسات بدأت تسمع في الدوائر الحرة واليسارية بان الثورة قد خسرت سحرها ولا يمكن اتهام مثل هذه الاصوات بانها معادية للثورة .

في ربيع سنة ١٩٢٠ ، قام برتراند رسل بزيارة للاتحاد السوفييتي ورغم قصر هذه الزيارة فانها تمخضت عن كتاب انشأه برتراند في اواخر تلك السنة واسماه « النظرية البلشفية وممارساتها » ولا يزال هذا الكتاب جدير بان يُقرأ . وبعد ان اعلن رَسّل بطريقة لا يرقى اليها الشك بانـه

خصم للرأسمالية ومعجب بالاهداف النهائية للشيوعية كتب رَسّل بان اصدقاء البلاشفة في الغرب ! « يعتقدون بان دكتاتورية البروليتاريا (العمال) ليست إلاّ شكلاً جديداً من أشكال الحكومة التمثيلية حيث لا نجد إلاّ أصوات العمال الرجال والنساء . ويعتقدون ان ما يسمى البروليتاريا (الطبقة الكادحة) هو البروليتاريا بلا زيادة ولا نقصان بيد أن ما يسمى « دكتاتورية » لا يعني تماماً « دكتاتورية » . هذا عكس الحقيقية تماماً . اذ عندما يتكلم شيوعي روسي عن الدكتاتورية فانه يعنيها بالحرف الواحد ولكن عندما يتحدث عن البروليتاريا فانه يرمي الى ما تعني بشكل « بكوكي » ساخر . انه يعني « الوعي الطبقي او الضمير الواعي من البروليتاريا أي الحزب الشيوعي » .وانه يقصد بذلك اشخاصا هم ابعد ما يكون عن البروليتاريا الاشخاص الذين دائماً تكون اراؤهم صائبة ويستثني منهم اصحاب المعاشات الذين لا يتمتعون بالآراء الصائبة .

ان الضرورة الماسة لتثبيت الشيوعية في الاذهان تنتج مناخا شديد الحرارة حيث يجب ابعاد كل نسمة عليلة من الهواء وتصبح البلاد شبيهة تماماً بجامعة يسوعية ضخمة جداً .

في أوائل العشرينات من القرن العشرين ظهر بان طلاوة الجمل التي دبّج رَسّل بها كتابه لم يَعُدْ لها نظير الا بالفقرات التي كتبها جوليوس مارتوف ، ذلك الشخص التعس الذي كان يحاول بان يظهر كمعارض مسالم للبلاشفة وقد باءت محاولته بالفشل الذريع . اذ في ما بعد تحدث تروتسكي عن مارتوف وأسماه « هاملت الديموقراطية الاشتراكية » وقد

نسي بان هاملت كان يتمتع بموهبة عظيمة ، ألا وهي ملاحظة ما كان باليا في الدانمارك .وهاكم في ما يلي ما قاله مارتوف في احدى مقالاته الاخيرة قبيل مغادرته روسيا :

لم تقم الدولة السوفيتية في أي وقت بأي عمل لالغاء موظفي القطاع العام وابدالهم بطريقة انتخابية ولم تقم بأعمال قمعية ضد الشرطة المحترفين ولم تضع حداً لإحتكار الانتاج الاجتماعي ولـم تخفف من القـوة التـي مارستها لاخضاع المجتمع المحلي لسلطة الدولة . بالعكس نرى ان الدولة السوفيتية تُبدي ميولاً في الاتجاهات المعاكسة . تظهر ميولاً نحـو تكثيف مركزية الدولة ميولاً لتعزيز الاجبار والاستبداد الى اقصى حد ممكن كما وتظهر ميولاً نحو انماء وتطوير جهـاز دولـة اكثـر اختصاصـاً في عمليات القمع . قمع يفوق كل شيء سبقه .

تغيرت نظرة البلاشفة الى الدولة الآن ولم تعد هناك طريق معبـدة حتى ولا أي وسيلة نحو نظام دولة اشتراكية احصائية وقد ضَمُر ما فيها من اعمال ومن معاهد ، كانت الدولة البرجوازية قد انجزتها ، اي ان ما قالوه سنة ١٩١٧ قد اصبح الآن وكأنه ما كان (ما قاله لينين في كتابه : الدولة والثورة) . ويبدو الآن أن طريقهم نحو نظام اشتراكي متحرر من الدولة لم يعد إلا بالتضخيم الهائل والتطوير الزائد لهذه الاعمال وفي هذه الحالة وبمظهر يختلف تماماً تطوير معاهد ومؤسسات الدولة بصورة مشابهة تماماً لتلك التي وُجدت في عهد الدولة البرجوازية . واستمر اولئك الاذكياء في رفضهم فكرة البرلمانية الديموقراطية ومن الغريب انهم في نفس الوقت لم يرفضوا تلك الاساليب المتعلقة بسلطة الحكومة التي شابهت تماماً من حيث تنفيذها اساليب الحكومة البرجوازية البـرلمانية والامثلة على ذلك كثيرة

منها : البيروقراطية والشرطة وجيش دائم له انظمة خاصة تختلف كل الاختلاف ومستقلة تماماً عن كادر (انظمة) الجنود ، الخ .

وثبت الآن انه لا بد من الانفجار : جاء ذلك في شتاء سنة ١٩٢١ . في هذه السنة طافت عصابات من الفلاحين الجياع الذين تحولوا الى عصابات لصوص طافت في الريف الروسي . وعمت الاضرابات في المدن الرئيسية وسبب نقص الوقود الى اغلاق كثير من المصانع اضف الى ذلك أن عمال النقل كانوا ينالون ما بلغ من ٧٠٠ الى ١٠٠٠ وحدة حرارية من الطعام يوميا رغم العمل الشاق الذي كانوا يقومون به واخذ العمال الجياع يقومون برحلات الى الريف آملين أن يقايضوا ما معهم من الملابس او الادوات المنزلية بما يسد رمقهم من الغذاء وبهذا تحدّواحظر الحكومة على المتاجرة وبدأ دخان الثورة يتصاعد في طول البلاد وعرضها .

ومما زاد الطين بلّة ان البحارة في مركز كرونستات ، البحري نظّموا انفسهم كقوة سياسية ذات طاقه ذاتية وبهذا رفضوا سلطة الزعماء البلاشفة المحلية . وقاد هذه القوى انقلابيون وراديكاليون يساريون وراديكاليون مستأجرون واصبح شعارهم البارز الصارخ « الثورة الثالثة » الهادفة الى ارجاع السوفييتات المدمّرة الى سالف قوتها الفعلية . طالبوا بانتخابات حرة للسوفييتات تشترك فيها كل الاحزاب اليسارية البحرية . وطالبوا ايضاً باطلاق حرية الكلام وكذلك حرية الصحف لجميع العمال والفلاحين والفوضويين واحزاب اليسار الاشتراكيين . ثم طالبوا بتخفيف القيود المفروضة على الاقتصاد مثلا اعطاء الحق للفلاحين لاستعمال كل ارضهم بشرط ان يستفيدوا من العمل المأجور ، وكذلك

منح الحق لصغار الصناع بالاستفادة من صناعتهم مع تخفيف الشروط المفروضة عليهم ورغم انهم لم يكن لهم سياسة متماسكة كانوا ممتلئين حماساً ديموقراطياً ثورياً وقد تمكن الملاحون بما تمتعوا به من الحماس الثوري من ان يكسبوا تأييد اكثر من ٣٠٪ من القطاع الشيوعي المحلي .

وشعر البلاشفة بالخطر المهدد وقد اعلن لينين لدى انعقاد المؤتمر العاشر للحزب بأن ثوّار الكرنستات لا يريدون الحرس الابيض ويرفضون سلطتنا ايضاً وليس هناك من شك بان هذا البيان اصدق بكثير من دعايات البلاشفة في ذلك الوقت تلك الدعايات التي كثيرا ما ذهبت الى تلطيخ الثوار الكرنستات زاعمة بانهم يمالئون الحراس البيض . على ان الحكومة قررت بان لا تتقدم بأي حل وسط فطالبهم تروتسكي في الخامس من آذار بالاستسلام غير المشروط . وعندما أهمل انذاره استعد الجيش الاحمر للهجوم . تقع كرنستات على بعد سبعة عشر ميلا من بتروغراد على خليج فنلاند ، وتستطيع الجيوش ان تصل الى الجزيرة ما دام الثلج سميكا كناية ولكن عند ذوبان الثلج يكاد ان يصبح الثوار في مركز لا يقهر . وقد انضم الى المهاجمين وفود من المؤتمر العاشر للحزب بما في ذلك المنشقون من حزب المعارضة العمالية وحزب الوسط الديموقراطي . مشى الجنود وهم يرتدون الملاءات البيضاء على الثلوج وكأنهم موكب من الاشباح . ولكن القذائف التي اطلقت من كرنستات مزّقت الجليد فغرق كثير من الجنود ولكن الكتائب المتقدمة تمكنت من الوصول الى داخل الحصن وتغلبت على الثوار . كانت الاصابات فادحة في كلا الطرفين ولكن عمليات القمع فأقلّ ما يقال عنها انها كانت وحشية .

أثناء استعراض للجيش في الثالث من نيسان قال تروتسكي : « لقد انتظرنا اطول مدة ممكنة لعل إخواننا البحارة يعودون الى صوابهم وترتفع الغشاوة التي اعمت عيونهم فيروا الى اين سيوصلهم العصيان . لكن واجهنا خطراً عظيماً وهو الخوف من ذوبان الجليد ولذلك قررنا ان نشن الهجوم » .

وعندما اعيد الحوار في مسألة كرنستات سنة ١٩٣٨ ، وعندما بدأ الجناح اليسار المناهض لتروتسكي ينتقد اجراءاته حينئذ وفي الدور المتشدد الذي لعبه اثناء عمليات القمع أجاب تروتسكي وبكل عناد بأن الثورة قد عرضت النظام البلشفي للخطر . ولو سمح لها بالانتشار لأثارت موجة من التمرد في طول البلاد وعرضها . اضف الى ذلك ان بحارة كرنستات ما عادوا اولئك الثوار المثاليين الذين تمخضت عنهم ثورة سنة ١٩١٧ ، والذين مات معظمهم في الحرب الأهلية وحلّ محلهم فتيان من الفلاّحين الذين لم تكن لهم خبرة سياسية كافية . انما بحلول سنة ١٩٣٨ ، ما عاد تروتسكي يتحدث عن الحراس البيض ولا عن تأثيرهم .

حتى ولو سلمنا بمناقشات تروتسكي المتأخرة عن ثورة كرنستات فان هذه الثورة ستبقى لطخة سوداء في جبين تاريخ اوائل البلشفية . اما وقد اصبح هذا النظام دكتاتوريا تسلطيا فلم يعد امامه إلا ان يلجأ الى قوته الحربية ضد الجماهير الثائرة الغاضبة - لا جدوى من هذا طالما استمر النظام في رفض حتى اختيار ديموقراطية جزئية . ليس هناك أي شك في ان البلاشفة قد عملوا بكل فظاظة وشراسة . على أن فكتور سارج ، كتب يقول : لاحظت هناك شعوراً بالذنب والعار والحزن يعمّ زعماء الحزب العظام اذ بعد وقت قصير على اغتصاب البلاشفة للسلطة قال واحد منهم

متكهناً ان الجهود التي يجب ان تبذلها الاقلية لصيانة الحكم الدكتاتوري لا بد ان تؤدي في النهاية الى « الارهاب والرعب » ، وقد صدق في قوله إذ قد وصلوا الآن الى « الارهاب والرعب » .

لقد خيّم جوّ من الكآبة فوق المؤتمر العاشر للحزب في نيسان سنة ١٩٢١ . اصبح من الجلي أن هناك طلبات رئيسية لا بد منها لئلا تثور البلاد متفجرة تحت عبء الشدائد التي كانت تعانيها في ظل الحياة البلشفية . قدم الآن لينين « السياسة الاقتصادية الجديدة » ووافق عليها النوّاب بحدّ ادنى من النقاش . وقد اعتمدت هذه السياسة في معظمها على افكار كان تروتسكي قد رفعها قبل سنة ولكنه لم يكافح لتنفيذها بما ينبغي من قوة . اظهرت هذه السياسة الجديدة الاقتصادية جوعاً جزئياً الى السوق الحرة : سُمِح للفلاح بأن يبيع الفائض من انتاجه وسُمِح لاصحاب رؤوس الاموال الخاصة بأن يديروا صناعات على مقياس صغير وضمن حدود خاصة كما وسمح لاصحاب رؤوس الاموال الاجنبية بان يستأجروا ويستفيدوا من مناطق معينة من الاقتصاد الروسي . ولما خشي البلاشفة من أن التحسن الاقتصادي الذي ستسفر عنه هذه السياسة ـ وهو تحسن حدث بالفعل بسرعة غير منتظرة ـ سيشجع عناصر من الفلاحين والمثقفين المعادين للنظام ليمارسوا عداء شديداً قرروا ان يربطوا التسهيلات الاقتصادية بالتشدد على الصعيد السياسي ، فبإصرار من لينين وافق المؤتمر على قرار يحظر تأليف تكتلات داخل الحزب ترتكز على خطة سياسية . لقد كانت هذه التكتلات سمة بارزة للحياة البلشفية منذ بدء تسلم البلاشفة زمام الحكم واصبحت بمثابة حوار رئيسي في يد مَنْ شعر ان هذا الحزب على الأقل في تنظيمه الداخلي كان ديموقراطيا

تماماً . لقد قدّم هذا القرار اساسا عمليا وعقائديا مهد الطريق للبيروقراطية الحزبية تحت زعامة ستالين واتباعه . . ومع ذلك فمن العدل ان نضيف بان الغاية المتوخاة من هذا القرار كانت اقامة منتديات حزبية داخل الحزب ونشرات تتضمّن حوارات شتّى يستطيع بواسطتها اعضاء الحزب ان يعبّروا عن وجهات نظرهم المتباينة كما وان القانون كان قد نُفذّ لأسباب طارئة موقتة . وقد قال لينين في المؤتمر:

« اذا كان هناك اختلاف جوهري (داخل الحزب) فليس في نيتنا ان نحرم الاعضاء من الادلاء بآرائهم امام الحزب . فاذا ـ على سبيل المثال برز سؤال في ما يختص بسلام برست ـ ليتوفسك . هل نستطيع ان نتكفّل بان اسئلة على هذا الامر سوف لا تظهر ؟ لا ، ليس في امكاننا ضمان ذلك . فمن المحتمل اذن بان يصبح من الضروري أن نناقش الأمر ونسأل ونجيب من على المنصّة . هذا من اوضح الأمور » .

وبكل تؤدة وخطوة خطوة وفي هذه الفترة التاريخية المصيرية كما لو انها كانت مطابقة لحقيقة من الحقائق غير المعلنة ولكنها مذكورة في كتاب تروتسكي « نظرية الثورة الدائمة » أخذت الدكتاتورية البلشفية تكافح وهي في عزلة تامة وفي حالة احتضار مرير في حالة تدهور وفي حالة فساد لا علاج له . اما وقد وصلت الحالة بالبلشفية الى هذا السجن الانعزالي وقد ارهقت وهي تحاول جلب الاشتراكية الى بلد ممزق الأوصال نازف الدماء ، وقد اضطرت الى استعمال وسائل وإجراءات لم تحلم بها إنما دفعها الى ذلك عقائد لا ترحم فلم تتورع عن إسالة الدماء كل يوم معتقدة ان كل هذه المظالم لها ما يبررها للوصول الى سياسات متحررة أكثر فأكثر

ولكن في نفس الوقت التشدد المتزايد في النظام الدكتاتـوري ، وفي هذا الوقت الحرج وفي هذه الحالات المتأزمـة تعثـرت البلشـفية وسقطـت في القر ن نيران الستالينية . ولكن هذا الاصطلاح لا يمـكن ان يدل على ما كان القدر يخبيء وماذا كان ينّتظر البلاشفة وجميع الشعب الروسي في عهد الستالينية . ولم يبق إلاّ إنتفاضة خفيفة يائسة حاول بواسطتها لينين لمدة بضعة اشهر وتروتسكي لبضعة سنين حاولت البلشفية بكل ما عندها من ثِقَل استعادة قوتها السياسية والادبية ، حاولت إستعادة مركزها الاجتماعي السالف انما كانت الجهود غير مجدية والوقت قد فات ولم يعد هنـاك أي أمل .

الفصل الرابع :
قيام الستالينية

في السنين التي تلت الثورة مباشرة أصبح لينين ينظر الى الأمور باتجاه نظري وبتشدد أقل بكثير من تروتسكي . لم يستطع تروتسكي ان يقاوم ميوله نحو النظريات الفخمة والذبذبة المتطرفة والمواقف المتصلبة . وعارض لينين العملي الافكار أكثر فأكثر التعريف السهل المتعلق بإتصال الدولة البلشفية مع الطبقة الكادحة . ولقد أحسن لينين ، وهو دائم الانتباه ومفتوح العينين ، عندما وصف النظام بانه « دولة عمال مشوهة » ، على العمال في هذه الدولة ان يحموا ليس فقط الدولة ضد اعدائها ولكن أيضاً عليهم ان يحموا أنفسهم من دولتهم . ورغم ان هذه الفكرة ما زالت تبعد بعداً شاسعاً عن مفهوم الديموقراطية الصحيحة فسح هذا القول المجال للنظر الى لينين وأفكاره نظرة واقعية مرنة .

في كلمة القاها لينين امام المؤتمر الثالث للشيوعية الدولية سنة ١٩٢١ كرر الفكرة التي تبناها جميع الزعماء البلاشفة قال :

«حتى قبل الثورة البلشفية وكذلك بعد الثورة اعتقدنا بان الثورة لا بد حاصلة اما مباشرة أو على الأقل بسرعة في البلدان الأخرى المتخلفة كما وفي البلدان الرأسمالية المتقدمة بصورة بارزة وإلاّ فلا ينتظرنا إلاّ الفناء » .

والآن بتدهور الاقتصاد الروسي والهزيمة التي واجهتها الثورات في اوروبا في السنين ١٩١٩ - ١٩٢١ ظهرت علامات واضحة بان تنبؤات لينين ستتحقق . ولكن بصورة لم يتخيلها لا لينين ولا تروتسكي . استطاع الحزب البلشفي ان يحافظ على كيانه كمسيطر على مجتمع ممَزّق

منعزل محاصر داخل حدود روسيا المتقلصة ولكن بهذا العمل اضطر الحزب ان يجري تغييرات اساسية في العقائد السياسية وفي السلوك الاشتراكي والميزات الاخلاقية .

فلمنع الانهيار الاقتصادي او الانفجار الاجتماعي اقترح لينين كجزء من سياسته الاقتصادية تنازلات على نطاق واسع على صعيد جماعات الفلاّحين المعادية للنظام . ولكن هذه التنازلات ساعدت على خلق طبقة من الفلاحين المحافظين الاغنياء والمتوسطي الحال . وعندما عادت جمهرة الجنود بعد الحرب الاهلية وقد جفّت حماستهم الثورية واختفت حُمّى الوطنية من قلوبهم كانوا عاملاً فعالاً في تقوية الميول المحافظة في الريف .

وهكذا حدث في المدن لقد فقد العمال نشاطهم الاجتماعي . فالبعض سقطوا في حالة مريرة من الفساد وتحول آخرون عن مبادئهم وأصبحوا مناهضين للنظام . لقد مات الكثير منْ الذين كرسوا انفسهم للبلشفة ماتوا في الحرب الأهلية . وهذه الحقيقة هي التي طالما شدد تروتسكي عليها في شرح أسباب إنحطاط المستوى الاخلاقي الحزبي . وهناك جماعة أخرى قد انهكهم التعب ، وجماعة أخرى ما زالوا يمارسون ميزات الموظفين البيروقراطيين في كل مكان ، وذلك بما تمتعوا به من السلطة للحصول على مصالحهم الخاصة مما جعلهم يبتعدون بصورة متزايدة عن العمال الذين كانوا يحكمون باسمهم . وبغض النظر عن المساعدة الكبيرة ـ تلك المساعدة غير المنتظرة في وقت اتصف بأزمة إقتصادية عالمية ومن الغريب ان ذلك لم يشجع نظرة البلاشفة المتحمسة المتكررة على صعيد الثورة العالمية ـ وبغض النظر عن هذه المساعدة ما كانت تحتاج اليه البلاد بصورة خاصة هو تجديد وانعاش للأفكار ، ونسمة من الحرية تبعث حياة جديدة

ونشاطاً جديداً وطاقات منتجة . وعلي ان اذكر هنا أن البلاشفة بعد سنة ١٩٢١ ، رفضوا ان يسمحوا لأي حزب غير حزبهم بان يمارس اعماله بصورة شرعية وهكذا يكونون قد ساهموا بحفر قبرهم بيدهم . ولقد ساهم كل اجراء قمعي قامت به الدكتاتورية ، حتى عندما كان ذلك نتيجة لطارئة أسفرت عنها الحرب الأهلية أو الانهيار الاقتصادي ، ساهم ذلك في تقويض الادعاءات العقائدية والاخلاقية تلك المبادىء التي كرس الكثيرون من المساندين انفسهم لها . وبهذا اخذ ينمو داخل النظام تورم سرطاني خبيث . نما وإزدهر بسبب الحرمان والسخرية والوحشية .

بدأت طبقة جديدة تقوي نفسها ، طبقة برزت في نفس الصباح الذي قامت به الثورة : وأقصد بها حزب الدولة البيروقراطي الذي نال منذ بدء تكوينه تأييد ومساندة المثقفين الفنيين ومدراء المعامل والضباط العسكريين وفوق كل هؤلاء الموظفون في الحزب من الذين لم يمض على إنتمائهم الى البروليتاريا إلاّ وقت قصير . هذه الطبقة التي أقل ما يقال فيها انها ضيقة النظر ، فظة وريفية اللهجة ، وبدائية الثقافة ، تميزت هذه الطبقة بسايكلوجية ومظهر متسلط غريزي (وتضم احيانا متعصبين سوفييت غالوا في تعصبهم) . نظرت هذه الطبقة الى العمال كما لو انهم مادة يجب ان تأخذ شكلاً صحيحاً ونظرت الى المثقفين كوسائل للدعاية ليس إلاّ ونظرت الى الشيوعية العالمية وكأنها مساعد ثانوي يجب إستغلاله أما بالنسبة للماركسية فقد إعتبرتها هذه الطبقة نظاماً خاماً جديداً ما عليها إلاّ إستغلاله لتبرير مطامعها .

وعندما نتكلم عن بيروقراطية الدولة الحزبية في بلد قد أمّمت فيه

الصناعة فنعني بذلك اننا نتكلم عن نُخبْة أو صفوة من الناس تسلموا زمام الحكم من عهد حديث قد يكونون طبقة حاكمة جديدة استطاعت بكل تطفل أن تُهيْمن على كل مؤسسة في الحياة الروسية . ومن الواضح أن كثيراً من اعضاء هذه الدولة الحزبية لم يلاحظوا أهمية هذه العملية . انها لبِدْعَة تاريخية لم تخطر على بال المخططين الماركسيين اللهم في بعض العبارات التي وردت في كتب ماركس والتي نوّهت بالتصرفات الاجتماعية المميزة للحكم الاستبدادي في الشرق . فاذا تمعنا في بعض مقالات زعماء البلاشفة نستطيع ان نفهم منها وخاصة من مذكرات فكتور سارج انه طالما جرت مناقشات بشكل يدل على التردد واحاديث مضطربة مشوشة تدلّ بما لا يحتمل الشك بانهم بدأوا يتحققون وباحساس مملوء بالحزن مدى التَصَدُّع الذي حَلّ بانتصارهم . واستطاع الرفاق الحزبيون بأن يهمسوا في الأروقة عن هذا الحيوان الهائل الذي خلقوه . وقد شن لينين في اواخر حياته سلسلة من الحملات على هذا النمو الزائد للبيروقراطية ولا شك بأنه قد لاحظ مظاهرها رغم انه لم يَرَ اسبابها ومن الجلي انه كان يهيىء نفسه لنضال حزبي ضد هذه الطبقة التي كان على رأسها ستالين وكان ستالين نفسه هو المتحدث باسمها . وبالرغم من مرضه الخطير تحدّث لينين عدة مرّات عن القِحة المتزايدة المتفشية في الدوائر الحزبية الحاكمة وقد تحقق بان هذا التدهور الخلقي كان مقدمة لفوضى خطيرة كاسحة . ويظهر ان لينين اخذ يميل نحو فكرة خلق مؤسسة مستقلة استقلالاً شبه ذاتي قد تستطيع ان تكبح من جماح التضخم الهائل في نظام الدولة وطبقاً لِما قاله موشي لِون ، في دراسته لهذه الفترة كانت هناك اشارة غامضة بخصوص جعل الحزب المنشفيكي حزباً قانونياً وأيضاً ربما الوصول الى نهاية كبح جماح البيروقراطية . ولكن ما كانت هذه الخطوات إلاّ آخر درجات السلم

بالنسبة لزعيم فقد السيطرة على العملية التاريخية التي كان هو رائدها .

ولن نستطيع ان نعرف فيما اذا كان بالامكان إيقاف الوثبة الستالينية لو استطاع لينين ان يتابع حياته السياسية لبضع سنين اخرى . في سنة ١٩٢٨ بعد أن انضم نقولاي بوخارين ، الزعيم البلشفي الى ستالين للتغلب على تروتسكي قال « ان جذور الشر تكمن في كون الحزب والدولة قد اندمجا معاً » ومن الجدير بالذكر ان ستالين حطم نقولاي هذا بعد وقت قصير . أجَل لقد وجد أناس مجهولون قالوا الكثير انما لبعض الوقت .

لا يمكننا بشكل حاسم ان نحكم ونؤكد النقطة التي هزمت فيها دكتاتورية لينين الثورية لتحل محلها التوتاليرية الستالينية وربما كان هذا الامر ليس له اهمية تذكر . لقد كان ذلك تحوّل تدريجي أو ، اذا استعملنا الاصطلاحات الماركسية ، ثورة مضادة بدأت اثناء الثورة او بعدها بقليل ، داخل مركز القوة في النظام اللينيني . وقد وصل ذلك التحول الى لحظة حاسمة خلال العشرينات من القرن العشرين ووصل الى ذروته في الثلاثينات من نفس القرن ، وذلك بالابعاد الجماعي للفلاحين والقضاء على البلاشفة القدامى ومحاكمات موسكو . وبعد أن قوّت سلطتها ومكنّت سيطرتها اخذت الطبقة البيروقراطية الجديدة تَستَغِلّ الفرص لتخطيط اقتصادي مركزي مميز لاقتصاد مُؤَمَّم . وتعهدّت الطبقة الجديدة « تجميعاً ابتدائيا لرأس المال » بصورة جعلت التجميعات التي قامت بها المجتمعات البرجوازية السابقة تبدو وكأنها نموذج حي يكرم الحكام . وكيف كان ماركس سيحكم على نظام « الجمع » هذا الذي عمل به ستالين بكل شدة وعنف ، لا نكاد نستطيع ان نتخيل هذا الحكم اذ ان ماركس ندّد بشدة

وبشكل عنيف بتجميع رؤوس الاموال الذي مارسته البرجوازية .

خلال كل هذه العمليات اظهر تروتسكي نفسه كناقد مثقف ليس له نظير ولكنه لم يكن خصماً سياسياً ماهراً . ولأسباب لم يستطع أي ممّنْ كتب سيرة حياته او حتى من زملائه ان يفسرها بصورة مرضية إتّبع تروتسكي سنة ١٩٢٣ ، ولوقت ما بعد هذه السنة سبيلاً أقل ما يقال فيه انه سبيل خاطىء مليء بالاغلاط ، فكان احيانا ينقض كالصاعقة موجهاً سخطه على نقائص البيروقراطية التي كان يلمسها في كل مكان وطالما إستمد من المنطق الماركسي ما استطاع به ان يجري تحليلا رائعا لهذه الظاهرة ولكنه بعد كل هذا يستسلم لفترات من الصمت بسبب المرض او بسبب الانسحاب المحزن من على مسرح الحوادث . ولدي الآن تقارير موثوق بها عن تصرفات تروتسكي في هذه الفترة ، لم يكن يتغيب ابداً عن أي اجتماع للجنة المركزية البلشفية ولكن كان اثناء الجلسة يستغرق في قراءة رواية فرنسية تلهيه عن سماع المناقشات الصاخبة لأنه كان يعتقد ان مثل تلك المناقشات لم تكن جديرة بأن يصغي اليها . أي صورة تمثل لنا هذه الحالة : فرئيس الجيش الاحمر السابق منكب على رواية فرنسية لأنه

لم يستطع ان يتحمل سماع خطابات الرفاق . ويبدو الآن كما لو ان تروتسكي شعر بأن نفس الحوار الذي كان هو ولينين قد أجرياه في أوّل الفترة التي بزغ فيها نجم الثورة أي : إن لم تسارع الطبقة الحاكمة في الغرب لنجدتنا فاننا سنهلك ، وبدا الآن جليّاً ان نهوض وإنتصار الستالينية لا بُدّ منه . وبدا كأن تروتسكي قد أصيب بمرض في قلبه لرؤيته ما أخذ يحدث بين البلاشفة المنتصرين . واخذ « القبضايات » يسببون مضايقات وازعاجات للزعماء التروتسكيين ، البلاشفة الممتازين ، رغم

انهم كانوا موظفين في الجهاز الحزبي واخذت التهديدات العنيفة تنهال على المتمردين من داخل الحزب اضف الى ذلك الحوار البدائي الموجه من الاوساط الستالينية واخيراً أول خطوات التعصب الستالينية ضد السامية . وشعر تروتسكي بالعجز الكامل امام هذا الوحش الذي كان تروتسكي هو المسؤ ول عن تقويته معتقداً انه سيصاب بالعجز المؤ دي الى الفناء بعد ان يصل الى ذروة النجاح .

اننا لا نعرف ما يكفي عن الاسباب التي ادّت الى الهزيمة الساحقة التي حلّت بتروتسكي ، انه كان دائما يفتقر الى المهارة في ممارسة المناورات داخل الحزب . لقد كان فاقد الصبر الى الدرجة القصوى وواقعياً اكثر مما يجب ومتكبراً لدرجة اضرت به . لقد كانت مسيرته أفضل وأنجح بكثير عندما كان يعمل كماركسي حر التصرف في الصحف وتفوّق كزعيم للجماهير المتمردة ولقد إنضم الى جناحه اليساري المعارض المع العقول داخل الزعامة البلشفية وعلى رأسهم بريأبراجنسكي ، وراكوفسكي ، وراديك ، وف . سميرنوف . ولكن تروتسكي وحلفاءه اخفقوا اخفاقاً ذريعاً في نضالهم للسيطرة على جهاز الحزب واعتقد ان هذا الفشل كان نهائياً وذريعاً لأن السيطرة على جهاز الحزب تَعْني السيطرة على جهاز الدولة .

قد يعتقد الانسان أن تنازع البقاء على صعيد الزعامة الشيوعية قد يُشْغل جميع طاقات تروتسكي ولكنه لم يشغله الى هذه الدرجة اذ بالحقيقة احس بإشمئزاز قوي لاضطراره بان يعالج الأعمال الدنيئة ، وفيما بعد ان يعالج مسألة قبضايات الجهاز الحزبي . وشعر تروتسكي بالمتعة

وهو يكتب عن موضوعات لا تتعلق مباشرة بالنضال الحزبي وكان يُسر كل السرور بفكرة حياة مختلفة النواحي متعددة الجوانب .

سنة ١٩٢٢ ، نشر تروتسكي كُتَيّباً غريباً أسماه « مشاكل الحياة اليومية » . يشعر من يقرأ هذا الكُتَيّبْ انه امام تروتسكي كشخص لم يألفه من قبل . استطاع تروتسكي في هذا الكُتَيّبْ ان يجمع ذروة الافكار الروسية وربما اصداء من تولستوي وتارجينيف ، وضمّن كُتَيّبه ايضا كثيراً للواقع المألوف ويظهر لمن يمعن النظر في هذا الكُتَيّبْ انه يفوق كل كتابات الادباء الماركسيين تتدفق فيه بكل جلاء صور لتروتسكي الواعظ وتروتسكي المدرّس وتروتسكي المؤلف الاخلاقي . كم يبدو هذا غريباً وقدراً ولكنه ايضاً أحياناً يبدو ساحراً .

كان صوته يدوّي كالرعد وهو يندد بشرب الفودكا في روسيا هذه الممارسة التي زادت عن كونها عادة . وطالما قال للرفاق الذين شابهوا في سوء أخلاقهم موظفي القيصرية السالفين ان الدماثة ضرورة لازمة للاشتراكية لا تقل اهمية عن الكهربائية والتصنيع . قال تروتسكي في احدى عظاته : إن الكلمات الرديئة هي احدى تركات العبودية تحط من قيمة الانسان وتفقده الاحترام واخص بالذكر هنا لغتنا الروسية البذيئة . فمن الطبقة السفلى من شعبنا يبدو لي ان اللغة البذيئة ما هي إلاّ نتيجة لليأس والمرارة وفوق كل هذا فالعبودية حالة لا أمل فيها ولا نجاة منها .

اما الشتائم التي تتفوه بها الطبقات العليا فهي تعبير عن السيادة الطبقية والغطرسة التي تنبثق عن ممارسة إستملاك العبيد والجدير بالذكر هنا ان الثورة وما احاط بها من القساوة وسفك الدماء دون رحمة هي دون

شك دلالة واضحة على يقظة البشرية .

فلنتخيل اجتماعا للزعماء الخشنين القساة القدامى مثل ستالين ومولوتوف وأردجونيكيدزا ، وهم يجلسون الى مائدة يتعاطون إحتساء نصيبيهم من الفودكا في مكاتب اصبحت الآن مريحة وهم يتبادلون النوادر عن ذلك المتطفل اليهودي ـ الطهري تروتسكي الذي يكثر من كتابة المواعظ ويندد بالشتائم والكفر ويدوّي الهواء بقهقهتهم وسخريتهم .

ومما لا يَرْقى اليه أي شك الحكمة التي دفعت تروتسكي لينددد ويشجب عادة الشتم وأهم من كل ذلك ما كتبه من مقالات حاميةعنيفة على صعيد حقوق المرأة قال: «لا يمكننا أن نسمي الثورة ثورة إذا لم تقم هذه الثورة بمد يد العون للمرأة ، إن المرأة الآن مستعبدة الى درجة لا تصدق فهي حجر عثرة في سبيل التطور الاشتراكي فاذن علينا ان نزيل عنها عبء هذه العبودية . وبكل حكمة وتعقل تناول قلمه ودبّج مقالات ضد الميول المادية التي كانت تنمو بشكل متزايد بين صفوف البلاشفة الظافرين . لقد ترك التخلف الروسي طابعه ليس فقط على المجتمع القديم بل أيضاً على الحكّام الجدد . أصبح طعم السلطة يثير العناد . وأدت عزلة البلاشفة الحكّام الى التبرير الجاف للاجراءات المتخذة للاحتفاظ بالسلطة كما وان البلاشفة على صعيد انظمة الحزب كانوا يحاولون جهدهم ليجعلوا الماركسية كفلسفة يمكن بواسطتها الإجابة عن جميع التساؤلات وأكثر من هذا تستطيع أن تخرس كل الألسن . وبهذا سنحت فرصة ذهبية حتى لأتفه الأشخاص بأن يتحدثوا عن أسخف الأمور بحماية حراب الزعماء وفلسفة الحزب .

وطالما تحدث تروتسكي المثقف شاجباً مثل هذه العجرفات على انه كماركسي متشدد كثيراً ما قدم لها يدَ العون دون قصد . (أما لينين فلم يكن ليهتم بالأمور الثقافية واتخذ موقف اللامبالاة في ما يختص بالآداب والفنون طالما ان هذا لا يهدد السيطرة الحزبية السياسية مع ان ذوقه الأدبي الخاص كان تقليدياً . .) ولم يكن تروتسكي نفسه متحرراً من الإدعاءات بان الجدل هو مفتاح كل معرفة ـ وأسوأ من هذا ـ بأن الجدل هو المرشد المزعج . في العشرينات من القرن العشرين حاضر تروتسكي امام حشد من العلماء الروس بخصوص العون الذي بإمكانهم ان يحصلوا عليه من الجَدَل . اما ما شعر به العلماء حيال هذه المحاضرة فلم يعلم به أحد مع أن كل مَنْ له أي اتصال بالعلماء يستطيع ان يخمن ، بيد اننا بوجه الاجمال نستطيع أن نؤكد بانه ضمن الحدود التي فرضتها روسيا اللينينية مثّل تروتسكي الصراحة الثقافية التامة . إستمع في ما يلي الى دفاعه عن الفرويديه (مذهب العالم فرويد) ضد الماركسية العامية الفظة :

قال :

ان محاولة الاعلان بان التحليل النفسي للماركسية هو شيء ليس له نظير وانه يجدر بنا بان لا نلتفت ابداً الى الفرويدية يدل دون شك على السذاجة الكاملة وبساطة التفكير . فالفرويدية نظرية عملية تفسح المجال لاستنتاجات وفروض تدل على فرضية مادية . وانني لمتأكد بان التجارب عليها ستظهر صحة رأيي في الوقت المناسب .

لقد ظهرت الفضائل الثقافية الكاملة لتروتسكي بما قدّمه من كتابات ادبية رائعة ، لو كان تروتسكي قد كرّس نفسه كُلّياً للآداب لأصبح ناقداً

من اعظم نقّاد القرن . ان كثيراً من القطع التي خطّها يراعه لا تزال تبدو نضرة واضحة تتدفق برائع الأفكار والجمل والعبارات الطنانة . اسمعوا ما يقوله تروتسكي في مقالة من مقالاته المتأخرة عن الكاتب الروائي سالين ، « لقد دخل سالين الى عالم الآداب الرفيعة كما يدخل غيره من الرجال الى منازلهم » وهذا ما يمكنني ان اقوله عن تروتسكي نفسه انه يظهر بما لا يرقى اليه أي شك علامات الناقد الصحيح وهي ليست مجرد اسلوب ولوذعية وفكر انما الموهبة الخلاّقة التي تميط اللثام عن الميزه الاساسية التي يتصف بها الكاتب وصوته وعواطفه وميوله ومنطقه وتصوراته . واليكم في ما يلي بعض الجمل من مقالة عن تولستوي كتبها سنة ١٩٠٨ :

يمتد ممر قصير من قصر المالك مباشرة الى كوخ الفلاّح . لقد اعتاد تولستوي الشاعر ان يمشي عبر هذا الممر بكل متعة وحب حتى وقبل ان اصبح تولستوي أديباً عظيماً وحول ذلك الممر الى طريق خلاص وإنقاذ . حتى وقبل الغاء العبودية ما فتىء يعتبر الفلاّح كخاصته كان ينظر اليه كجزء لا يتجزأ من المادة التي لا غنى له عنها وكنوع من ممتلكاته الروحية . ومن وراء « حبه الطبيعي للشعب الكادح » ، ذلك الحب الذي لم تَشُبْهُ أي شائبة الذي يحدثنا تولستوي عنه ، يبرز لنا عن بعد ساحق صورة جدّه الارستوقراطي تلك الصورة التي استطاع تولستوي بكل مهارة وإتقان أن يجعلها تظهر في حلة لامعة بهيّة البستها عبقرية الفنان روعة ليس بعدها روعة .

انه لا يعرض ابطاله امام الجمهور أبداً ، كما يفعل تيرجنيف ، وسط تصاعد تفجرات الالعاب النارية وومضان وتوهج المغنيسيوم انه لا يرسم

له مواقف ليقوي مراكزهم امام الجمهور لا يخفي شيئاً ولا يتستر على شيء يقدم لنا شخصية عظيمة لا تألو جهداً في البحث عن الحقيقة . لقد تحوّل بيير بيزوخوف ، في نهاية الرواية الى رب عائلة أنيق ومالك سعيد . أما ناتاشا روستوف التي تأخذ بمجامع القلوب بإحساساتها الشبه طفلية فقد حوّلها بمهارة سحرية ودون أي رحمة الى انثى بسيطة لا تصلح إلاّ للولادة وتربية اولادها وتحمل بين يديها حفاضات للطفل ملطخة بالوحل . ولكن خلف هذه الصورة اللامبالية التي يبدو وكأنها لا تقيم وزناً لأدوار الأفراد تنبثق صورة ربّانية رائعة تحيط بجميع الأفراد ، حيث الجميع يستنشقون عبير الاتقان وروعته وتسربليهم هالة من الانسجام والتوافق .

ويصح القول بان هذه الجهود الخلاّقة يتخللها احساس جميل بالوهية الكون حيث لا يمكن أن ينافس هذه الروعة لا جمال ولا قباحة ، لا العظمة ولا التفاهة لأن هذه الجهود الخلاّقة ترى كل الحياة في الدورة الابدية لمظاهر العظمة والجهال . هذا الجهال يمثله مَنْ يحرث الأرض ، هذه الشخصية المحافظة بطبيعتها رغم المشاق التي تجابهها وهذا هو ما يسبل على قصص البطولة لتولستوي المشابهة لأسفار موسى والالياذة .

أنشأ تروتسكي أول محاولة أدبية له في عالم النقد الأدبي « الأدب والثورة » خلال عطلته الصيفية سنة ١٩٢٢ وسنة ١٩٢٣ ، وهو من أسمى أنواع الأعمال النقدية كما ويجدر بنا أن نتذكر انه قام بهذا الانجاز الرائع وهو يرزح تحت ضغوط أعماله الجمّة في ذلك الوقت . واذا تصفحنا هذا الانجاز نرى انه مجرد اطروحات لم تجمع معاً لتؤلف كتاباً ولكنه يتّسم بطلاوة كلامية لا تبارى وعبارات تتدفق من بين ثناياها معانٍ جميلة ساحرة تظهر متألقة حتى في الترجمة الانكليزية التي كثرت الاخطاء في

ترجمتها ويمكننا ان نتصور تروتسكي الآن وقد إبتعد عن أعباء الحياة الرازحة تحت أجواء الحرب الشيوعية وبعيداً ولو لفترة أثناء عطلته عن قباحة الحزبية البلشفية يمكننا أن نتصوره يتنفس الصعداء إذ انه قد اندمج ثانية في حياة « أكثر سحراً » حياة طالما اشتاق لها حياة الفن التي يهيم حباً بها .

ينقسم الكتاب الى قسمين : ففي أوائله وختامه يشن هجمات مركزة على المذاهب العمالية النظرية تلك المذاهب التي كانت تدعي إذ ذاك بوجود « أدب بروليتاري » في الاتحاد السوفييتي . كما وأن الكتاب يحوي بين صفحاته فصولاً عن بعض الكتاب الروس المعاصرين امثال بايلي ، ومياكوفسكي ، وغيرهم وقد كتب هذه الفصول بنوع من التسرع والتشدد .

على صعيد الماركسية المحدودة والذاتية النظام يتبين لنا ان الفصول النظرية في الكتاب المذكور معتبرة كأمر محدد بصورة نهائية . يستهل تروتسكي الكتاب بتحبيذ قوي للدور الذي تلعبه التقاليد لأنها تأخذ بعين الاعتبار كلاً من تشابكات التجارب الثقافية المعقدة التي تحدث ببُطء والقوة المحركة الديناميكية الداخلية للتاريخ الأدبي . فهو أسلوب يقرب ما يكون الى مهارة ت . س . اليوت ، ولكنه بالطبع لم ينبثق من مشاركة وثيقة جداً في الحياة الأدبية الفعلية .

ومع أن ماركس نفسه سلّم بقوّة التقاليد من خلال ملاحظاته المبعثرة هنا وهناك على صعيد المواضيع الثقافية فان قِلّة من الكتاب الماركسيين قد

حاولوا ان يوضحوا هذا الرأي بنفس الاهتمام والمهارة التي كرس تروتسكي في توضيحها . انه يتفهم تماماً وَقْعَ وصورة التغييرات الأدبية ، هذه التغييرات البطيئة في حدوثها والتي تقررها جزئياً الحياة الداخلية للثقافة نفسها ، يفهم تماماً أن مثل هذه التغييرات لا يمكن أن تسيطر عليها ظروف الثورة السياسية ولا يمكن أن تقع تحت نير سلطانها .

قال تروتسكي :

إن الثورة الدراماتيكية للحياة السياسية لا بد من ان تؤثر على الصفة الداخلية للفنون عاجلاً أو آجلاً إلاّ انها ليس في مقدورها بأن تصرف النظر عنها نهائياً ، ولا يمكنها أن تملي إرادتها عليها كما وانها لا تستطيع أن تصدر مراسيم حتى ولا طلبات تتعلق بها . يؤكد لنا التاريخ ان تشكيل ثقافة جديدة ترتكز في مضمونها على الطبقة الحاكمة يتطلب ردحاً طويلاً من الزمن ولا تصل الى ذروة كمالها إلاّ في الفترة السابقة للإنحطاط السياسي لتلك الطبقة .

لا أعتقد ان فشل تروتسكي في توضيح ما يعني بقوله « ردحاً طويلاً من الزمن » له أهمية تذكر كأهمية تحذيره الضمني ضد كل فرضية تدعو الى أن الثقافة يمكن أن تُخلَق ويصبح لها كيان واضح بواسطة أمر رسمي أو مرسوم . ومن الأمور البارزة المهمة في الكتاب آخر جزء من العبارة التي تربط الانبثاق الثقافي بالإنحطاط السياسي ولا شك بانها فكرة متصلبة على صعيد الدراسات الجدية الحديثة ولكن تروتسكي لسوء الحظ لم يوضح هذه الفكرة بشكل متقن .

عند هذه النقطة في حواره تبدو الخطط الماركسية شاملة شمولاً تاماً

ومتفائلة . فطالما بقيت « الدكتاتورية البروليتارية » ضرورية فقلّما يوجد احتمال لبروز ثقافة بروليتارية واضحة إذ مما لا شك فيه انه لا توجد أوقات فراغ كافية ولا أوقات فائضة ، ولا راحة ولا تقاليد . ولكن عندما تتحسن ظروف الحياة المادية تحسّناً مرموقاً وعندما يخف التوتر الاجتماعي السياسي حتى يصل الى نقطة تبدأ عندها « الدولة البروليتارية » بان تضمحل حينئذ تتحسن الظروف التي يمكن فيها خلق ثقافة وتمتزج البروليتاريا بصورة متزايدة في مجتمع إشتراكي وتتحرر من ميزاتها الطبقية وحينئذ لا تسمى بروليتاريا . اذا وجد هناك أي عنصر تخيلي مزعج في هذه النظرة المستقبلية فهناك أيضاً إصرار على فكرة ماركسية هائلة تلك الفكرة التي أُهْمِلت بشكل واضح خلال عهد الستالينية المظلم القائل : بأن رسالة البروليتاريا التاريخية هي التحلل الذاتي : إسمعوا ما يقوله تروتسكي بشكل مقنع :

ان البروليتاريا كانت ولا تزال طبقة غير مالكة . ولقد منعها هذا وحده من ان تحصل على العناصر المميزة للثقافة البرجوازية تلك العناصر التي نفذت الى موجودات الجنس البشري لتبقى الى الابد . لقد توصلت البرجوازية الى السلطة مسلّحةً تماماً بثقافة عصرها بينما ، من الجهة الاخرى ، توصلت البروليتاريا الى الحكم مسلحة أيضاً إنما بالحاجة الملّحة للسيطرة على الثقافة .

ويتابع تروتسكي قائلاً بينما يستلزم التحول الى الاشتراكية مواجهة صعوبات من أنواع مغايرة للثقافة على الاجمال ومغايرة أيضاً لأي جهد لارتجال « ثقافة بروليتارية » بحالة خاصة . وبما أنه يجب ان يُنْظر الى هذا التحول كمرحلة تجريبية من مراحل التاريخ البشري حيث النضال

المكبوت في سبيل تقرير المصير فان ثقافة العهد الانتقالي يجب ان تتحرر من الأوامر الحزبية . ليست مملكة الفن بمملكة ينبغي ان يسيطر عليها الحزب » ما كان تروتسكي مستعداً بأن يقبل دون أي شرط وجهة النظر القائلة بان الثقافة مملكة من ممالك النشاط البشري مستقلة في حد ذاتها . وأصر تروتسكي بانها بالنهاية معتمدة على « قاعدة مادية » وانه يحق للحزب ان يتدخل ضد الهجمات السياسية المكشوفة ـ وخلال العشرينات من القرن العشرين أيّد تروتسكي المثقفين البلاشفة الذين تبنوا فكرة متسامحة نسبياً في ما يختص بالانحرافات الأدبية .

ولكن هناك ناحية أخرى في كتاب تروتسكي ـ ناحية تستمد من كل من النواحي العقائدية وعلى صعيد الأمزجة . ويمكنه ان يقول بكل مهارة بأن « العمل الفني يجب أن يحكم عليه بقانونه فحسب ، أي بقانون الفن » ثم أضاف « يمكن للماركسية فقط ان تفسر لماذا وكيف قد تولّد ميل للفن في فترة تاريخية معينة » . هذه العجرفة العقائدية التي لا تؤ يدها البراهين او الحوارات تدخل الى الأذهان إدعاءات مريبة لا حد لها تقول بأن « الماركسية لوحدها » يمكن ان تسبل نوراً على هذا او ذاك مع ان التفسير الواضح عادة لا يتبع تفسيراً كهذا . وهناك مصدر شخصي لعجرفة تروتسكي التاريخية هو شغفه بالروح الدينامية أو التغيير بشكل ثوري هائج . ويستمر تروتسكي بانتقاده، مع انه أحياناً بشكل ودّي ، كاتباً إثر كاتب وعملاً بعد عمل لافتقارهم الى التوتر الديناميكي والى القوة الدافعة في المدينة هذه الأمور التي تبدو في نظره من ميزات العصر الثوري ، فكأنه يبحث عن قصيدة أو رواية جوهرية تتضمن كل روح العصر . أيْ عمل من نوع جديد برّاق يحمل بين طياته كل القوى

التقليدية ويتلألأ فيه مجد وعظمة المستقبل .

أمَل برّاق ولكنه فاشل وخطر كما ظهر في النهاية . إذ لا بد ان يؤدي مثل هذا الطلب الى فراغ الصبر والضجر وهذا بدوره يؤدي الى عدم التحمل وعدم التحمل يؤدي الى حق الملك وهذا الاخير يقود الى السجن . ولا ينطبق هذا الأمر على الأقل على الأدب . لقد انزلق تروتسكي منحدراً من على هذا المقياس لرد الفعل . ولكن ليس في وسعنا إلاّ أن نلاحظ التشابك بين نظريته الادبية والنهاية المطلقة لمزاجه الأدبي وإذن فان « الانشودة الثورية » لا يمكن ان تكتب على الأقل بالشكل الذي اراده تروتسكي لها وبشكل حاسم وللأسباب التي يراها تروتسكي نفسه مؤدية الى التشكك بامكانية « ثقافة بروليتارية » لنفس هذه الأسباب يجب ان تكون هذه الانشودة مميزة ومعلمة وممجدة بواسطة العوامل الماضية . ومما لا شك فيه انها ستصاب بنوع من الصعوبات بسبب المتطلبات المستقبلية . فلا عجب اذن ان يقول الشاعر ميياكوفسكي في تَورية غير قابلة للترجمة وبشكل دعابة : بانه حتى وأكثر الموظفين الكبار ثقافة سيظل موظفاً « قوميساراً » .

وظمأ تروتسكي الشديد كان الى قصيدة أو أسطورة يمكنها أن تحتضن بشكل كامل روح العصر وتكشف عن تلك الروح ـ ولم يعرف مثل هذا الظمأ في أواخر كتابه إلى هراء خيالي يتحدث عن روح عصر لم يحن بعد ، عصر الانسان الشيوعي عندما « تتطور كل عناصر الفن المعاصر إلى الذروة » في هذا المستقبل المبارك اللاطبقي « سيصبح الانسان قوياً لدرجة لا تقدر ويصبح كذلك أكثر حكمة وتعقلاً . . وسوف يرتفع نموذج

الانسان العادي إلى مستويات ارسطوطاليس وغوتية أو ماركس-Aristotle Goethe, Marx ومن على هذه السلسلة سترتفع ذرىً أخرى » .

قبل بعض عقود قد يرى المعجبون بتروتسكي في الفقرة السابقة مثالاً على سمو وعظمة رؤى تروتسكي . أمّا الآن وفي هذا العصر الأقل تحمساً فقد يعجب المرء في ما يختص بالعلاقة بين الخيال البعيد والسياسات القاسية المتسلطة المستبدة التي مارستها البلشفية الحاكمة تلك السياسات التي مارسها تروتسكي منذ الثورة . وليس من المؤكد أبداً بانه سيأتي وقت يرتفع فيه « الانسان العادي الى مستويات ارسطوطاليس وغوتيه ومثل هذه الفكرة لن تبدو لنا جذابة حتى ولا محتملة .

تكمن قوة « الأدب والثورة ، بغض النظر عن تحطيمها لفكرة « الأدب البروليتاري » في الفصول التي تبحث في الكتّاب على انفراد بكونهم مسرعين ، ممزقين ، هازئين ، محبين ، معجبين وفارغي الصبر . ولقد نجح تروتسكي وهو يسجّل آراءه عن الشاعر الموهوب ميياكوفسكي اذ تمكن الى حدّ ما بأن ينزلق ليصل الى ما تحت جلد الشاعر ، وقد تمكن ولو بشكل تصوري ان يقدم نضال الشاعر ليصل الى علاقة عملية بين صخب النفس واضطرابات الحياة . ولقد لاحظ تروتسكي ضعف الشاعر وهو يبحث عن عبارات طنّانة ويصرف النظر عن الماركسية يحتفل بالاناشيد الشخصية وغير السياسية . قد يكون تروتسكي مخطئاً في تقديره أعمال ميياكوفسكي ولكن هذا لا يعد شيئاً مقابل مهارته النفاذة والحساسة عند الانتقاد .

يعتبر تروتسكي سيد الخلاصات القصيرة التي تستطيع بواسطتها

وبنظرة سريعة ان تتعرف على صوت الكاتب او روحه وهاكم ما كتبه عن الشاعر الفلاّح كليوف :

إنه يعدكم بالفردوس من خلال الثورة ولكن هذا الفردوس ليس إلاّ مملكة مزركشة مبالغاً فيها يسكنها الفلاّحون : فردوس ينتج القمح والعسل : عصفور يغني على الجناح المحفور للبيت وشمس تسطع بالوانها الماسية والذهبية الحمراء . وهذا الشاعر ، كليوف ، يدخل الى بيته الريفي الراديو والمغناطيسية والكهرباء بشيء من التردد وتظهر هنا الكهرباء وكأنها ثور عملاق برز من ملحمة ابطال ريفيين ويبدو بين قرينه طاولة محضرّة ملأى » . وهاكم ملاحظة اخرى عن أعمال اندري بايلي :

من البديهي بان الكلمة البشرية تعبر ليس فقط عن معنى ولكنها تتضمن ايضا قسيمة صوتية كبيرة ولولا هذه الصفة لما كان هناك تفوق سواء في الشعر أم في النثر ولن أنكر على بايلي الميزات التي تُعْزى له على هذا الصعيد . على كل حال لا تستطيع الكلمة مهما بلغت من القوة والرنين بان تقدم اكثر مما نضع فيها . يبحث بايلي مفتشا عن الكلمة المناسبة ، تماماً كما يبحث الفيثاغوريون عن الاعداد ، وعن معنى خاص ثانٍ محتمل لهذه الكلمة . ولهذا يجد بايلي نفسه في تيه من الكلمات . اذا وضعت اصبعك الوسطى على الابهام بالعرض ولمست جسماً فانك تحس وكأنه جسمان واذا كررت هذه التجربة تشعر بالغرابة اذ بدلاً من الاستعمال الصحيح لعضو الحس اصبح هذا الاحساس خاطئاً . تقدم اساليب بايلي الفنية نفس هذا الانطباع تماماً، فانها مجموعات خاطئة بشكل لا يتغير .

كلمة عن الكاتب الروائي بوريس بلنياك :

بلنياك واقعي وقوي الملاحظة بعينين ثاقبتين وأذنين مرهفتين . لا يعتبر بلنياك الناس والاشياء دائماً قديمين ومنهكين وانهم ليسوا دائماً نفسهم لذا فانه لا يرمي بهم على طريق الثورة بصورة فوضوية . انه ينظر اليهم ويحتضنهم وهم في طورهم النضر الفريد أي وهم في كامل حَيَويّتِهم وليس وهم اموات ثم يأخذ بالبحث عن النظام والاسلوب الفني من بين ثنايا الفوضى الثورية .

ينظر الى الثورة على صعيد محيطها الخارجي ، ومن خلفياتها وباحاتها ، في القرية وفي البلدان الريفية . فثورته هي ثورة بلدة صغيرة ، وانني لأقول ان مثل هذا البحث هو مادة حيوية أيضاً ولكن ما زال يتوجب عليك ان لا تتوقف في بحثك عند محيط الثورة فقط إذْ عليك ان تكتشف محور الثورة وهذا ليس في القرية ولا في المقاطعة لا مانع من ان تبحث عن الثورة في البلدة الصغيرة ولكن لا يمكنك ان ترسم لها صورة بلدة صغيرة .

قلّما يستطيع الانسان أن يجد إنْ في الأدب الماركسي أو في أية آداب أخرى الاستدلالات الواضحة البرّاقة للسمات الجلية المفصلّة لكاتب ما . وأخيراً أقول إن تروتسكي لم يتوصل الى العمل الحقيقي الجوهري عن النقد الأدبي أي تحليل وتقويم النصوص ، واعتقد ان ما قام به هو ليس إلاّ مقدمة للنقد ، فالاستدلالات المتعلقة بالكاتب ومقامه ككاتب ليست بذات اهمية كبيرة ، فالمادة الماركسية التي يستعملها ، تلك المادة اللينة ذات الرجع السهل السريع قد تشربتها وإمتلأت بها رُؤَى الناقد

فأصبحت وكأنها أداة إخبارية تحدثنا عن المواضيع التي يعالجها ولم تعد تفرض نفسها على تلك المواضيع .

كانت هذه الكتابات الأدبية هي سلوة تروتسكي أثناء عُطْله ، كانت إستراحة ممتعة له ممّا كان يعانيه من النضال لكسب السلطة ذلك النضال الذي تفشّى في صفوف القيادات البلشفية والذي تفجرّ سنة ١٩٢٢ ، بصورة واضحة . وحتى اواخر العشرينات من القرن كناً ما نزال نسمع إنتقادات ذات طبيعة قاسية بصورة متزايدة عن النظام البلشفي مع أن ذلك كان ينبثق من بين صفوف البلاشفة وفي السنين المتأخرة ولكن لم تكن هذه الأمور لتمر دون عقاب . (في آواخر العشرينات من القرن العشرين كان معظم التروتسكيين البارزين مشتتين ومنفيين في مجاهل سيبيريا وآسيا بنفس الطريقة تماماً التي استعملها القيصر لتشتيتهم وبعثرتهم قبل بضعة عقود .) . كتب أحد المعارضين للبلاشفة الشجعان الذي لا يعرف الخوف والمسمىّ مايزنيكوف ، يقول : « على السلطة السوفييتية أن تحافظ على سلك من الكبار المذمومين الخاصين بالحزب وعلى حساب الحزب كما كان الاباطرة الرومان يفعلون في ما مضى » . ولكن لا أحد اهتم بهذه العبارات التي تحمل بين طياتها نصيباً طيباً من الحكمة السياسية ، وبالاضافة الى ذلك فقد نال كاتبها كثيرمن التوبيخ واللوم من اللجنة المركزية للحزب . سنة ١٩٢٣ ، نشر تروتسكي مجموعة من المقالات أسماها « السبيل الجديد » وفيها ولأول مرّة حاول بصورة جدّية أن يكتشف المصادر الاجتماعية للبيروقراطية البلشفية وسجاياها . ويبدو اليوم ، أي بعد ما يزيد على نصف قرن أن هذا الانجاز معتدل حتى ويدل على نوع من الخجل مع انه يحوي في طيّاته تقريباً كل الافكار الاقتصادية

التي طورها تروتسكي فيما بعد في شن الهجوم على الستالينية . ولكن لا بد لنا ان نتذكر - وليس لنا أي اختيار غير هذا - بان تروتسكي قد تمسك باستراتيجية ثابتة للبقاء داخل حرم الحزب . وقد خشي بأن يكون الانتقاد الفظ بصورة زائدة سبباً لاثارة إجراءات مضادة متطرفة .

ومع ذلك فان « السبيل الجديد » باقٍ كوثيقة تاريخية هامة . وأهم ما في هذا الكتاب هو العلاقة بين البيروقراطية والديموقراطية ، كان تروتسكي قد تفهّم بشكل غريزي ما لم يستطع أن يصرح به بأن المركز الرئيسي لانتقاده يكمن في هذه العلاقة . اذ الآن وبنظرة الى الماضي يبدو جلياً أن اهمية كل الفئات المعارضة داخل الحزب البلشفي سواء كانت تروتسكية أم غير تروتسكية هو انها سلسلة من جهود ضعيفة لايقاف او ابطاء الميول الموجهة الى التوتاليرية .

منذ سنة ١٩٢٣ ، اصبح تروتسكي الزعيم السياسي للمعارضة اليسارية في روسيا وكذلك مرشدها الثقافي . وعندما شعر بالألم بانه قد أصيب في فترة تراجع اجتماعي مما جعله يحس بنوع من الفشل في ما يختص بمطالبه ومستوياته الهادئة المثالية ، أخذ يناضل بطاقات وجهود متقطعة متصّفة دائماً بموهبه خلاّقة وكبرياء شخصية . ولكن كفاحه تركز في أرض العدو وقد قبل الفكرة المدمرة للسيطرة البلشفية المحتكرة . ورأى تروتسكي أن الحزب أصبح الآن منقسماً الى ثلاث فئات لكل ميولها الخاصة : المعارضة اليسارية التي ينتمي اليها هو شخصياً وأقليّة ضئيلة تمثل فكرة الثورة البلشفية التاريخية وتقاليدها ثم المركز الستاليني وهو تبلور بيروقراطي يعكس انحطاط النخبة الشورية وتخلف المجتمع الروسي وهناك الجناح اليميني الذي يتزعمه بوخارين ، وقد مالت هذه الفئة الى

تقديم تنازلات جمّة لصالح الفلاحين الموسرين أو المتوسطي الحال وبذلك اصبحوا وكأنهم يرغبون في مصالحة الميول الفئوية الاقتصادية لأصحاب رؤوس الأموال التي أخذت تبرز في هذا العهد . لقد اقتنع تروتسكي بما لا يحتمل الشك بأن المركز الستاليني ثقافياً او سياسياً يفتقر الى قاعدة مستقلة وأن هذا المركز ، عاجلاً أم آجلاً ، سيخضع الى اليمين البوخاريني الأكثر تنظيماً رغم انه انحراف خطر . ويتركز النضال الرئيسي حسب حكم تروتسكي ، بين المعارضة اليسارية الثورية واليمين المصالح . انما يمكننا أن نرى الآن ان هذا الرأي خاطىء تماماً ويدل على سوء التقدير ولكن خطأ تروتسكي هذا يرتبط إرتباطاً وثيقاً مع تحليله الدقيق للبيروقراطية الستالينية الناهضة .

انّ الاجواء التي رآها توتسكي في روسيا بعد الثورة هي تلك الأجواء التي ادتّ الى الستالينية ويعني بذلك : الارهاق الاجتماعي والفقر المدقع والافتقار الى الثقافة وكبت الفكر المستقل وفقادن روح الثقة بين الموظفين كل ما ذكر جعل تروتسكي يفشل في حبه للاصلاح رغم مهارته الفائقة . ويجدر بنا ان نذكر هنا ان تروتسكي قد توقع بكل جلاء مثل هذه الظروف في السنين المبكرة حتى وفي سنة ١٩٠٩ .

قال :

عندما يرتفع منحنى التطور التاريخي يصبح التفكير الجماهيري أشد نفوذا وأشجع والمع . ولكن عندما يشير المنحنى السياسي الى هبوط يخضع التفكير الجماهيري الى نوع من البلادة ويتلاشى عند ذلك التطور والتصميم السياسي في مكان ما دون أن يترك وراءه أي اثر وتنمو البلادة لتتحول الى

وقاحة وتكشر عن انيابها مستهزئة بشكل واضح ومهين بكل محاولة تهدف الى التصميم المتطور الجدي . وعندما تشعر بانها مسيطرة على الموقف تلجأ الى وسائلها الخاصة » .

قبل عدد من القرون عرض الكاتب تسيديدس ، وصفاً كلاسيكياً عن ذلك : قال

كان الذين تمتعوا بأعظم الفوائد هم رجال ذوي ذكاء محدود . فادراكهم لتقصيرهم مقابل موهبة اخصامهم جعلهم يخشون بان تخدعهم الكلمات البرّاقة أو أن يُضللهم ذكاء اعدائهم ولهذا اندفعوا مباشرة لتحقيق اهدافهم ، بينما الآخرون الذين استهزأوا بخطط اخصامهم ولم يدركوا أبداً ما كانوا يبيتونه واعتقدوا بان العمل لن يُجْدي اذا كان الكلام كافياً فاستهانوا بقوة اعدائهم وعندما استفاقوا وجدوا انفسهم مهزومين مقهورين .

وحوّلت الاحداث آراء تروتسكي فأخذ يعاني آلاما فكرية بسبب تحققه من نظريته القائلة بان الثورة البروليتارية في بلاد متأخرة ستجد نفسها قد وصلت الى حالة من الفناء التاريخي وذلك اذا استمرت في حالة عزلة تامة . وقد عجز تروتسكي عن التكهن بالحالة المريرة التي ستؤ ول اليه مثل هذه الثورة . وكلما ازدادت براعة تروتسكي وزملائه كلما ازداد ، كما يبدو ، تقويضهم لمركزهم السياسي : اشهر زملاء تروتسكي على هذا الصعيد : بريوبرازنسكي ، وراكوفسكي .

كتب تروتسكي وزملاؤه كثيراً وقد عزّوا بروز البيروقراطية الستالينية ليس فقط لمجرد عوامل شخصية ولكن أيضا لظواهر اجتماعية عميقة

الجذور ويبدو هنا ان ما فقده تروتسكي وزملاؤه من الناحية السياسية كسبوه من ناحية الوضوح الثقافي :

قال تروتسكي :

بواسطة الاساليب اللاأخلاقية التي تحوّل الشيوعيين المفكرين الى آلات بكماء وقد تدمرت ارادتهم وأخلاقهم وعزتهم البشرية نجحت الدوائر الحاكمة الستالينية في تحويل نفسها الى أليكاركي (حكومة اقلية) لا يمكن ازالتها ولا يمكن انتهاك حرمتها . ومثل هذه الحكومة هي التي ستحل محل حكم الطبقة والحزب .

ولكي يُلقي نوراً على ما كان يحدث في روسيا خلال العشرينات من القرن العشرين اخذ تروتسكي يستعمل اصطلاحات جديدة لم تستعمل فيما مضى في روسيا انما جاء بها من اوضاع سابقة : واعتقد ان هذا مناسب الى حد ما . لقد استعار تروتسكي الاصطلاح « ثيرميدور » ، من تاريخ الثورة الفرنسية . فثيرميدور (تموز) هو الشهر في سنة ١٧٩٤ ، الذي تمكن فيه اليعاقبة (المحافظون اليمينيون) من الاطاحة بروبسبير ، فمن هذا نرى ان رد الفعل الثيرميدوري قد أنهى الفترة الراديكالية للثورة الفرنسية ومع ذلك فهذا لا يعني تصفية انتصاراتها الاجتماعية الاساسية أي تدمير الملكية وتمكين الاقتصاد البرجوازي ، وطبقاً لما يرتئيه تروتسكي قد بدأت الآن عملية مشابهة في الاتحاد السوفييتي : لقد هُزم ورثة اكتوبر السياسيون ولكن الأسس الاقتصادية الاجتماعية لدولة العمال ما فتئت باقية . وبعد بضع سنوات لخصّ تروتسكي « المعنى الاجتماعي للثيرميدور السوفييتي » قال :

لقد اصبح الفقر المدقع والتخلف الثقافي للجماهير متجسدين بشخصية خبيثة لحاكم يحمل بيده هراوة ضخمة . وبدلاً من ان تكون البيروقراطية خادمة للمجتمع اصبحت سيدة له . وبسيرها على هذه الطريق نالت ذروة العداء من جماهير الشعب على الصعيدين الاجتماعي والأخلاقي حتى لم يعد في وسعها ان تسمح بأي سيطرة سواء على نشاطاتها ام على دَخلها .

استمر تروتسكي في ما تبقى له من العمر في متابعة هذه المقارنات التاريخية الى حد انه اعتبر ان البلاد قد وصلت الى منعطف تحولت فيه من الثيرميدور السوفييتي الى البونابارتية ، وذلك عندما رأى التزايد المستمر للدكتاتورية الستالينية الشخصية . انها لحظة مذهلة للدمج او التشويش للفلسفة اللاهوتية المنطقية والتغلغل الثقافي . لقد انتشر حوار مبهم غامض بين التروتسكيين الذين اخذوا يتساءلون فيما اذا كان الثيرميدور قد انتصر في النهاية في الاتحاد السوفييتي . ولن يستغرب هذا الأمر على اولئك الذين اعتادوا على الافكار الماركسية بأن يعتقدوا بان هذا الحوار الذي لم يتناول اكثر من بضع مئات سيُثير ردود فعل قوية بين الفئات الماركسية المعارضة لقد أحس البوخارنيون وحتى بعض الستالينين بان ما اسماه بوخارين « الثرثرة الحاقدة على صعيد الثيرميدور » للمعارضة اليسارية تكاد تصبح حقيقة مرفوضة . أمّا الضليعون بتجارب الحياة فقد فهموا ان ما يريده تروتسكي لم يكن طيف دكتاتورية شخصية ستبرز بعد وقت قصير أو ان الوقت لم يحن بعد لمثل هذه الشخصية . ان ما يصبو اليه كان بالنسبة اليهم حقيقياً ومرعباً الا وهو عملية اجتماعية جامحة أي انحطاط للطاقة الثورية بسبب الارهاق والاخطاء وعدم الأهلية . ما

السبب الذي يمكن ان يُتَذَرَّع به لكون البلاشفة على ما هم عليه من افتخار بمذهبهم سيتمكنون من مقاومة مصير قد حلّ بثورات سابقة : المصير الذي يزيل مصير التخلف والتدهور والانهيار وتَنكّر ملطخ بالدماء للمثل العليا التي سفك خيرة الرجال دماءهم في سبيلها ؟

مــن ناحية تكتيكية قد يكون تروتسكي اخطـأ باستعمال هذه الاستدلالات التاريخية اذ ان نجاحها انحصر رئيسياً في إزعاج المذبذبين واغاظة الاخصام الذين لم يكن كثير منهم ليهتم بالثورة الفرنسية . فمن ناحية ثقافية دلت كثرة استعمال تروتسكي لاصطلاحي ثيرميدور والبونابارتيّة على قوة النضال الذي كان يمارسه ضد الخوالج المظلمة التي كانت تعتمل في فؤاده خوفاً من ان يكون كل شيء قد وصل الى نهايته بشكل هزيمة مريعة .

من ناحية واحدة يبدو ان الاصرار المُلِحّ على الثورة الفرنسية أثبت تماما بانه حاجز قوي امام كل تفاهم سياسي ، وادى ذلك الى طمس التجربة الثورية الروسية الفريدة . وادت الى سوء تقدير الاساليب القاسية التي تختلف فيها ثورة سنة ١٩١٧ ، عن سنة ١٧٨٩ . وخاصة (اذا عدنا الى الخلف الى منطق ماركس) لأنها قد مرّت عن النقطة الحرجة بأن أثبتت بان الثورة البرجوازية تستطيع ـ لفترة من الوقت على الاقل ـ ان تستمر وبكل نجاح دون حكم البرجوازية السياسي بصورة مباشرة ، بينما لا تستطيع الثورة البروليتارية بان تحقق اهدافها إلاّ اذا سيطرت سيطرة تامة على الدولة وذلك لأنها تفتقر الى الاملاك.. لقد قضى الثيرميدور على الجناح البرجوازي الفرنسي ولكنه لم يهدد املاك البرجوازيين أمّا

ستالين فقد قصّ الجناح الراديكالي للبروليتاريا الروسية (كما رآها تروتسكي) وترك بذلك البروليتاريا عارية من كل قوة دفاعية امام هجمات الدولة : وبعبارة اخرى : يمكن للاقتصاد البرجوازي ان يبقى حيّاً تحت الحكم الديموقراطي وتحت حكم دكتاتور قديم الطراز او في ظل نظام فاشستي ولكن الاشتراكية لا يمكن ان تُبْنى أبداً إلاّ كعملية بشرية حرة واعية كتطور شعبي للديموقراطية . هذه هي النقطة التي طمسها المنطق الثيرميدوري والحق يقال بان الفشل في تفهم هذه الحقيقة هو ما ادى الى استسلام الكثير من انصار تروتسكي وخضوعهم للأمر الواقع عندما قام ستالين بعملية التصنيع العظيم والشيوعية الاجبارية في الاملاك اواخر العشرينات من القرن العشرين .

على كل حال اذا قبلنا جدلاً بان المجتمع السوفييتي اخذ يُعاني من رد فعل ـ نوع جديد من ردود الفعل تميز به انحطاط دولة العمال ـ واذن فان اصحاب النظرية في الجناح الايسر المعارض امثال الماركسيين الكبار لا يمكنهم ان يتوقعوا بان مجرد الوضوح الثقافي (وهو اكثر المواضيع لمعانا) أو الجَلَد السياسي ومقدرته على الثبات (أي شجاعتهم الثورية المتصلبة) يمكنه ان يغيرّ الأمور بأي طريقة جوهرية . ولم يكن هناك الا سبيل واحد يمكن لتروتسكي ان يتخذه لانتزاع السلطة ألا وهو « انقلاب عسكري » منتهزاً فرصة شعبيته داخل صفوف الجيش الاحمر . أكانت هذه إمكانية حقيقية أو انها مجرد أوهام عشعشت في اذهان الملاحظين الغربيين ؟ لا نستطيع ان نجزم في أحكامنا . أمّا ما نعرفه تماماً فهو ان تروتسكي لم يفكر أبداً بهذا الأمر بصورة جدية ، لأن الانقلاب العسكري سيسارع في إنحطاط السلطة ذلك الانحطاط الذي طالما كافح ضده اذ انه لم يكن إلاّ

مجرد تغيير « بونابارت السوفييت » من ستالين الى تروتسكي . لقد كان تروتسكي رجلاً ذا عقائد مجبولة بدمه ، رجلاً عنيداً لا يعيش إلاّ بما يراه من الامور المشرقة لذلك فلم يكن من المتوقع ان ينحدر الى هذا الحضيض من المغامرات التي يعتبرها غير مجدية اما اللذين ادانوه لأنه لم يتخذ مثل تلك الخطوة فانهم كانوا اعجز من أن يتفهموا ذلك الرجل او يدركوا أفكاره .

إن البرامج التي تقدم بها تروتسكي وزملاؤه خلال العشرينات من القرن العشرين أكثر تعقيداً وعمقاً في ظروف ذلك الزمن من أن تسمح لنا بأن نقدم خلاصة عنها . ومع ذلك ففي مقدوري أن اسجل هنا بعض الافكار الاساسية .

بدأ تروتسكي ، كماركسي متشدد بالأزمة الاقتصادية التي خيمت على روسيا . وبعبارة تخطيطية ، عبارة أخذ علماء الاقتصاد يستعملونها في كل العالم متمثلين بتشبيه تروتسكي ، وصف تروتسكي المشكلة كانها مقص فعندما يتباعد حدا المقص كل عن الآخر يشبها ارتفاع اسعار البضائع المصنوعة وانخفاض اسعار السلع الزراعية . لا يستطيع الفلاحون شراء البضائع المصنوعة وليس هناك ما يحثهم على بيع منتوجاتهم واذا زاد انفراج الفسحة بين شفرتي المقص فانه ينكسر وبهذا يتعرض للخطر التحالف الهش بين المدينة والريف أي بين العامل والفلاح .

ناقش تروتسكي وزميله الاقتصادي اللامع بريئبرازينسكي ، هذا الامر قائلين انه بعد مدة طويلة لا يمكن حل المشكلة الا بواسطة تخفيض اسعار السلع المصنوعة ليتمكن الفلاحون من القيام بالمبادلات الاقتصادية

بشكل اوسع مع المدينة ويبادروا الى زيادة قوتّهم الانتاجية بواسطة التعاونيات وبواسطة عمليات تآليل (استعمال الآلة) الزراعية . ولكن دون شك تقتضي هذه العملية وقتاً طويلاً ولتحقيق مثل هذه العملية يتوجب التخطيط لمشروع شامل لاحياء وانماء الصناعة بأحسن الطرق العصرية وأحدثها ، لقد وضع الجناح الايسر المعارض خطة متقنة تستهدف تقوية القطاع الاشتراكي الصناعي ، رافعين القوة الانتاجية للعمل ، محسّنين مستوى معيشة العمال واعطائهم دوراً اكثر فعالية في الحياة الاقتصادية وَمَدّ يد المساعدة لفقراء الفلاحين لحمايتهم من « الكولاكس » ، اي اغنياء الفلاحين ، وقد اقترحت المعارضة رفع أجور العمال للحصول على رفع للمنجزات والانتاج وان يُسْمح للعمال بالحرية الكاملة للمساومة مع الادارات الصناعية كما ويجب تخفيض الضرائب غير المباشرة من على كواهل الفقراء مع رفع الضرائب المفروضة على الطبقة البرجوازية الغنية كما ويجب ان تُعفى من الضرائب ادنى طبقات الفلاحين وأن تُفرض ضريبة تصاعدية على باقي الفلاحين مع تحميل اغنيائهم (الكولاكس) أثقل اعباء الضريبة وان تتخذ خطوات حثيثة لاقناع الفلاحين تدريجياً وحسب رغبتهم وبدون أي اجبار بأن يشكّلوا تعاونيات جماعية .

على مستوى نظري قدّم (بريئبرازينسكي) المشابع للمعارضة أهم المشاريع الاقتصادية (مثل هذه المشاريع لم تكن دائماً مدعومة برضاء تروتسكي لأنه شعر ان زميله كان يميل اكثر من اللزوم لرؤية القرارات الاقتصادية بغض النظر عن علاقاتها السياسية) . قال بريئبرازينسكي بان على روسيا أنْ تواجه شدائد « التراكمات الاشتراكية البدائية » تلك

العملية أي عملية تكويم وتجميع رأس المال ، برأيه ، توازي تماماً التكويم والتجميع الرأسمالي الذي وصفه ماركس في كتابه « رأس المال » ومع ذلك فانهما يختلفان كل الاختلاف على صعيد الكمية . ولكن بسبب المستوى المنخفض للانتاج وعدم استعمال كثير من الآلات الصناعية وبسبب القاعدة الصناعية الضيقة نسبياً لاقتصاد الفلاحين فليس متوقعاً في مثل هذه الحالات بان الصناعات المؤممة يمكنها ان تنتج وَفْراً كافياً لتمكين هذا التكويم والتجميع الاشتراكي البدائي ، بأن يسير قدماً بسرعة كافية ، كما وانه لن يكون هناك أمل كبير في تدفق رؤوس الاموال من الخارج . في ابتداء عمليات التجميع الصعبة هذه يمكن سحب كميات كبيرة من رأس المال من مصادر من « خارج الحياة الاقتصادية المعقدة للدولة » ، وهذا يعني ان هذه المبالغ يُسْحب معظمها من اغنياء الفلاحين الذين كانوا قد زادوا ثراء في هذا الوقت واستعمل بريئبرازينسكي ، المفكر الجاد ، الاصطلاح الماركسي « استغلال » ليصف العلاقات المقترحة بين الكولاكس والدولة ، مع انه من حيث المبدأ رفض استعمال أي قوّة أو عنف او مصادرة كوسائل للتعامل مع الفلاحين وقد حبّذ الميل الى سياسة اقتصادية بحيث تمارس السلطة « سعراً يهدف الى استغلال الاقتصاد الخصُوصي » او ما دعاه بـ « التبادل غير المتكافىء بين الصناعة والريف » .

كان الخصم الرئيسي لبريئبرازينسكي (وبالطبع لتروتسكي ايضاً) هو بوخارين ، فبوخارين هذا بينما كان يعتبر التصنيع لازماً كل اللزوم للثراء الاقتصادي الذي كان يهدف اليه جميع الماركسيين ويعتبرونه ضرورياً للتطور الاشتراكي ، فقد قال بوخارين ان اقتراحات تروتسكي

ستضع حملاً ثقيلاً على عاتق الفلاحين مما ينتج وَضْعاً اقتصادياً غير معقول وعلى الصعيد السياسي غير مسموح به » وخشي بوخارين من أنّ سياسة تروتسكي ستؤدي الى كسر المقص ، فينفر الفلاحون ويرفضوا تسليم حبوبهم إلا بنوع من الاكراه وهذا النوع من المعاملة هو الذي جعل سنوات الحرب الشيوعية تقطر دماً وتتوالى فيها المصائب المرهقة . قال بوخارين « ليس التصنيع الاشتراكي عملية طفيلية في ما يختص بالريف ولكن ينبغي ان تكون وسيلة للتطوير الى الأحسن والى النهضة » واستمر بوخارين في نقاشه قائلاً انه يحبذ التطوير الصناعي الجديد ولكن ببطء اذ انه يعتقد ان هذه السياسة ستروق للفلاحين جميعاً وبهذا تخف الخصُومات الطبقية وينعم الروس براحة كلها سلام ومصالحة .

إعترف بوخارين ان سياسته المقترحة تعني بأن البناء الاشتراكي سيستمر بسرعة القوقعة . وأجاب تروتسكي منتقداً هذا الرأي بانه ما لم يكن هناك توسع سريع للموارد الصناعية فمن المستحيل الاستجابة لكل طلبات الفلاح الروسي وسيسفر عن ذلك إنزلاق تدريجي الى الخلف والى « ثيرميدور الفلاح » ويبدو لنا الآن ونحن نُعاود النظر الى هذه الآراء بان هؤلاء الاخصام الاشداء كانوا يتمسكون باصطلاحات اقتصادية اشتراكية مضللّة وليس هناك من شك بان كلا منهم قد رأى بكل وضوح نقاط الضعف في اقتراحات ومجادلات الآخر .

في هذه الاثناء رغم أن ستالين كان مؤيداً لبوخارين فانه اهتم بالدرجة الأولى بالقبض على أزِمّة السلطة دون ان يهتم بالخلافات النظرية . وكانت هذه الأمور الجدلية تشمل قرارات سياسية رئيسية ولكنها كانت تتعلق بأمور صعبة للغاية وكمنت في اصطلاحات وعبارات

غامضة مبهمة فلم يستطع ان يتفهمها اعضاء الحزب الموظفون ولم يفهم الفلاحون ما تدلّ عليه ، ولقد كان من السهل نسبياً على ستالين ومؤيديه ان يستغلّوا العناصر المناهضة للمذهب العقلاني الذي يرافق دائماً لحظات التأخر الاجتماعي . ولم يصعب على ستالين بأن يتهم الترتسكيين بخطأ التقدير والرغبة في استغلال الفلاح وساعده في ذلك ما استعاره من نقاط الجدل في حوارات بوخارين (ألَمْ يستعمل بريُبراز ينسكي نفسه كلمة « استغلال » ؟ رغم انه عنى بها الفكرة الماركسية الفنّية وهذا يختلف من حيث المعنى عن المعنى الذي استعمله ستالين وانصاره دون ان يهتموا باظهار الفرق بين المعنيين .

يبدو جلياً بعد نصف قرن انه اذا فَصَلْنا هذا الجدل عن القرينة الحزبية البلشفية الملوّثة فانها شكّلت جهودا مبكّرة لمجابهة ومكافحة المشاكل الصعبة التي تواجه الأمم المتخلفة الرأسمالية والاشتراكية وأيّاً كانت ـ وذلك عندما تريد ان تنشل نفسها الى عالم الاقتصاد الحديث ، مَنْ سيدفع التكاليف الاجتماعية الباهظة ؟ كم يجب ان يضحي الجيل في سبيل مستقبل غامض ؟ وفيما اذا كان الالتفات لطلب العون من الأمم المتطورة يكلف ثمناً سياسياً غالياً جداً ـ انها لأسْئِلة وتساؤلات عادية بالنسبة لعصرنا وقد كانت متوقعة كثيراً في المناقشات البلشفية أثناء العشرينات من القرن العشرين . لقد استهزأ تروتسكي وزميله بريُبرازينسكي بالنظرية الموضوعة حديثاً عن « الاشتراكية في بلد واحدة » تلك النظرية التي كان ستالين وبوخارين يعبثان بها ، كانت المعارضة اليسارية على حق في الحاحها بان هذه النظرية تعارض كل المعارضة الافكار الاساسية لمذهب لينين ، مع ذلك فقد اجبرتهم الحقيقة المؤلمة

لوضعهم بأن يمعنوا النظر بالاختيارات الاقتصادية التي من ضمنها الفرض المحتمل بكوّن الاتحاد السوفييتي لن تنقذه ثورة عالمية . كيفما كان الأمر فقد كان عليهم ان يواجهوا المشكلة المرّة ألا وهي ما يتوجب على الماركسية الحاكمة ان تفعل اذا كان عليها ان تخلق ثروة اقتصادية بدلاً من البدء بأساس من الثروة الاقتصادية . هل يمكن انجاز ذلك دون إنتهاك حرمة الافكار الاشتراكية الاساسية ؟ وقد حذّر مارتوف وآخرون من حزب المنشفيك بان ذلك لن يحصل . لقد حاوروا قائلين بان (اشتراكية فقر) ستؤدي دون شك الى انواع جديدة من الاستغلال وانواع جديدة من الاتوقراطية واضطر البلاشفة الآن ان يواجهوا المشكلة العويصة التي طالما تجاهلوها معتبرين بانهاليست إلاّ أوهام المنشفيك ، وفي المؤتمر الثاني عشر للحزب سنة ١٩٢٣ ، حدثت مجابهة بارزة الاهمية يذكرها دوتشر ، في « سيرة تروتسكي » قال : اثناء النقاش قال كراسين ، موجهاً الكلام مباشرة الى تروتسكي صديقه القديم فيما اذا كان قد فكّر في التعقيدات التي ستنتج في النهاية عن « التجميعات الاشتراكية البدائية » وأضاف كراسين مشيراً الى ان الرأسمالية القديمة لم تخفّض أجور العمال فحسب او تعتمد على تعفف المتعهدين من ان يقترحوا « التجميع » بل ايضا استغلت المستعمرات ونهبت قارات برمتها ودمرت الفلاحين الملاّكين في انكلترا وهدمت اكواخ الحائكين في الهند حيث شُيّدت على عظامهم صناعة النسيج . هل سار تروتسكي بهذه المقارنة الى نهايتها المنطقية ؟

لقد تقدم كراسين بهذا السؤال دون أي قصد سيء . لقد طرح السؤال من ناحية مسؤولياته : اذ انه كوزير (قوميسار) للتجارة الخارجية وبهذه الصفة حاول ان يقنع اللجنة المركزية بحاجة البلاد الملحّة

للكثير من التجارة الاجنبية وان عليهم ان يقوموا بتنازلات كثيرة لتشجيع رأس المال الاجنبي . ولقد ألحّ على المؤتمرين بان يحاولوا جذب القروض الاجنبية وتشجيعها لأنهم بصفتهم بلاشفة لا يمكنهم ان ينتزعوا املاك الفلاحين ولا ان ينهبوا المستعمرات وهذه حقائق مسلّم بها ، واضاف بان رؤوس الاموال الاجنبية قد تساعد روسيا في الاستمرار بعملية التجميع البدائية وتستطيع ان تتجنب الاهوال التي رافقت عمليات التجميع في الغرب ويظهر ان البلاشفة في هذا الوقت قد وجدوا انهم قد فشلوا في استمالة القروض الاجنبية بشروط مقبولة ولهذا فان السؤال الذي طرحه كراسين احتفظ بكامل قوته : من أين ستأتي الموارد اللازمة للتجميع السريع ؟ عندما تكلم كراسين عن « نهب الفلاحين » و « العظام البيضاء » للحائكين الهنود سكان الاكواخ قفز تروتسكي واقفاً على قدميه محتجّاً بانه « لم يقترح ابداً أي شيء من هذا القبيل » .

وبالفعل لم يقترح تروتسكي أي شيء من هذا القبيل . ولكن سؤال كراسين المتصل بمناقشات بوخارين أثار صعوبات جمّة احاطت بمركز تروتسكي وعرّضته للتزعزع . فلو سلمنا بادعاء تروتسكي بشرعية جعل الحياة الاقتصادية الروسية ديموقراطية بكل معنى الكلمة وان هذا قد يؤدي الى نمو في الانتاج وقوته (لقد اصبحت الديموقراطية الروسية ضرورة اقتصادية كما قال تروتسكي) ولو سلمنا بان الاقتراحات الاقتصادية لحزب المعارضة اليساري سيؤدي الى تحسين الانجازات الاقتصادية دون كسر العرى بين المدينة والريف بشكل نهائي . فاذا سلمنا بكل هذا واكثر منه فما يمكن ان تكون النظرة المستقبلية للنظام البلشفي اذا لم يكن هناك ثقة في الغرب وان المساعدة سوف لا تأتي من هذه الجهة ،

هذا رغم جميع الحثّ والارشاد الاستراتيجي من موسكو ؟ .

ولم يكن في مقدور تروتسكي ان يجيب عن هذا التساؤل مكرراً ما قاله لينين بانه اذا لم تنتصر الثورة في الغرب « فان فناءنا محتم » . لا شك ان هذا الجواب مقبول كاقتراح نظري عام لعصر تاريخي كامل ولكنه ليس عملياً أبداً اذا اردنا ان نجعله أساساً لسياسة حكومة تسيطر على ملايين الناس . وتحدّى تروتسكي كل اخصامه وبهذا لم يبق امامه أي مجال للتراجع مهما كانت الظروف لا تراجع حتى ولو اضطر الحزب البلشفي ان يتحمل العبء منفرداً . واذا اخذنا بعين الاعتبار سيرة تروتسكي كما سجلها دوتشر فلا يمكننا ان نتغاضى عن هذه الانتقادات .

ولكن دراسة حديثة قام بها الاستاذ « ريتشارد دي » ، بخصوص سياسات تروتسكي الاقتصادية تبين بكل وضوح ان تروتسكي بالاضافة الى اقتراحاته بالتصنيع في الاتحاد السوفييتي واعادة انعاش سياسة لينين الثورية في كل ارجاء العالم بالاضافة الى كل هذا فقد حاول تروتسكي بكل جهده بان يواجه الصعوبات الاقتصادية الملحّة التي تجابه البلاد بوسائل واقعية . ومن الواضح بانه شعر بان خطة بريئُبرازينسكي لِـ « التبادل غير المتكافىء » بين الريف والمدينة لن يكون كافياً لتقديم « التجميع الاشتراكي البدائي » الضروري او ان ذلك قد يكون سبباً لبروز صعوبات جمّة (الفلاحون وثوراتهم الخ) تلك المشاكل التي ما انفك حزب بوخارين يتكهن بحدوثها . ولقد فهم تروتسكي ايضاً بان الاقتصاد الروسي لا يمكنه ان يقدم فائضاً كافياً من موارده الخاصة لتنفيذ التصنيع الذي كان يتوخاه . ونتيجة لذلك التفت تروتسكي الى الغرب

لتنفيذ مقترحاته الاقتصادية . وقد اعتقد بان الغرب سيكون راغباً بان يمدّ النظام الروسي المستقر برأس المال الذي كان النظام بحاجة ماسة اليه ، وفي هذا السبيل كان تروتسكي مستعدا بان يقدم امتيازات خاصة للمصالح الغربية تماماً كما رغب لينين قبل بضع سنوات مع ان مساعيه قد باءت بالفشل ، واسمعوا الآن ما قاله الاستاذ « دي » .

سنة ١٩٢٠ - ١٩٢١ اعتقد تروتسكي ان روسيا أفقر من أن تستطيع جذب رأس المال الأجنبي على مقياس كبير . منذ ذلك الوقت كان الانتعاش قد كمل ، وسيرافق كل نضال امبريالي كبير منافسة عنيفة للحصول على المواد الخام واحتكارها ، أمّا وقد اخذت امريكا تتدخل بمصادر التموين الاوروبية الثابتة فقد بدا من المعقول الافتراض بان روسيا تستطيع الآن ان تقدّم بديلاً مرموقاً . قال تروتسكي وهو يوجه كلمة الى العمال الالمان في تموز سنة ١٩٢٥ ، « لقد كنّا نحن انفسنا، حذرين للدرجة القُصوى ويجدر بي ان اقول « حذرين اكثر من اللازم » في ما يختص باتفاقات الامتيازات . لقد كنا في حالة شديدة من الفقر والضعف . لقد كانت صناعتنا واقتصادنا بكامله في حالة تدمير كامل وكنا نخشى بان ادخال رأس المال الاجنبي سيعمل على نسف اساسات صناعاتنا الاشتراكية التي كانت لا تزال ترزح تحت حالة سيئة من الضعف والوهن ، وما زلنا متخلفين من الوجهة الفنّية . وما زلنا نهتم باستعمال كل وسيلة ممكنة لتسريع تقدمنا الفني . ومما لا شك فيه بان « الامتيازات » هي واحدة من الأمور التي يمكنها ان تساعد في ذلك . وبسبب هذا الدعم الاقتصادي فاننا الآن نميل بشكل اقوى منه قبل بضع سنين لأن ندفع لرؤوس الاموال الاجنبية مبالغ لا بأس بها لمشاركتها لنا في تطوير قوانا

الانتاجية . اننا في حاجة ماسة للقروض ونحتاج الى الامتيازات ايضاً لكي نسرع في التنمية الاقتصادية وبهذا نسرع في تحسين مستوى معيشة الجماهير .

وبعد ذلك بوقت قصير وبمناسبة الاستعداد لحفلة للمؤتمر عبر تروتسكي عن آرائه بصورة متقنة ونظّمهابشكل بيان نظري قال :

اننا بالفعل قد اسدلنا ستاراً خلف وجودنا السياسي المغلق واصبح الآن يَرْتبط بصورة متزايدة بالاسواق الأوروبية والعالمية وهذا دون شك أهم خط يسير عليه النمو الاقتصادي لروسيا . اما اذا انحدرنا بمسألة التطور وحصرناها بالعلاقات بين البروليتاريا والفلاحين في الاتحاد السوفييتي واذا اعتقدنا بأن المناورات السياسية الصحيحة تحرّرنا من الاعتماد على الاقتصاد العالمي فهذا يعني اننا سنسقط في حدود قومية مريعة وقال أيضاً :

علينا ان نجدد رأس مالنا الاساسي الذي حالياً يعاني ازمة حادة . ان كل من يتصور اننا نستطيع ان نبني كل معداتنا واجهزتنا في السنين القادمة او حتى ان نبني القسم الاكبر منها فانه دون شك يحلم . ان تصنيع بلادنا لا يعني خفض علاقاتنا مع الغرب انما بالعكس تماماً يعني نمو تلك العلاقات مع العالم الخارجي وهذا يعني زيادة اعتمادنا على السوق العالمية وعلى رأس المال العالمي وعلى الاجهزة العالمية الفنية والاقتصاد العالمي .

واختصر الاستاذ « دي » هذا الوضع قائلا : « بتطور التجارة الاجنبية مع الغرب تكون روسيا قد توفقت واستعدت في نفس الوقت

للثورة العالمية . ستنمو روسيا في كيان اوروبا وهذه المعايشة الاقتصادية المتكافئة سيسفر عنها بعد ذلك وضع سياسي بشكل اتحاد اشتراكي عالمي .

وبينما كان تروتسكي يعمل على تكوين هذا الاسلوب المتقن لخطط ثورية باسلة انما غير مؤكدة عملياً هاجمه كل من ستالين وبوخارين ليس فقط « كاستاذ تصنيع فوق العادة » ولكن ايضاً لالتفاته المتطرف للغاية نحو الغرب . اما بالنسبة لستالين فلم يكن هذا إلا مجرد اظهار وتمكين لزعامته الحزبية اذ ان ذلك يروق للغطرسة التي تخيم على الكبار في الحزب . ولكن ربما كان بعض ما فيه يظهر ما يُتَوَّقع من سياسته المستقبلية ، التي ستضغط على امور التصنيع بغض النظر عن الاساليب الاشتراكية ورأس المالية وقواعدها . أما معارضة بوخارين لخطة تروتسكي على صعيد العلاقات الاقتصادية الحذرة مع غربي اوروبا فانه لصعب بان تُفْهم تماماً لأننا قد نعتقد بان فكرته عن « سرعة القوقعة » داخل روسيا يتماشى مع الاستدانة من المصالح الغربية لاصحاب رؤوس الاموال والامتيازات التي يجب ان تمنح لهم ، ربما حدث ذلك لأن بوخارين حليف ستالين السياسي وكان عليه ان يسير حسب التيار .

يمكننا ان نقول انه حتى وبينما كان تروتسكي يصقل فكرته الثورية الاساسية فقد فهم تماماً بان عليه ان يتخذ اجراءات لمكافحة الصعوبات الاقتصادية الروسية وان يشجع القروض الاجنبية التي قد تخفف من الصعوبات الناجمة عن عمليات التنمية وذلك بانتظار حلول الساعة السعيدة ألا وهي « الاتحاد الاشتراكي الاوروبي » . وهذا نوعاً ما يشابه

في هدفه برنامج بوخارين . فكل منهما وافق على الاستمرار في السياسة الاقتصادية الجديدة انما اختلفا على صعيد أي قطاع اقتصادي يجب ان يمنح مساعدة اكبر . وقدم كل منهما برنامجا اقل تطرفاً واكثر رأفة وأكثر قرباً للقواعد السياسية الاخلاقية الحية للاشتراكية التقليدية مما قدّمه ستالين بعد ان انتزع زمام السلطة .

في مثل هذه الظروف قد نستغرب متسائلين اما كان هناك نواة من حكمة في رأي بوخارين لنوع من الاقتصاد الممتزج الذي يسيطر عليه البلاشفة اذا استطعنا ان نفصل ذلك عن تحالفه السياسي مع ستالين الذي لا يمكن تبريره ؟ أما كانت هذه الفكرة سبيلاً لجعل النظام المنعزل وغير المألوف مقبولاً عند جماهير الفلاحين وبهذا يُتجَنَّب او يُخَفَّفَ الظلم ؟ أَلَمْ يكن التطور الاقتصادي المعتدل المصحوب بتطوير ديموقراطي - جزئي على الأقل والمقرون ايضاً بامتيازات اقتصادية لرؤوس الاموال الاوروبية مقابل الاستدانة من الغرب وترحيب جزئي بالديموقراطية الاجتماعية الاوروبية أَلَمْ يكن كل هذا نافعاً لرفع او على الأقل لتخفيف الآلام المبرحة التي كانت روسيا القرن العشرين ترزح تحت اعبائها ؟ قد يتطلب مثل هذا السبيل من البلاشفة بان يعترفوا بانهم بدلاً من ان يشيدوا « الاشتراكية في بلد » قد ركزوا على سياسة الاعتراف بالسخافة الاقتصادية والاشتراكية لتلك الفكرة - كأن يتعهدوا - كمقدمة للاشتراكية -تعصراً (تجديداً) تدريجياً تحت سيطرة الدولة مع تقديم امتيازات للسوق . واهم من كل هذا ، يعني مثلُ هذا السبيل الاعتراف بان فكرة الاشتراكية نفسها التي بدأوا بها هي فكرة صلبة جافة غير عملية وانها في حاجة الى التعديل لتصبح فيما بعد تسمى « اشتراكية السوق » .

اننا لا نستطيع ان نجزم تماماً اذا كان مثل هذا السبيل ناجحاً بالنظر الى الصعوبات الاجتماعية الضخمة في الاتحاد السوفييتي وجو الاضطهاد السياسي والاعتداءات المسَلَّطة من قوى اصحاب رؤوس الأموال في الخارج . ان الصعوبات التي كان تروتسكي ومشايعوه يجادلون لينقذوا البلاد منها كانت حقيقة واقعية . ولكن لو اعدنا النظر قليلاً الى الماضي لرأينا ان كلا من تروتسكي وبوخارين ، بالرغم من التباين الواسع بين رأييهما ، قد كانا يدعوان الى نوع من الاعتدال البلشفي في السياسة الاقتصادية . لو انتصر تروتسكي في تنفيذ افكاره لما امكن صيانة « تجميع اشتراكي بدائي » بهذه الصرامة كما تصوّر بريئبرازينسكي اذ لو حصل ذلك لكان من الضروري الاهتمام برغبات الفلاحين ومقاومتهم . ومن الناحية الأخرى لو انتصرت آراء بوخارين لأصبح من غير المحتمل التنازل لدرجة كبيرة للفلاحين كما ارتأى بوخارين لأن ذلك سيهدد استقرار الحكم البلشفي . اما ما حصل بالفعل فكان صارما ومخيفاً وراديكالياً اكثر بكثير مما حلم به كل من تروتسكي او بوخارين . فقد طرح نظام ستالين التوتاليري جميع العقائد والتحديدات لكلا « التجميع الاشتراكي البدائي » أو « التجميع البدائي رأس المالي » ، لقد حوّل النظام الستاليني الدولة الى عامل خالٍ من الرحمة للاستغلال لقد قام النظام بِحَرْب ضد المجتمع » وخلق بذلك نوعاً من طغيانٍ صناعي شرقي جرّ جزءاً - ليس إلاّ جزء - من الاقتصاد الروسي الى عصر حديث بينما شد بروسيا الى الوراء اجتماعيا نحو نوع من الاستبداد الذي لم تعهده البلاد حتى في احلك واقسى عهود القياصرة .

بعد بضع سنين وبعد أنْ نال ستالين الظفر الكامل ووافق عدد لا

بأس به من الاحرار الغربيين على قبول طلباتهم غير المحرجة عندها اصبح من المألوف القول بان ستالين بعد أن توصل الى برنامج تصنيع متطرف قد اختلس « رعود تروتسكي » لقد تجاهل هذا النوع من الحوار نقطة كان تروتسكي يعتبرها دائماً بالغة الاهمية ألا وهي : ان المهم هنا هو ليس فقط التصنيع نفسه انما التصنيع على صعيد الاهداف الاشتراكية وان يُتَوَصَّل اليه بوسائل اشتراكية . ويجدر بنا القول هنا بان التصنيع ممكن التحقيق في أي بلد متخلف اذا استعملت فيه قوة كافية دون أي رحمة وذلك بارهاق عدد وافر من الشعب . كان هذا الأمر مفهوماً تماماً . انما ما كان يهتم به تروتسكي على صعيد برنامجه التصنيعي فهو ان« التصنيع وسيلة لرفع القيمة المعنوية للمجتمع البروليتاري » وبهذا ينتقل الى مملكة الاشتراكية المنسجمة : اما تصنيع ستالين فكان يختلف عن هذا كل الاختلاف لأن التصنيع الذي انجزه ستالين اعتمد على الاستغلال الاجتماعي والى الضغط على الطبقة الكادحة بشكل ليس له نظير في الماضي حتى وليس له نظير في الثورة الصناعية في الغرب . لقد حققّ ستالين برنامجه التصنيعي بتدمير الحياة السياسية الذاتية ، او ما كان قد تبقى منها ، وفرض ارهابا توتاليرياً . لقد اسفر عن ذلك اختلال في التوازن الاقتصادي وفساد اجتماعي على نطاق واسع ووحشية سياسية متطرفة . لقد كلف هذا البرنامج التصنيعي ازهاق ارواح الملايين في الريف وارهاباً لم يعرف له مثيل في مخيمات عمل العبودية .

لا ، لم يكن هذا أية « رعود » او ما يماثلها مما اقترحه تروتسكي او أي زعيم بلشفي آخر في العشرينات من القرن العشرين . وانه لحري بنا ان نقدم في ما يلي ملاحظة ادلى بها احد مؤيدي تروتسكي ماكس شختمان ،

إن قوة العمال في روسيا حتى بالشكل الملطف الدكتاتوري لحزب البلاشفة ظهرت كعقبة كأداء في وجه التجميع رأس المالي وذلك من جهة لأن التجميع الاشتراكي كان أمراً مستحيلاً في بلد متخلف منعزل ومن الجهة الأخرى فان قوة العمال لا تليق بأي نوع آخر من أنـواع التجميع . واذن فمن الضروري القضاء على هذه القوة وتشتيتها .

أي تقضي عليها دكتاتورية ستالين .

بالنسبة لما ارتآه تروتسكي لا يمكن فصل الاقتراحات التي قدمتهـا المعارضة اليسارية للتخطيط الاقتصادي عن طلباتهـا على صعيد انعـاش واحياء ديموقراطية الحزب ، على اننا قد نصفح عن الأجيال التالية اذا اعتبر بعض منها قضية الديموقراطية أمرا صعباً محرجاً واعتبر البعض أيضاً انتقاد تروتسـكي لستالـين باستمـرار كمساهمـة عظيمـة للفـكر والسياسـات العصرية . لقد بدأ هذا الناقد الفذ (تروتسكي) حياته الانتقادية سنـة ١٩٢٣ ، واستمر حتى موته سنة ١٩٤٠ ، وقد شمل في انتقاداته ومحاولته الاصلاحية كل ناحية من الحياة الاجتماعية ، وامتد هذا النقد من الاهوال الدامية التي نتجت عن جعل ستالين جميع الأراضي مشاعا باستعمال القوة الى الإتلاف البيزانطي « لمذهب الشخصية » ومن السياسات التـي خيّم عليها الظلام في ما يختص بالاجهاض والمواقف البربرية بالنسبـة للحياة الثقافية ومن المغالاة في التعصب القومي السوفييتي الى الانغماس الماكر في معاداة السامية ، فهل هناك مثال آخر في تاريخ كل العالم عن عقل جبار يوجه كل اهتمامه وباصرار عجيب وبكل حرارة نابعة من صميم قلب ذكي لفضح الادعاءات المزيفة لنظام يدين له بالاخلاص ملايين الناس في جميع ارجاء العالم ؟ خلال عمليات التطهر هذه والهجمات البطولية ليس هناك

أي شك بان تروتسكي وقع في بعض الاخطاء ولكن فلنذكر انه على اساسات هذه الاخطاء الأولية طالما بنيت التحاليل المتأخرة . ومع ان طلاب ومؤيدي التوتاليرية المعاصرين قد يختلفون إختلافاً بيّناً عن تروتسكي فيكاد يكون كل واحد منهم مديناً لتروتسكي بدين عظيم اذ انه كان اول من كافح التوتاليرية الستالينية ومشاكلها ، كان هو الذي عانى من الهزء والسخرية ما عانى ليس فقط من بعض زملائه المسافرين الذين قد عماهم السكر ولكن ايضاً من بعض الاحرار المفتونين الذين لم يتورعوا عن رفض رؤية الحقائق البسيطة على صعيد الستالينية وذلك لشدة عنادهم وتعاميهم عن رؤية تلك الحقائق التي كان يكشف عنها تروتسكي .

وعليّ ان اوضح هنا ان النقاش داخل الحزب قد اختفى تماماً واليكم ما كتبه تروتسكي في السنين الأولى للكفاح الحزبي : قال :

في هذه الاوقات لم تعد الجماهير الحزبية هي التي ترشح وتنتخب اللجان القطرية واللجنة المركزية . على العكس من هذا فان السكرتيرية العليا للحزب بصورة متزايدة هي التي كانت تنتخب عضوية الاجتماعات والمؤتمرات التي اصبحت المشيرة التنفيذية لأصحاب المراكز العليا .

والآن وقد تأخر الوقت كثيراً التفت تروتسكي الى فكرة الاشتراكية المشاركة التي كان لينين قد ذكرها في كتابه « الدولة والثورة » تلك الفكرة التي لم تلعب دوراً فعّالاً في اوائل العشرينات من القرن العشرين على صعيد الحياة السياسية لتروتسكي او لأخصامه .

كتب تروتسكي سنة ١٩٢٥ : علينا ان لا نشيد الاشتراكية على الطُرق البيروقراطية ، علينا ان لا نخلق مجتمعاً إشتراكياً بواسطة اوامر ادارية اذ ان الاشتراكية لا يمكن ان تبنى إلاّ عن طريق المبادرات العظمى والنشاط الشخصي والتصميم والمرونة في ارادات وآراء الملايين من الجماهير اولئك الجماهير الذين يشعرون ويعرفون بان هذه الأمور من اختصاصهم واختصاصهم فقط » .

وعندما اقترح تروتسكي اعادة الحرية في المناقشات داخل الحزب البلشفي لم يتخذ الخطوة التالية لاعادة الحرية الكاملة للاحزاب التي اعتبرت غير قانونية ولا شك باننا ندينه هنا لهذا الفشل .

سنة ١٩١٧ وقبل بضعة اسابيع من ثورة اكتوبر عندما انتخب تروتسكي رئيساً لسوفييت بتروغراد كان قد تَعهّد : « سنسير في العمل في سوفييت بتروغراد بروح القانون وباعطاء الحرية الكاملة لجميع الاحزاب . وقبيل وفاته كتب :

« في البدء تمنىّ الحزب بكل رغبة بان يحافظ على الحرية الكاملة للنضال السياسي داخل الاطار السوفييتي وان يصون تلك الحرية ، ولكن الحرب الاهلية ادخلت تعديلات خشنة وقاسية لم تكن بالحسبان . فقد حرم من هذه الحريات احزاب المعارضة واحدا أثر آخر (المنشفيك والحزب الراديكالي الخ) وليس هناك من شك بان هذه الاجراءات منافية تماماً لروح ديموقراطية السوفييت ولقد اعتبر زعماء البلاشفة هذا الاجراء ليس كمبدأ من مبادىء البلشفية ولكن كعمل عرضي موقت للدفاع عن النفس » .

ويبدو ان الحقيقة اكثر تعقيداً مما اعترف به وبرره تروتسكي . ففي نهاية العشرينات من القرن العشرين قد لا نعتبر اصرار البلاشفة بان حزباً واحداً فقط هو المعترف به قانونياً كَمَبْدأ لهم ولكن دون شك يجب ان يعتبر هذا اعمق من مجرد تبرير « للدفاع عن النفس » . حتى وفي « السبيل الجديد » يكتب تروتسكي كناقد ممتاز للميول القمعية للستالينية :

« نحن الآن الحزب الوحيد في البلاد وفي هذا العهد عهد الدكتاتورية البروليتارية لم يمكن ان يكون هناك حكم آخر » ، ولْنُصغِ الآن الى النكتة المريعة التي طالما رددها بوخارين مسانداً رأي تروتسكي قال : في الاتحاد السوفييتي احزاب عديدة واحد منها يمسك بزمام السلطة والاخرى كلها في السجن لم يكن هناك ضرورة للبلاشفة لاعتبار مبدأ « المجتمع ذو الحزب الواحد اذ بالحقيقة اصبح هذا الأمر ممارسة عادية لهم وأمراً مسلماً به » .

ان كل ما اختبرناه في بلادنا يجعلنا نشك في حوار تروتسكي الذي جعل محوره « الضرورة » لتبرير قمع الاحزاب المتمردة . وحتى لو سلمنا لحد ما برأي تروتسكي بان متطلبات الحرب القاسية الاهلية هي التي دعت الى اتخاذ مثل تلك الاجراءات فعلينا ان نتذكر ، على سبيل المثال ، الوثائق المقنعة التي سجلها ليونارد شابيرو ، في كتابه « أصل الاتوقراطية الشيوعية » اذ فيه تقرير عن الانتهاكات المتكررة التي ارتكبها النظام البلشفي لحرمات الديموقراطية فيما بين سنة ١٩١٧ - سنة ١٩٢٢ ، ولا يمكن ان نعزو عدداً كبيرا منها الى ضغوط الحرب الاهلية . على كل حال فان قرار تروتسكي لتكريس نفسه خلال النضال الحزبي في

العشرينات من القرن العشرين الى الالحاح بطلب الديموقراطية داخل الحزب البلشفي اقول ان هذا الالحاح جعله في موضع تناقض شديد .

فالديموقراطية المفروضة داخل حزب حاكم ، وخاصة اذا كان ذلك الحزب يسيطر على مجتمع اصبحت جميع املاكه ملكاً للدولة ، مثل هذه الديموقراطية مستحيل إلاّ اذا امتدت خارج حدود الحزب ويظهر من هذا ان ما كان تروتسكي يطلبه هو احتكار السلطة واحتكار الحرية للبلاشفة ، وقد يكون هذا ممكنا لفترة قصيرة ولكن ليس لمدة اطول .

ليس هناك ما يسمح لنا ان نفترض انه لو أثار تروتسكي الطلب لديموقراطية تعدد الاحزاب لكان هذا معززا لقضيته ولاعادة تأسيس شَعْبيته . واذن ولهذا السبب فعلى تروتسكي ان يساهم في تحمل المسؤولية . لم يعد هناك مجموعات شعبية سياسية نشيطة او علنية في الاتحاد السوفييتي ، لقد دمرّها النظام البلشفي . وكنتيجة لهذا لم يبق هناك مَنْ يمكن ان نرجع اليه اللهّمّ إلا الحزب الحاكم ، لا أحد هناك ما عدا العمال المرهقين وقد زالت اوهامهم وما عدا البقايا المبعثرة للاحزاب الأخرى التي كان بعضها يخشى ان تبتلعه النضالات البلشفية الداخلية والبعض الاخر يتمنى لو يحل الوباء على جميع البيوت : تروتسكية كانت أم بوخارنية أو ستالينية . ان طلباً بالسماح بتعدد الاحزاب كان سيجعل تروتسكي منعزلاً بصورة متزايدة في رئاسة الحزب وقد لا يستطيع عندها ان ينطق بكلماته البليغة امام الجماهير غير ان وضعه السياسي والمعنوي سيكون اقوى بكثير في اعين الجيل الصاعد الذي كان تروتسكي ينظر اليه بكل اهتمام .

ومع ذلك فيمكننا ان نفهم لماذا لم تشع فكرة الديموقراطية المتعددة الاحزاب الا بين قلّة من المتمردين الذين قد قرروا بان تروتسكي لم يقم بالأمر كما يجب وبان الحزب البلشفي قد اصبح فاسداً لدرجة كبيرة وان البلاد قد اصبحت الآن في حاجة ماسة الى ثورة ثالثة الثورة التي تحدث عنها ثوار الكرنسدات .

في اواسط العشرينات من القرن العشرين كان كل الجو في الاتحاد السوفييتي خاليا تماما من تلك الصفوة الثائرة وانعدم الأمل الذي كان يعصف فيما مضى في صدور البلاشفة القدامى الذين قد اصبحوا في حالة حصار مستمر والذين كانوا من اعظم انصار تروتسكي أنعَدم الأمل كُليّا حتى انه لو خطرت لهم فكرة الديموقراطية المتعددة الاحزاب لظهرت لهم بشكل خيال او سراب بعيد المنال . لقد اصبح من المستحيل القاء كلمة حرّة داخل الحزب فكيف اذن بكلمة تتنافى مع سُبُله . اقول هذا ليس لتبرير فشل تروتسكي باثارة قضية الديموقراطية الاشتراكية المتعددة الاحزاب انما لأوضح بالفعل ظروف هذا الوضع .

لقد خيم ستار من الحزن على زعماء البلاشفة اولئك الزعماء العقائدين القلائل : البيروقراطيين الذين كانوا يمسكون بزمام السلطة . قالت المعارضة : لقد حَلّ في البلاد رد فعل سيّء وشملها جميعها واصبح بذلك حتى أصلب الثوريين عوداً مصابين بنوع من الاعياء والحيرة . وفي مؤتمر الحزب الرابع عشر سنة ١٩٢٥ ، وهو آخر مؤتمر حضره تروتسكي حدثت حادثة بارزة مثيرة : تحول زينوفييف وكامينيف ، اللذان كانا بالأمس حليفي ستالين في حرب ضد التروتسكية الى حزب المعارضة فنُزعت منهما كل السلطة واصبحا لا حول لهما ولا قوة . امّا بوخارين

فبقي مساندا لستالين إلاّ ان هذا الأخير ما لبث ان اطاح ببوخارين ايضاً واليكم ما كتبه اسحق دوتشر عن هذا الحادث قال :

أحتج كامينيف قائلاً من الغريب بان بوخارين وقد كان دائماً يعارض ممارسة الانتقام ضد تروتسكي ان ينادي الآن باستعمال السوط فتدخل تروتسكي قائلاً : « آه ولكنه أصبح الآن يستطيب استعمال السوط . أمّا وقد أخذ بوخارين على حين غرة فانه صاح : « تعتقد بانني اصبحت استطيب استعماله ولكن هذا التلذذ يجعلني ارتجف من قمة رأسي الى الخمص قدمي » .

ولم يرتجف بوخارين وحده اذ ان كثيراً من الآخرين كانوا يرتعدون من « رأسهم حتى اقدامهم » . ولكن الحقيقة هي عملية فيها عنف وفيها شدة مريعة اصبحت تمارس ، حُلّ وثاق شيطان من صنع يدي زعماء البلاشفة ولم يعد احد يستطيع كبح جماحه . ومدة الفترة الواقعة ما بين سنة ١٩٢٦ ـ سنة ١٩٢٧ ، حاولت المعارضة المتحدة المؤلفة من « تروتسكي وزينوفييف وكمينيف » ان تلْجأ الى الجنود والى الشعب المؤيدين للبلاشفة آملين ان يجدوا منهم بعض التأييد . يصف لنا فكتور سارج ، احدى هذه اللقاءات كما ورد في مذكراته :

قال : لقد خاطب سملْقا ، حوالى خمسين عاملاً محشورين في غرفة صغيرة حتى لم يستطيعوا ان يتحركوا أبداً (سملْقا هذا كان زعيماً سابقاً في الجيش وكان أيضاً وكيلاً سرّياً وعاملاً للينين في اسطول بحر البلطيك) خاطب سملْقا العمال مدة مساء كامل وهو جالس على مقعد وسط الغرفة تكلم دون أي لعثمة ودون أي توقف وبعبارات واضحة تماماً عن الانتاج

والبطالة وعن الحبوب ثم انتقل الى ارقام الميزانية ثم الى الخطة التي كانوا يحاولون تقديمها للتنفيذ . ويجدر بنا ان نقول هنا ان مثل هذا الموقف الذي يدل على جو من الفقر والبساطة والتساهل بالنسبة لزعماء الحزب لم يشاهد منذ الثورة .

لم تكن هذه الاجراءات مجدية اذ عندما ظهر تروتسكي بصحبة زعماء آخرين في بعض مصانع موسكو كي يخاطبوا العمال فيها ، قابلهم العمال بأصوات الاستهزاء والتخويف والاشمئزاز ومن الغريب حقا ان يقف هذا الخطيب المفوّه دون ان يستطيع ان ينبس ببنت شفة امام حشد من العمال كانوا قبل اقل من عقد من السنين يهتفون له بأعلى اصواتهم . وكان الأمر أسوأ من هذا حسب رأي تروتسكي ان العمال وقفوا دون أي اهتمام وبشكل سلبي ومظهر يدل اما على البلادة او منتهى الخوف كي لا يتدخلوا في مشاكل الحزب ابداً . لم يكن اولئك هم نفس عمال سنة ١٩١٧ او سنة ١٩٢٠ ، لقد فاتت الفرصة تروتسكي ومؤ يديه .

وهكذا اصبحت الأمور المواجهة لكل فئة معارضة : تروتسكي سنة ١٩٢٣ ، وبوخارين بعد اربع او خمس سنوات . وسيطر النظام الحزبي بواسطة اشرافه على جميع المرافق وظلم السكرتير العام سيطر على كل شيء تقريباً ، وقد ضمن في الانتخابات الحزبية اكثرية تزيد على ٩٠٪ (واحياناً ١٠٠٪) ونفى النظام النقاد الى مجاهل سيبريا واستطاع ان يكبت اصوات حفنة الاصوات التي لم يُنفَ اصحابها . تساءل مؤرخو هذه الحقبة المضادون للستالينية الراديكالية عن سبب عدم اتحاد التروتسكيين والبوخاريين او على الأقل تشكيل كتلة واحدة للدفاع عن ديموقراطية الحزب فكل منهما كان ضعيفاً ولكن الاتحاد يقويهما . اعتقد ان هذا

يعود جزئياً الى الحقد السائد بين الاحزاب ومن جهة اخرى الى تشدد كل حزب في اساليبه الاقتصادية المتباينة والاعتقاد بان هذه الاختلافات الاقتصادية اهم بكثير من فكرة الديموقراطية وقد فشل كل من التروتسكيين والبوخارينيين في تقدير اهمية ستالين كشخصية تاريخية فذّة كما فشلوا في تقدير الستالينية كمظهر يجب ان يحسب حسابه ، وكذلك فشلوا في تفهم المدى الذي ستمتد اليه يد القوة الجديدة في الاتحاد السوفييتي بأفكار جديدة تتنافى مع آرائهم المشتركة وتناقضها تماماً . واستمر تروتسكي في وصفه للستالينية كمركز للحزب مركز يترنح ويتقلب بين البروليتاريا الدولية اليسارية وبين الطرف المحافظ الشعبي الجديد اليميني . اما بوخارين فقد عكس قيمة هذا التحليل ولكنه شارك تروتسكي الرأي بان الستالينية لا تمثل أي أمر عقائدي . لا شك ان هذا التحليل صحيح اذا حكمنا عليه على صعيد الحدود اللينينية ـ الماركسية وعلى الاعتقادات والتحاليل التي تشارك في التمسك بها كل من تروتسكي وبوخارين في النهاية . ولكن هذا لا يبدو صحيحاً أبداً اذا لاحظنا ان انقلاباً تاريخياً كاملاً آخذ بالتبلور ، انقلاباً لم يستطع مفكر و البلاشفة ان يأخذوه بعين الاعتبار او أن يروه كحقيقة بدأت ترى نور الحياة بقوة وعنف .

اعتقد تروتسكي انه بمحالفته العَناصر المحافظة الجديدة في الريف تلك العناصر التي تعكس مصالحها برنامج الشيوعيين اليمينين البوخاريين فقد تشكل البيروقراطية الحزبية نواة لاستعادة الرأسمالية الخاصة . ولقد امضى تروتسكي بضع سنوات وهو يبحث عن دلائل مثل هذه الاستعادة . ولم يستطع ان يجد لها أثراً . وبالفعل كان النظام الجديد

يشدد على عدم الرجوع الى الرأسمالية الخاصة ، خاصة وقد جمع بين يديه السيطرة التامة على الدولة والمجتمع ، وبالحقيقة لم يملك هذا النظام ولم يستطع ان يمتلك أي عقار اذ انه بدلاً عن ذلك سيطر كلياً على الدولة التي كانت تهيمن على جميع الاملاك في البلاد بصفة شرعية فالرأسمالية الخاصة ستعني انهاء سيطرة الحزب وَوَضْع حد للامتيازات التي كان يتمتع بها . اما الاشتراكية البيروقراطية فقد كانت « برأي الحزب » اساسا لتوسيع تلك السيطرة والامتيازات . واذن فقد كان من المناسب ، دون أي خرق او انتهاك للمبادىء ، بان يشكل حزبا المعارضة الرئيسيان كتلة واحدة لمقاومة البيروقراطية الجديدة حتى ولو أن هذا التحالف لن يؤدي الى تغيير سير الحوادث .

قُبَيْل سنة ١٩٢٩ ، كان ستالين قد عزّز سلطته . لقد سحق المعارضة اليسارية . واصبحت المعارضة اليمينية في حالة يأس وعجز تامين . وسيق الزعماء التروتسكيين الى المنفى أو زُجوا في السجون . وابعد تروتسكي نفسه الى مجاهل روسيا الآسيوية وفي اوائل سنة ١٩٢٩ نُفي من البلاد . وخيم على البلاد سكون رهيب وطاعة تامة طاعة بدت عميقة الجذور كما كانت ايام روسيا القديمة طاعة نعتبرها الآن فريدة تماماً طاعة تبررها العقائد الجديدة . وعندها بدأ عهد الارهاب .

الفصل الخامس :
التجوال ، المنفى ، العمل

بدأت الآن سنوات تجوال تروتسكي . لم يعد هناك حشود لتهتف له ولخطاباته الرائعة ولتثور ملتهبة لدى سماعها كلماته الثائرة . ولم يعد هناك جيوش تندفع بشكل بطولي الى تلبية اوامره ولا احزاب ليقودها نحو السيطرة . لقد طُرح المع شخص في الثورة الروسية في الحضيض ونعته الدكتاتور المستبد بانه هرطوقي (من أهل البدع) ثم بانه خائن واخيراً وفي محاكمات موسكو الصورية المميتة حُكم على تروتسكي بانه متواطىء مع الفاشية .

وفي المنفى حيث اصبح تروتسكي بلا معين ويعاني كل انواع المزعجات لم يَألُ جهدا في تسجيل ونشر أفكاره متحدياً كل الصعوبات . واصبح الآن قلمه هو سلاحه الوحيد ، ويالَهُ من يراع لاذع حاد فصيح ، قلم سجّل أفكاراً رائعة سنة ١٩٠٣ وسنة ١٩١٢ ، وعاد الآن الى قوته وسيرته الأولى . اما انصار تروتسكي فقسم منهم قد تحطم نهائياً وقسم آخر قد نفي الى المناطق القطبية الشمالية المتجمدة الى اماكن يستحيل الوصول اليها او الاتصال بها . ولم يبق من انصار ذلك الزعيم الباسل إلاّ شرذمة من الشباب غير الخبيرين والضعفاء الفاشلين . وحل بتروتسكي آلام شخصية لا تطاق ولكنه استمر منتصباً غير هيّاب مخلصاً لآرائه في صدقها وزللها في صوابها وخبطها خبط عشواء . فعلى حتى اولئك الذين يرفضون كل كلمة من كلماته ولا يجارونه في أي رأي عليهم ان يعترفوا بانه في سنواته العشر او الاثنتي‌عشرة الاخيرة قدم تروتسكي اعظم مثال لما يجب ان يكون عليه الرجل ، الرجل الحقيقي .

طرد من بلد الى آخر وفي كل وقت كان يجد فيه مكاناً كمنفى : تركيا ، فرنسا ، النرويج ، واخيرا المكسيك كان الستالينيون والفاشيون المحليون يقيمون الدنيا ويقعدونها ليطردوه من تلك البلاد . اذ ان مجرد وجوده في بلد ما يثير مخاوف شتّى مخاوف الثورات مخاوف من صميم الاعماق . كانت تلك الحكومات تخضع للضغط الستاليني إلاّ انها لم تؤمن أبداً بالدعاية الستالينية ، لقد آمنت تلك الحكومة إيمانا لا يعتوره أي شك بان تروتسكي ظلّ ثائراً حقيقياً اذ ان روح الثورة قد اختلط بدمه وعظمه .

هناك رواية ، كروايات شكسبير ، تظهر لنا ممارسات تروتسكي في هذه السنوات القاسية ، ففي سنة ١٩٣٦ ، وهو منفي في النرويج الزمته الحكومة الديموقراطية الاشتراكية بان يلازم مسكنه في نفس الوقت الذي كان يحاكم فيه في موسكو « كعميل فاشي » عندما اعلن وزير العدل النرويجي باصرار بانه لا يسمح لتروتسكي ان يرد على هذه المحاكمة وان يقدم جميع كتاباته وتحاريره الى المراقبة - والجدير بالذكر هنا ان وزير العدل هذا(تركفي لي) هو زعيم ديموقراطي اشتراكي بارز وقد اصبح في ما بعد سكرتيراً عاماً للأمم المتحدة - ولا شك ان طلبا كهذا كان قد يؤدي الى انتحار تروتسكي سياسياً وان الأمر لا يعدو كونه ضغطاً سياسياً من الاتحاد السوفييتي . وارتفع صوت تروتسكي بلهجة ملؤها السخرية والاشمئزاز وأجاب « لي » قائلاً « هذا يدل على اول استسلام الى النازية في بلادكم وانك ستدفع الثمن غالياً . انك تعتقد انه بمقدورك ان تعامل منفياً سياسياً كما تشاء ولكن اليوم قريب - لا تجعل هذا الأمر يغرب عن بالك - قريباً

سيحين اليوم الذي سيطردكم فيه النازيون من بلادكم ـ يطردونكم كلكم » .

وهزّ « لي » كتفيه دون مبالاة . فقد كان يمتلك القوة اما تروتسكي فكان لا حولَ له ولا قوة . واسمعوا ما يقوله دوتشر مكملاً الرواية :

بعد أقل من اربع سنوات فرّت تلك الحكومة نفسها من النرويج في وجه الغزو النازي ، وبينا كان الوزراء مع ملكهم المُسنّ يقفون على الشاطىء يزحم الواحد الآخر منتظرين قارباً يحملهم الى انكلترا تذكروا جميعاً كلمات تروتسكي وكأنها كلمات نبي وكلعنة قد تحققت .

وطيلة هذه السنوات عاش تروتسكي وهو يشعر انه في خطر مستمر ومعرض دوماً للاغتيال ، لذا فقد كان يحيط بمسكنه حرس مسلح بصورة مستمرة لقد اغتاظ تروتسكي من هذه القيود اذ انه كان يصبو الى حرّية الحركة ، وخاصة لما تمتع به من حيوية وصحة جيدة ، أحَب صيد السمك على السواحل التركية وجمع الصبّارة(كاكْتسْ) في المكسيك . ولا شك انه لم يَغب عن باله أبداً بانه لا مجال للدفاع عن النفس أمام (الجستابو) البوليس السري الروسي . وفي المكسيك وقبل ان يقتل تروتسكي ، نظم الرسّام الشيوعي الموهوب ديفيد سيكويرس ، غارة ارهابية على بيت تروتسكي وفي اوروبا اغتيل عدد من مشايعي تروتسكي السياسيين على يد عملاء الجستابو .

ولم يكتف الكرملين بتوجيه ضرباته الانتقامية نحو تروتسكي نفسه او لمؤيديه واتباعه النشيطين بل ايضاً أخذ يكيل الضربات لأفراد عائلة تروتسكي سواء كانوا يعملون في السياسة اولا يعملون . فزوجته الأولى

الكسندرا سوكولفسكايا بقيت معارضة بعناد وبالرغم من كبر سنها فأبعدت الى منفىً قاصٍ حيث وافتها المنية . وقد كانت نهاية بنتيه من الكسندرا ايضاً نهاية فاجعة . فقد أرهقهما النظام الستاليني في موسكو لدرجة لا تطاق . نُفي زوجاهما المعارضان الباسلان الى مجاهل سيبيريا . وماتت احدى بنتيه المسماة نينا بمرض عضال بينما كان تروتسكي في تركيا . اما الأخرى زينيدا ، فكانت امرأة ممتلئة الجسم وقد امضت بعض الوقت مع ابيها في تركيا ولكن حدثت بينهما اشتباكات حادة بسبب سرعة تهيجها واصبح جلياً بانها في حالة سايكوليجية (نفسية) في منتهى الخطورة .

ذهبت زينيدا الى برلين حيث عاشت في حالة حرمان وفقر مدقع مما أدّى بها الى الانتحار سنة ١٩٣٣ ، وعندها ارسلت والدتها رسالة حزينة من لينينغراد الى تروتسكي قالت فيها : لقد شرحت لزينيدا ان كل ما حصل سببه خلقك ، اذ انك تجد من الصعب عليك ان تظهر شعورك عندما تودّ ان تظهره . واضافت « لقد كان مصير ابنتينا محتوما » .

امّا الأبن الاصغر لتروتسكي من زوجته الثانية والمسمى سيرج ، فقد كان عالماً إلاّ انه من حيث المبدأ بقي مخلصاً لوالده . وفي سنة ١٩٣٧ ، القي عليه القبض واتهم بمحاولة تسميم جماعي للعمال ، في ذلك الوقت لم يكن هناك ما يسمىّ امر غير معقول وارسل سيرج الى مخيم للعمل في فوركوتا في المنطقة القطبية الشمالية ومع انه ما زال يرفض ان ينضم الى أي حزب سياسي إلاّ انه شارك التروتسكيين في اضراب عن الطعام ثم اعيد الى موسكو حيث بكل عناد رفض بان يجحد اباه.رغم جميع محاولات الجستابو وفي أواخر سنة ١٩٣٠ ، اطلقت النار على هذا الشاب الظريف فأردته قتيلاً .

أمّا ليون سيدق ، الابن الثاني لتروتسكي من زوجته الثانية فقد اتبع بكل دقّه خطوات ابيه السياسية ، عمل كناطق باسم المعارضة في اوروبا ، ونشر جريدة المعارضة باللغة الروسية متحملاً عبء النضال رغم انه كان خالي الوفاض لا يملك نقوداً ويعمل في شتّى المجالات وحيدا خاصة وان والده كان يطالبه باستمرار ببذل جهود اكثر في الكشف عن محاكمات موسكو ونشر القضية السياسية المشتركة بينهما . وفي سنة ١٩٥٨ ، مات سيدوق في ظروف غريبة في مستشفى في باريس وله من العمر اثنتان وثلاثون سنة . وقد ارتاب اصدقاؤه بالجستابو . أمّا الوالد الحزين فقد بدت عليه الشيخوخة فجأة وبعد ان اغلق ابواب منزله عدة ايام لينب ولده هو وزوجته عاد وتناول قلمه ـ لم يكن هناك بديل آخر ـ وسجل ندبة عبّرت عن آلامه المبرحة لفقد هذا الأبن قال : كان جزءاً منا ، الجزء الشاب النضر ، لقد مات بموته كل ما هو شابّ فينا وانتهى كل ما هو فتي فينا أوّاه اننا لم نستطع انقاذك .

وفوق هذه العائلة البائسة حلّقت زوجة تروتسكي الثانية ناتاليا ، تلك الزوجة الحلوة الصالحة من سلالة بطلات تورجنيف ، هذه المرأة الطيبة التي ربطت افراد العائلة البائسة برباط المحبة والوداد وكثيراً ما عملت كوسيط بين اعضاء العائلة المتوتري الاعصاب ، هذه المرأة الصالحة لم تكن لتهتم بمظاهر السلطة في روسيا لأنها فضّلت ان تشغل نفسها بالأمور الثقافية هذه المرأة كان عليها الآن ان تتحمل آلام النفي بقوة احتمال تكاد لا تصدق . كانت علاقاتها مع زوجها لطيفة لينة وباحترام متبادل .

وفي مذكراته وهو في المنفى كتب تروتسكي يقول بانه قد قرأ السيرة

الشخصية لبروتوبب افاكيوم ، وهو هرطوقي مسيحي عاش في القرن السابع عشر وقد عانى مع زوجته اصنافاً من الاضطهاد والمرض والجوع والنفي .

وأضاف تروتسكي :

وأنا اتذكر الضربات التي حلّت بنا ذكّرت ناتاليا بحياة رئيس القساوسة افاكيوّم . كان يهيم مع زوجته في سيبيريا وكلاهما ثائر تخلص لثورته ، غارت ارجلهما في الثلوج وسقطت الزوجه المسكينة مراراً في حفر الثلج ويروي لنا افاكيوم الحادث فيقول : كنت اقترب منها لاساعدهـا وهي تنظر الي نظرة تأنيب وعتاب « متى سينتهي هذا العـذاب يا رئيس القساوسة ؟ فأجبتها « يا ماركوفنا حتى نوارى التراب » فتنهدت وقالـت فليكن ، ولنواصل سيرنا يا بتزوفتش .

خـلال كل هذه السنين لم يتوقف ستالين وبوليسه السري عن هجماتهم واغتيالاتهم .

ولم يتوقف عملاء الجستابو عن ملاحقة تروتسكي وتتبع حركاته حتى ولا لحظة وكان انجحهم واقساهم المسمى مارك زوروروسكي ، الذي تمكن بدهائه وشدة حيلته ان يحظى بثقة تروتسكي التامة وقد انتحل لنفسه اسم إتيان .

بعد سنين رحّب المجتمع الاكاديمي الامريكي بهذا الرجل التافه كمؤلف مساعد لدراسة علمية انتروبولوجية (علم الانسان) خاصة لما

يختص بشرق اوروبا في تلك الفترة . وتسربت الاخبار من اوروبا عن المعاملة الوضيعة والتحقير الشنيع الذي عومل به الزملاء السوفييت العظام امثال بريثبرازينسكي وسملكا وبياتاكوف وركوفُسكي . اما في ما يختص بمصير التروتسكيين الذين لم يستسلموا ولم يخضعوا للنظام الستاليني والذين ما زالوا يعيشون في المنطقة القطبية الشمالية فانهم قاموا باضراب عن الطعام دام لمدة ١٣٢ يوماً وتبع ذلك اعدام جماعي ـ هذه المعلومات لم تكن معروفة تماماً اثناء حياة تروتسكي .

بقلمه اللاذع المتكبر وقد نفض عنه احزانه وآلامه الشخصية عاد الى عمله المنظم واستمر بتسجيل افكاره وتحاليله عن النظام (التوتاليتاري) المستبد في روسيا ويكشف (لعالم لم يصدق او بالاحرى لم يُرد التصديق) الارهاب الذي كان ستالين يسلطه على رؤوس الملايين من الشعب العاجز . ما من شك ان الزمن يمحو الذكريات ، لقد غطت التبريرات والمعاذير على العار الذي وصم هذه الفترة . وعلينا الآن ان نتذكر بان جزءاً كبير من الاحرار الغربيين والمثقفين الراديكاليين أخذوا يهللون لحكمة وانسانية ستالين ودكتاتوريته ، ولم يعترف بعض اولئك الناس بصدقِ مآسي محاكمات موسكو حتى كشف عنها في النهاية خرشتشيف ، سنة ١٩٥٦ ، وصدقوا ذلك لأن خرشتشيف نفسه هو الذي كشف عن ذلك . خلال الثلاثينات من القرن العشرين وقف تروتسكي وحيداً مشيراً الى الحقائق المتعلقة بنظام ستالين وانها لحقائق بالفعل .

تتبع تروتسكي خطوة خطوة تحوّل الدكتاتورية الستالينية الى دولة إستبدادية (توتاليتارية) وفضح السياسات الاقتصادية التي بالغ فيها النظام في سبيل استغلال الجماهير على حساب الجنون التصنيعي ،

واستشهد وهو يصف الستالينية بشواهد من الثورة الفرنسية واستغرب تصرفات الاحرار الذين بدأوا يمجدون الاتحاد السوفييتي بعد أن رزح تحت الحكم التوتاليتاري (المستبد) . مراراً وتكراراً أتهم تروتسكي بالمبالغة والحقد والضغينة ونشرت مجلات الاحرار الاسبوعية مناقشات مبهمة على صعيد « الاسباب السايكلوجية (النفسية) » التي تكمن وراء حملات تروتسكي . ولكن يكاد يكون كل ما كتبه تروتسكي حقيقياً وواقعياً كما كُشف عنه في الاتحاد السوفييتي بعد وفات ستالين .

وعندما نشر تروتسكي سنة ١٩٣٧ ، مقالته بعنوان « ثيرميدور ومناهضة السامية » التي اتهم فيها النظام الستاليني باضطهاد السامية بصورة خفية مستورة شعر بعض اتباعه (اتباع ستالين) بنوع من القلق واخذوا يتساءلون : ألَمْ يتطرف هذا العجوز اكثر من اللازم ؟ ولكن بعد ان كُشفَ عن الحقائق ظهر بانه لم يَقُل الكفاية .

إن الرجل الذي يبرز في هذه السنوات العشر او الاثنتي عشرة هو شخصية كلها عظمة ، رجل عظيم بشجاعته الشخصية وسموّ ثقافته المدهشة ، انما يؤخذ عليه احيانا عناده واعتداده بنفسه وعدم امعانه النظر في فرضيّاته التي واجه بها بكَل شدة وعنف اخصامه السياسيين . يعتبر تروتسكي الآن شخصية انسانية اكثر من اللازم وكثيراً ما كان يبدو عصبياً ومعرضاً لعوارض نفسية جسدية . وكانت اعماله متميزة بفترات من العمل المضني الشاق الشرس وفترات اخرى كلها كسل وانكماش وكان تروتسكي يشعر بالذنب في ما يتعلق بأولاده اذ انهم جميعاً قد ضحوا بحياتهم في نضالهم السياسي بطريقة ما وكان اخشى ما يخشاه ان يفارق الحياة دون ان يُنهي واجبه الثوري وقد قهره عدم التناسب بين ابعاد نظره

السياسي وحقارة وسائله السياسية وقد ادرك سرعة مرور الزمن وأسف لذلك قال في مذكراته « إن الشيخوخة هي أسوأ شيء يتوقعه الانسان » ولكنه يستمر بالعمل دون أي فتور . وكان يتوقف عن كتابة « ذروة اعماله الفذة » سيرة لينين التي لم يكملها بعد والتي تعتبر متوجة لكل ما كتب ، كان يتوقف عن متابعة سردها عندما يرى ان ذلك ضروري ويلتفت الى مجادلة ومحاورة رفقائه المنشقين ومجيباً على حملات موسكو ويؤلف كتباً لتموين بيته . وبعد ان تحرر من عبء الوظيفة اصبح ثانية ذلك الرجل الالمعي المبدع في التحاليل والمؤرخ والأديب . ويكتب الآن وهو مرجع للبيان وبلاغة التراكيب والتشبيهات هذه الألمعية التي تضعه في طليعة كتاب عصره واضف الى ذلك ان انتاجه كان عظيماً . ربما ان مواهب كالتي تمتع بها تروتسكي لم تشع بكل لمعانها اروع منها وهو يسجل ملاحظاته على قيام النازية في الثلاثينات من القرن العشرين . تتألف هذه الملاحظات من مقالات وكراريس كتبها بسرعة وهو في المنفى : ليس هناك جهود كبيرة في تحرير مسائل نظرية ، من جهة واحدة لأن هدف تروتسكي الرئيسي كان تقديم ارشاد تكتيكي لمنع انتصار هتلر ومن جهة أخرى لأن هذه الظاهرة أي النازية ما زالت جديدة . ولكن اعماله الرائعة في هذه الفترة تحتوي بين طياتها على معظم العناصر التي كانت النازية في حاجة اليها : مثل « المانيا ، مفتاح الوضع الدولي » سنة ١٩٣١ ، « ماذا بعد هذا ؟ » سنة ١٩٣١ ، « الطريق الوحيدة » سنة ١٩٣٢ ، و« ما هي الاشتراكية القومية ؟ » سنة ١٩٣٣ .

يعزو الكتاب الذين جاؤوا بعد تروتسكي له كل الفضل لاصراره بانه لا يمكن توقيف هتلر عند حده الا بواسطة جبهة يسارية متحدة . ولكن بما

ان هذه الافكار والتحاليل لم تسجل وتنشر الا قبل ما انكشف الوضع الهتلري بعد تسلمه زمام السلطة اضف الى ذلك ان هذه الدراسات كانت مبعثرة هنا وهناك في مختلف المقالات والكراريس ولذلك لم يعترف له الكتّاب حينذاك بالمهارة التي تمكن فيها من الكشف عن النازية وجذورها .

عزا تروتسكي قيام النازية الى أزمة تراكم رأس المال وليس فقط بسبب اضطرابات تحدث دَوْريّاً . يعني هذا الانهيار أن الرأسمالية لا يمكنها ان تبقى حيّة إلاّ اذا تخلت عن رفاهية الديموقراطية البرلمانية وسلمت مصيرها السياسي الى الفاشيين . . اذ من الحقائق المسلم بها ان الربح الاقتصادي يرافقه دائماً خسارة سياسية أي ان تعزيز وتقوية ملكية اصحاب رؤوس الأموال يرافقه دائماً تراجع البرجوازية ولكن الفاشية تمثل أمراً يختلف اختلافاً جذرياً عن الدول البولسية التقليدية أو الدكتاتورية انها حركة جماهيرية تستمد قوتها من الشعب المهمل الساخط وهكذا تخلق ظروفاً من الرعب يسفر عنها تدمير كامل لمنظمات الطبقة الكادحة كما وانها تحطم جميع مراكز المقاومة الاجتماعية والاستقلال السياسي ، كل هذا بعد ان تستلم الفاشية زمام السلطة . تستمد هذه الحركة الجماعية التأييد في البدء من الطبقة الوسطى السفلى او البرجوازية الضعيفة المدفوعة الى اليأس بسبب التضخم والغلاء وبسبب البطالة والافلاس وعدم الاستقرار الاجتماعي « ان الطبقة البرجوازية الضعيفة سبق واتخذت موقفاً معادياً لحكم رأسمالية النظام الحالي ولكنها في نفس الوقت معادية عداء مُميتاً للثورة البروليتارية » ، وانتصار الفاشية كحركة جماعية تعني فشل الطبقة العاملة باستلام زمام المبادرة السياسية إذْ بهذا

تستطيع ان تحل الأزمة الاجتماعية .

اعتقد ان مؤيدي الفاشية الآخرين ، الماركسيين وغير الماركسيين يقبلون بهذا التحليل . اما الاختلافات فانها تبرز عندما تتسلم الهتلرية زمام السلطة . وهل تستمر الشركات البرجوازية الكبيرة ، كمجمع شركات « كروب » مثلاً في المحافظة على نفوذ اقتصادي اجتماعي حاسم رغم أن ممثليها قد حُرموا من السلطة السياسية المباشرة ؟ أو هل يَسْتمد هذا النظام الجديد « صفة مستقلة » كدولة توتاليتارية عهُد اليها القيام بالتوسع والسير قُدُماً مازجة الرعب مع العقائد بالنيابة عن سلطة ديناميكية تقرر مصيرها بنفسها ؟ لم يقبل تروتسكي ابداً فكرة الماركسيين المبتذلة بان الهتلرية ما هي إلا « دكتاتورية بورجوازية عارية » ولكن تروتسكي كان يميل للاعتقاد بان امتزاجاً متبادلاً بين البورجوازية التقليدية الكبيرة وبين البيروقراطية النازية الحديثة سيحدث عندما تتسلم الهتلرية زمام السلطة ويُسْفر عن ذلك ليس مجرد استقرار في الاقتصاد الرأسمالي ولكن أيضاً على الاقل تثبيت جزئي لسلطة البرجوازيين السياسية . وليس هنا أي شك بان الاقتصاد الرأسمالي قد لاقى انتعاشاً وازدهاراً تحت حكم هتلر ، اما مشكلة المشاكل فهي ماهيّة العلاقات على صعيد الحكم التي كانت بين البرجوازيين الكبار والنخبة النازية . على كل حال فان تروتسكي لم يعش ليَسْبُر غور هذا التساؤل بدقة او ان يختبره على ضوء التطور الداخلي للنازية في المانيا خلال الحرب العالمية الثانية .

لقد قدمت لكم فكرة مجردة عن بحوث تروتسكي في ما يختص بالنازية ولكن علي ان اذكر هنا ان ثروته التحليلية تكمن في وصفه

وتوقعاتـه : اسمعـوه يتحـدث سنة ١٩٣١ ، عن إحتمالات الارهـاب النازي :

انّ ما يعنيه تسلم الاشتراكية القومية (النازية) زمام السلطة هو في الدرجة الاولى القضاء كليا على زهرة البروليتـارية الالمانية ، فاذا نظرنـا بعين الاعتبار الى نضوج وَحدّة التناقضات الاشتراكية في المانيا لبـدا لنـا العمل الجهنمي للفاشية في ايطاليا كتجربة رحيمة لطيفة اذا قيست بعمل الاشتراكية القومية الالمانية (النازية) .

واليكم وصفة لدور البرجوازية الضئيلة سنة ١٩٣٢ ، قال :

ان الفاشية ترفع الطبقات التي هي أعلى من البروليتاريا لتقف على اقدامهـا ولا تخشى بان تجبـر الى خفض درجتهـا لتصـل الى طبقـة البروليتاريا . وتنظم الفاشية هذه الطبقات وتدربها عسكرياً على حساب اموال هذه الطبقات وتحت غطاء الحكومة الرسمية فالفاشية ليست مجـرد نظام انتقامات وقوة وحشية وارهاب بوليسي . الفاشية نظام فاشي خاص يرتكز على اجتثاث عناصر الديموقراطية البروليتارية من جذورها داخـل المجتمع البرجوازي .

وفيما يلي يلتفت سنة ١٩٣٣ ، الى دور الفوهرر عندمـا بدأ مسلـكه السياسي برز هتلر امام الملأ بسبب مزاجه العظيم وصوته العالي اكثر من اصوات الآخرين وحالة ثقافية متوسطة واعتداد بالنفس الى ابعد حد . انه لم يُعِدّ لحركته أي برنامج ، فاذا اهمل. انسـان ظمـأ جنـدي مهان الى الانتقام ، فهناك العديد من الناس المدمّرين الغارقين والـذين ما زالـت جراحهم ورضُوضُهم تسبب لهم آلاما مبرّحـة وكل منهـم يودّ ان يدوّي

بقبضته على الطاولة . على ان هتلر استطاع ان يقوم بهذا العمل أفضل من الآخرين . وبالحقيقة لم يعرف ابداً كيف يعالج الشر ولكن ترددت اصداء خطبه هنا وهناك طوراً وكأنها أوامر وطارة كأنها صلوات موجهة الى المصير المجهول القاسي شبيها بمرضى لا رجاء لهم بالشفاء ، مرضى لا يتعبون من التقدّم بمختلف الشكايات ولا يملّون من سماع المؤاساة . كانت جميع خُطَب هتلر تضرب على هذه الانغام ، بلا أي شكل حسّي ، ومع غياب أي فكر منظم وجهل عظيم مصحوب ببراعة مزخرفة ، وحقاً لقد تحولت كل هذه الحالات السالبة الى ايجابيات .

وانصتوا الى ما قاله بكل بلاغة على صعيد الميزات العامة للفاشية قال :

لقد فتحت الفاشية أعماق المجتمع للسياسة واليوم وفي القرن العشرين يسكن ليس فقط في بيوت الفلاحين ولكن ايضا داخل ناطحات السحاب شعب يعيش حياة مناسبة مع هذا القرن وشعب آخر ما زال يعيش في القرن العاشر او الثالث عشر .

يستخدم الملايين من الناس الكهرباء ولكنهم ما زالوا يؤمنون بالقوة السحرية للاشارات والتعاويذ . ويذيع بابا روما بواسطة الاذاعة عن تحويل الماء العجيب الى خمر والملاحون الجويون الذين يطيرون بماكينات عجيبة إبتدعتها عبقرية الانسان ، يعلقون فوق كنزاتهم الصوف تمائم لتحفظهم سالمين . يا لها من احتياطات تدل على الجهل والظلام والهمجية . اوقفهم اليأس على اقدامهم ومنحتهم الفاشية عَلَماً . وكلما كان من اللازم ان يُمحى من النظام القومي بشكل براز ثقافي خلال التطور

الاعتيادي للمجتمع خرج الآن متدفقاً من حلوقهم .

والآن بدأ المجتمع الرأسمالي يتقيأ الحالة البربرية التي لم يستطع هضمها . وهذه كما اعتقد هي السيكولوجية النازية . ولم يكن هدف تروتسكي الرئيسي في ما كتبه ان يقدم نظرية كاملة تامة للفاشية ولكنه استهدف الجناح الالماني اليساري الى عمل موحّد . وباستهزاء ملتهب - لم يكن ليصبر على الاغبياء - هاجم سياسة الشيوعيين الالمان غير المعقولة الذين اخذوا يعلنون في « فترتهم الثالثة » فوق اليسارية « بان الديموقراطيين الاشتراكيين ما هم إلاّ « فاشيين اشتراكيين » يمثلون خطراً اكبر بكثير من النازية : اما تروتسكي فكان دائماً يؤكد على ما هو واضح وبسيط : وذلك بانه لا يمكن ان يوقف هتلر عند حدّه إلا جبهة موحدة من الشيوعيين والديموقراطيين الاشتراكيين « سيروا منفردين واضربوا مجتمعين » . وقد كرّس تروتسكي بعض الصفحات اللاذعة الى ما يسمّى « الاستفتاء الاحمر » ، التكتيك الانتحاري الذي اسفر عنه انضمام شيوعيي بروسيا الى النازيين سنة ١٩٣١ ، للاطاحة بحكومة محافظة ديموقراطية اشتراكية . ويسجل تروتسكي ملاحظة بعزم قوي وفراغ صبر ملتهب ويقول : كيف يمكن ان يكون الشيوعيون الالمان قد وصلوا الى هذه الدرجة من العمى ؟ ألا يستطيعون ان يروا ان هتلر بعد ان يستلم زمام السلطة سيدمر كل احزاب الجناح اليساري ؟ وفي مقالة كتبها في كانون اول سنة ١٩٣١ ، عنوانها : « الى جبهة متحدة عمالية يسارية » تدفقت كلماته الراعدة : لم يبق إلا وقت قليل ، ما زلتم قادرين على احياء صفوف العمال الالمان ودفعهم الى عمل موحّد لايقاف العربدة النازية ووضع حد لها قال :

اسمحوا لي ان اقدم مثالاً آخر يفهمه ضعاف العقول : عندما يضع أحد اعدائي امامي اجزاء صغيرة من السم يومياً ومن الجهة الاخرى أرى عدواً أخر يحمل مسدساً ليطلق علي النار فان اول ما افعله هو ان أُطَيّر المسدس من يد عدوي الذي يريد قتلي وبهذا تسنح لي الفرصة لأتخلص من عدوّي الأول ولكن هذا لا يعني ابداً بأن السم « أقل شرّاً » اذا قورن بالمسدس . ·

وبعبارات تكمن فيها النبوة موجهة مباشرة الى محاربي جبهة اليسار قال :

« ايها الشيوعيون العمال ، انتم مئات الوف ، ملايين ، ولا تستطيعون ان ترحلوا الى أي مكان ، لا يوجد جوازات سفر كافية لكم . واذا حدث وتسلمت الفاشية زمام السلطة فستركب على جماجمكم واعمدتكم الفقارية وكأنكم دبّابات . اما خلاصكم فلن تحصلوا عليه الاّ بواسطة نضال لا رحمة فيه ولا هوادة ، وبواسطة اتحادكم مع العمال الديموقراطيين الاشتراكيين يمكنكم ان تحققوا النصر . اسرعوا . ايها الشيوعيون العمال ، لم يعد امامكم الا وقت قصير» .

وفي سنة ١٩٣٢ ، وبعد ان ركز تروتسكي على الحقائق السابقة بكل قوته شعر بفراغ الصبر وأخذ الكلام يتدفق منه كالسيل وهو يقول : وماذا بعد ؟ وهي نهاية لاذعة تعزى الى اساطير يوسب ، قال تروتسكي :

مرة ساق تاجر من تجار الماشية ثيرانه الى المسلخ وجاء اللحام بسكينه الحادة .

اقترح احد الثيران وقال « فلنجمع صفوفنا ولنرفع هذا الجلاّد على قروننا » فأجاب الثيران « وهل تعتقد ان هذا اللحام شرٌ من التاجر الذي ساقنا الى هذا المكان بهراوته ؟ » هذا مع العلم ان اولئك الثيران قد نالوا ثقافتهم السياسية في معهد مانويلسكي ، (سكرتير الكونتيرن ، تحت امرة ستالين) ، وقال الثور : ولكننا نستطيع ان نتدبر أمر التاجر ايضاً فيما بعد . وأجاب الثيران مشددين على مَبدئهم « انك تحاول ان تحمي أعداءنا من اليسار ، انك لحاّم اشتراكي بالتأكيد » ورفضوا ان يضموا صفوفهم . لو أُتبِعَت نصيحة تروتسكي لكان العالم قد أُنقذ من بعض اهوال الرعب التي حدثت في هذا القرن الذي نعيش فيه . وعلى الأقل كان العمال الالمان سيحملون السلاح ويخوضون المعركة بدلا من ان يسمحوا للسفاحين النازيين بان يتسلموا زمام السلطة دون أي مقاومة ولكن لم يكترث احد لأقوال تروتسكي . ولم تكد تصل كراسته وسيول مقالاته لأكثر من جناح العامة الاكبر .

ومع ان حواره المضاد لنظرية « الفاشية الاشتراكية » كان قويا مدمّرا فقد بقيت هناك مشكلة أخرى . . يتساءل المرء كيف يمكن للحركة الشيوعية حتى وفي شكلها الستاليني المنحط ، ان تقدم نظرية ليست غريبة الشكل فحسب ولكنها تدل أيضاً على التطرف الجنوني على صعيد نتائجها الواضحة ؟ قُل ما تريد عن الديموقراطيين الاشتراكيين . نكرات للبرجوازيين . إدْمَغْهم بلقب العار خَوَنَة قل ما تريد . ومع ذلك فلا يمكن لأيِّ انسان ان يصدق بان الشيوعيين الالمان قد فشلوا في رؤية الخطر الداهم الذي جاءهم مع النازية . وهناك تفسير مقبول واحد رغم انه غير كاف وهو انه أخذ يتشكل داخل الاتحاد السوفييتي اسوأ انواع تحويل

الممتلكات الى مشاع بصورة اجبارية للجميع ولا شك بان هذا نوع من الحروب الاهلية تشُنها الدولة ضد الشعب ، ومن الطبيعي ان يرافق هذا سياسة دولية فوق يسارية . . ومع ذلك فقد بقي الشيوعيون الالمان يعرضون رؤوسهم للخطر بسبب نظرية « الفاشية الاشتراكية » لماذا هذا ؟

ليس هناك جواب سهل عن هذا التساؤل خاصة عندما نعترف ان جميع النظريات السياسية تجعلنا نفشل في تقدير دور البلادة البشرية . ومع ذلك فَحَرِي بنا ان نحاول التمعن للاجابة . واسمحوا لي ان اتقدم برأي ولكن بكل حذر فأقول يبدو لي ولو بطريقة مشوّهة ان نظرية « الفاشية الاشتراكية » لها علاقة خفية بجزء من البلشفية التي فضل تروتسكي ان لا يبحث فيه . اتصال البلاشفة بالبعثة التاريخية الفريدة « لحزب الطليعة » واحتلال مركزه (أي مركز البلاشفة انفسهم) ثم اصرار البلاشفة بكون الاحزاب المتنافسة داخل الحزب لم يكن خطأ فحسب انما ايضاً كان عنصراً معادياً لمصالح كل الطبقة الحزبية ، وتمسك البلاشفة بعملية « تنظيف الساحة » من الفئات اليسارية المنافسة ـ كل هذه الامور للسياسة التي تدل على السيطرة الفردية كان لها على ما اظن نوع من التوسّع في نظرية « الفاشية الاشتراكية » .

ويجدر بي ان اذكر هنا انه لو كان لينين حيا لاعتبر نظرية « الفاشية الاشتراكية » ليس اكثر من سخافة شريرة وليس هناك أي شك بان الزعماء البلاشفة الذين يرزحون الآن تحت الارهاب الستاليني يعتبرونها كذلك ولو بصورة سريّة . ولكنني اريد ان أؤكد هنا انها سخافة قد ساهموا هم

انفسهم في وضع بذورها في تربة عجرفتهم الاستبدادية . فعلاقة النظرية « الفاشية الاشتراكية » بالطليعة البلشفية ألا يشبه هذا ، ولو بعض الشبه ، علاقة سيارردياكوف ، بإيفان كارامازوف ؟ .

لقد بدا لتروتسكي ان فشل كل من الديموقراطية الاشتراكية والشيوعيين في مقاومة محاولة هتلر تسلم السلطة يعْتَبر أمراً بالغ الأهمية . لقد دل ذلك على الافلاس المطلق النهائي لكل من الاحزاب المصلحة التقليدية بالاضافة الى الستالينية اذ لم تر هذه الاحزاب أية روح مستعدة للحرب ليس للقيام بثورة فقط وانما لمجرد البقاء رغم ان هذه الاحزاب كانت تتمتع بتأييد اكثر من اثني عشر مليوناً من الاصوات في المانيا . واستنتج تروتسكي بانه قد حان الوقت على الصعيد الدولي للبدء بتأليف ماركسية جديدة ولو بعدد ضئيل كنقطة انطلاق باسم الماركسية الدولية الرابعة . لقد امتصّت هذه المغامرة السيئة الحظ معظم نشاطاته السياسية خلال ما تبقى له من سني العمر . وعندما أخذ يعلق على الاضطرابات السياسية التي وقعت في فرنسا واسبانيا خلال اواسط الثلاثينات من القرن العشرين لم يكتب كناقد معارض من داخل الحركة الشيوعية ولكن كزعيم لحركة سياسية جديدة محاولاً ان يغذّي حركته الجديدة ليصبح في وسعها القيام بثورة .

لقد اظهر تروتسكي في الكراريس التي نشرها مثل « اين هي فرنسا ؟ » وفي المقالات الكثيرة عن اسبانيا اظهر كعادته قوته ومهارته في التحليل وصلابته العقائدية كماركسي . اما المقالات عن اسبانيا فاستهدف فيها سبرغور الصعوبات التي كانت تواجه تعصير دولة خامدة خاملة ،

صعوبات لم تكن لتخفى على ماركسي روسي . وشدد تروتسكي ، من جهة ، على القوة الحربية المحلية لطبقة العمال الاسبانية (تلك الطبقة التي كانت تتمتع بتقاليد فوضوية قوية) ومن الجهة الاخرى شدد على تخلف البرجوازية الاسبانية التي كاينة عمها البرجوازية الروسية قبل شهر اكتوبر تقف في سبيل كل اجراء يهدف الى الاصلاح او حتى الى الاقتصاد الديناميكي وذلك بسبب جُبْنها الاجتماعي وجشعها . وهكذا فان البلاد سترتمي في احضان أزمة اجتماعية رئيسية وعندها لا ترى القوى المسيطرة أي حل الا بالفاشية . اما على صعيد الحرب الاهلية الاسبانية فلم يكتب تروتسكي بإسهاب واقتصر عمله على سلسلة من المقاطع القصيرة والرسائل والمقابلات . وقد كتب يقول « ان ما حدث في اسبانيا ليس فقط ثورة مناهضة للفاشية ، انما ما يحدث في نفس الوقت هو بدء ثورة اجتماعية داخل المخيم الموالي للحكومة : كنزع ملكية الأرض بواسطة الفلاحين وسيطرة العمال على المصانع وخاصة في كاتالونيا ولكي ينجح النضال المسلح ضد فرانكو كان لا بد من دفع العمل النضالي العمالي الى ذروة كماله وبهذا يلبي طلبات الجماهير ويثير حماسهم وفي نفس الوقت يدمر التأييد السياسي لفرانكو . وجدير بالذكر هنا ان بعض الجنود كانوا من صفوة الجنود المغاربة في الجيش الفاشي واذا عُمِّم طلب ، يقول تروتسكي لتحرير المغرب الاسباني ـ وهو ما كان لا يرضاه الشعب حينئذ ـ فيصبح بالامكان حصول ارتداد على صعيد الجماهير ومن الجلي ان ما كان يدور في خلد تروتسكي ان ما هو واضح في الوضع الاسباني هو نموذج عما حصل في ثورة اكتوبر . سنة ١٩٣٧ مثلا ، كتب تروتسكي يقول :

في اسبانيا دوّت اصوات الستالينيين عالياً متزعمين الجماهير وقدمّوا صيغة تبّناها وتمسك بها كاباليرو ، الفاشي رئيس مجلس الوزراء ألا وهي اولاً الانتصار العسكري ومن ثم الاصلاح الاجتماعي . اما انا (تروتسكي) فاعتقد ان هذه الصيغة مميتة للثورة الاسبانية ، فانا لا ارى الفرق الجذري بين البرنامجين (الفاشي والجمهوري) ففوق كل شيء سيقع الفلاحون وهم الطبقة الكادحة في اختلافات جمّة . في هذه الظروف لا بد ان تنتصر الفاشية لأن الفاشيين يتمتعون بتأييد عسكري . وتمثل الاصلاحات الاجتماعية الجريئة اقوى سلاح في الحرب الاهلية كما وان ذلك يعتبر شرطاً اساسياً للانتصار على الفاشية » .

وبعد بعض الوقت مجيبا عن اسئلة تتعلق بمرافعات مكسيكوسيتي ، في ما يختص بمحاكمات موسكو قدم تروتسكي نفس وجهات النظر قال :

ان الطريقة الوحيدة المثلى لتأكيد الانتصار في اسبانيا هي ان نقول للفلاّحين : « ان التربة الاسبانية هي تربتكم » وان نقول للعمال « ان المصانع الاسبانية هي مصانعكم ومن الضروري ان تحاربوا ولكن كما تعرفون ليس بكافٍ ان نحارب بالبندقية من الضروري ان نمتلك افكارا وان نمرّرها للاخرين لكي نستعد للمستقبل . يمكنني ان احارب يدا بيد مع الفلاح البسيط . ولكنه لا يفهم الا الشيء القليل عن الوضع . فعليّ اذن ان اقدم له الشرح اللازم . يجب ان اقول « انك على حق في حربكم ضد فرانكو ، اذ علينا ان نقضي على الفاشية قضاء مُبْرماً ولكن ليس لكي نحصل على نفس اسبانيا التي كانت قبل الحرب لأن فرانكو خرج من اسبانيا تلك . علينا ان نقضي على جذور واساسات فرانكو ، وعلى

الاساسات الاجتماعية لفرانكو اذ انها ليست إلا النظام الرأسمالي الاجتماعي » .

خلال الانتفاضات الاجتماعية التي هزّت اوروبا وجه تروتسكي اهتمامه الى فرنسا . بدأ في تحليل الجبهة الشعبية : الاشتراكيين والشيوعيين والراديكاليين (حزب برجوازي حر) كاندماج مزعزع يفتقر الى هدف وإرادة . وبيّن فرقاً حاداً بين جبهة متحدة تشمل اتفاقات محددة وبين احزاب الطبقة الكادحة المقصورة على حاجات مباشرة نوعية (مثلا : الدفاع المشترك ضد الهجوم الفاشي) بينما تُرك كل حزب حرا لممارسة افكاره السياسية الخاصة ، وجبهة شعبية ، جمعت الطبقة الكادحة والاحزاب البورجوازية في اتحاد غير مقبول وقف سداً منيعاً في وجه جميع الامكانيات الثورية . وبأمل كبير رأى تروتسكي الطبقة الكادحة في فرنسا تناضل للتوصل الى الثورة ـ حدثت اضرابات على نطاق واسع ـ ولكن كبح هذه الجهود زعماء فاسدون .

ويبدو ان تحليلات تروتسكي عن اسبانيا وعن فرنسا ليست مُقنعة تماماً . فقد وجدت الجمعية الديموقراطية البرجوازية في غرب اوروبا نفسها في صعوبات جعلتها ترتاب بمقدرتها على البقاء . وانه كانت هناك انتقادات مُلحّة على كل من الديموقراطيين الاجتماعيين والستالينيين ، وان العمال في فرنسا وفي اسبانيا كانوا راكنين الى الراحة ـ كل هذا كان صحيحاً . إلاّ أنه كان في اسبانيا بعض العناصر رأى فيها الماركسيون بعض الحالات الثورية واخص بالذكر هنا في كاتالونيا اكثر من اي مكان آخر . ولكن هناك اسباب عديدة تدعو الى التساؤل عمّا اسماه تروتسكي

اكتوبر اسبانيا . اما الاتحاد السوفييتي الآن وقد عقد حلفاً مع الديموقراطيات الغربية فقد لعب دورا قويا جدا في تشكيل سياسات الجمهورية الاسبانية وذلك على صعيد كَبْت بعض الميول الموجهة نحو التحولات الراديكالية وكذلك اثارة حملة قمعية ضد المتمردين اليساريين .
اصبحت الجيوش الفاشية قوية جداً بمساعدة هتلر وموسوليني ولا تخشى الهزيمة او تحطيم معنوياتها كما يحصل للجيش الروسي الذي هزم عندما تعرّض للدعاية الراديكالية سنة ١٩١٧ . لقد اصبح الجو السياسي العام في اوروبا الآن في حالة أسوأ فقد أخذت القوى الفاشية في الصعود وكل من الديموقراطيات والحركات اليسارية في التقهقر ، وفي داخل اسبانيا نفسها ، رغم قوة البوم ، في كاتالونيا ـ وهي حركة يسارية مناهضة للستالينية ولكنها ليست حزبا تُروتسكيا ـ رغم هذا فان السواد الاعظم من العمال ما زالوا مخلصين لمنظماتهم التقليدية : الاشتراكية ، والفوضوية (اعداء الحكومة) وبدرجة اقل الشيوعية ، ان روسيا التي اغتصبت فيها البلاشفة السلطة كانت بلاداً سيئة التنظيم وفيها فروق اجتماعية شاسعة ومسافات جغرافية واسعة جداً ولقد بدا هذا مفيداً جداً للبلاشفة اذ فسح لهم المجال للمناورات والتراجع . اما اسبانيا في الثلاثينات من القرن العشرين فقد كانت « مزدحمة » اجتماعياً وسياسياً فلم يكن المجال فيها مناسبا لتمرد ثوري .

لقد اعترف تروتسكي نفسه بكثير من هذه العوامل ولكنه لم يكفّ عن الجدال قائلا بانه لو كان في اسبانيا حزب ثوري لأمكن تغيير كل شيء . ولكن ما من شك بان هذا العامل الموضوعي الذي يرتئيه تروتسكي لا بد وان يجاري في ابعاده الوضع الواقعي المنظور لماذا لا يتطور

في بلاد غرب اوروبا احزاب ثورية مهمة ؟ هل يعود هذا فقط الى افتقار الزعماء الى الخبرة والكفاءة ؟ او هل كان ذلك لأن الستالينيين ، ووراءهم موارد روسيا ، ما زالوا اقوياء ؟ او هل كان ذلك لأن فكرة « التكرار التاريخي » في الشكل الذي اقترحها فيه تروتسكي قد فقدت قوتها الفتانة الساحرة وسرّها الغامض الملهم ؟ . ان الفشل في تنظيم وبناء حركة ثورية جديدة يمكن ان يعزى لكون طبقة العمال في غرب اوروبا لم تكن ميالة للسير على خطوات لينين رغم انها كانت مخلصة للاحزاب الراديكالية التقليدية ومستعدة للقتال بشكل اعمال دفاعية ضد الفاشية . هل هذا صحيح ؟ او ربما انها كانت قد ارهقت بعد عقود من النضال والتقسم وربما انها كانت قد تزعزعت بسبب الحوادث المرعبة التي حلّت بروسيا في العقود الماضية او ربما انها احتفظت بارتباطات بالديموقراطية البرلمانية ومنظماتها المستقلة ذاتياً بشكل اقوى ممّا اعترف به تروتسكي وربما ايضا ان الشيوعيين الغربيين قد أحسّوا في زاوية ما من زوايا وعيهم ، ان سبيل البلاشفة الروس لا يمكن ان يكون سبيلهم . من المستحيل علينا ان نقيس هذه الأمور بكل دقّة لأننا نعالج الآن شؤونا اجتماعية واحتمالات سياسية . لو اعلن الاشتراكيون والشيوعيون في اسبانيا جمهورية سوفييت (مجالس) او ما يشابهها لكان هناك شك كبير في مشاركة اكثرية العمال لهم . . وانه لمن الجليّ ان العمال ما كانوا مستعدين بان ينفصلوا عن الاشتراكيين والشيوعيين ليعلنوا جمهورية « سوفييت » . لقد كان تروتسكي يثق اكثر مما يجب بالارادة الثورية ، والوضوح الثوري ، والصفوة الثائرة ولم يسمح لنفسه بان ترى البون الشاسع والفرق العظيم بين سنة ١٩٣٧ وبين سنة ١٩١٧ ، والتباين الهائل بين غرب اوروبا وروسيا .

واثناء كل ذلك ما فتىء تروتسكي يعمل على خلق حركة جديدة لليسار الثوري ، الحركة الدولية الرابعة ، حركة ستبقى مخلصة للمبادىء الماركسية - اللينينية . لقد فشلت هذه الجهود ، فشلت فشلا ذريعا كما يمكننا ان نرى الآن . . لم تُر جماهير العمال في اوروبا أي اهتمام بزمرة تروتسكي او أي مذهب آخر ، بينما اولئك المثقفون الذين انفصلوا عن الستالينية وناهضوها اضطروا الى اعادة النظر ثم الى التخلي عن الفكرة اللينينية بكاملها . فمن وجهة نظر ماركسية تعتبر الثلاثينات من سنة ١٩٣٠ عهد تقهقر لا تقدم ، عهد حيرة وفقدان للمعنوية وذلك بسبب الضربات التي كالتها لها الفاشية والماركسية . لا يكاد هذا الجو يكون مناسباً لخلق طليعة ثورية جديدة . باستثناء قلّة من الزعماء المحنكين الذين تركوا احزابهم الشيوعية امثال الفرد روزمر ، في فرنسا وهنريكس سنيفلت ، في هولندا اما الزمرة التابعة لتروتسكي في اوروبا فقد كانوا غير خبيرين وغير مجربين وغير قادرين على الوقوف امام الضغوط التي كانت تُمارس ضدهم بواسطة حركات اعدائهم والحكومات المحلية . اما الماركسيون المحنكون المشايعون لتروتسكي امثال روزمر وسنيفلت ، بالاضافة الى اندرس نين في اسبانيا وفكتور سيرج في فرنسا ، فانهم ما لبثوا ان قطعوا علاقاتهم السياسية معه وبالرغم من احترامهم له واعجابهم به فانهم أحَسّوا بانه متصلب جداً في اخلاصه للتقاليد البلشفية .

سنة ١٩٣٦ ، وقد فرغ صبر تروتسكي في ما يتعلق بمتابعاته الدولية اقترح بان تحل المجموعات التروتسكية المستقلة نفسها موقتاً وتلتحق بالاحزاب الاشتراكية والديموقراطية الاشتراكية ، لا يمكنني القول بان تروتسكي قد اتخذ هذا الاجراء عن سلامة نيّة وقد انتهى ما كان يُعْتقد بانه

عملية مصالحة لِلمّ شتات قوى اليسار المبعثرة والمناهضة للستالينية انتهى ذلك بغارة قام بها التروتسكيون ، الذين اعادوا تكتّلهم ، على الاحزاب الاشتراكية . وبعد سنتين او ثلاث طُرِد التروتسكيون بعد أن تعادَوْا مع عدد كبير من الاشتراكيين اليساريين الذين لم يكن ليختلفوا عنهم كثيراً من الناحية الثقافية . . وفي الولايات المتحدة قال الزعيم التروتسكي جيمس ب . كانون ، بان هذا الاجراء قد دمّر تماماً ما تبقّى من الحزب الاشتراكي واعتقد انه هذه المرة كان على صواب . فقط في مركزين متحضرين بعيدين اتخذت الجماعات التروتسكية صفة حركة شعبية ـ وذلك في سيلان وبوليفيا ، وهذا من الغرابة بمكان لأن التروتسكية فشلت تماماً في البلدان الصناعية الرئيسية وفشلت حتى في جذب المحاربين اليساريين التقدميين .

كزعيم سياسي في هذه السنوات بداتروتسكي شِيكساً ومتصلباً : لم يكن ليصلح كزعيم لجماعات ضئيلة العدد . ويبدو وكأنه كان توّاقاً لمخاصمة مَنْ كان يقاربه في آرائه أخذ يُسَطِّر مقالات عديدة ضد « الطبقة الوسطى » أي اشتراكيي الجناح الايسر الذين كانوا قد انفصلوا عن الاحزاب الديموقراطية الاشتراكية ولكن لم يكونوا مستعدين بعد لقبول البرنامج الكامل لمذهب تروتسكي . وأخُص بالذكر هنا تبادلاً مستمراً للرسائل بين تروتسكي واندرس نينْ زعيم البوم ، الاسباني الذي نجح في بناء حزب يساري مناهض للستالينية (وهذا لم يستطع غيره ان يقوم به في اوروبا) أكبر بكثير من جماعات تروتسكي . لقد كان بين هذين الرجلين رباط من الاحترام المتبادَل ومع ذلك فان تروتسكي لم يألُ جهداً في محاولة تشكيل اسلوب نين السياسي طبق الفكرة البلشفية بينما كان نينْ يحاول ان

يصون حزبه وهو في وضع في منتهى الصعوبة لذلك شعر بانه يجب ان يشق له طريقا مناسبة للاستراتيجية الاسبانية .

وكان هنا نوع من التعاطف بين المنفيين الثوريين والاعضاء الجدد غير المتمرسين حزبيا وذلك على صعيد المراسلات بينهم وكان بعض هؤلاء الجدد من الهواة المتزاحمين حول تروتسكي فلنُصْغِ اليه يتحدث عنهم :

« لا استطيع ان اتحدث عن الأهمية البالغة لعملي حتى وخلال المدة الواقعة في ما بين سنة ١٩١٧ - سنة ١٩٢١ اما الآن فان عملي من الأهمية بمكان بحيث لا يمكن الاستغناء عنه ابداً . انني لا أتبجح بهذا القول ابداً . فان انهيار الشيوعية الدولية والاشتراكية الدولية بعد قيام هتلر شكل وضعاً لا يستطيع أي من زعماء هذه الدوليّات ان يحله اذ لا أحد منهم يمتلك الاهلية لذلك وان التقلبات التي احاقت بمصيري الشخصي جعلتني اواجه هذه المشكلة العويصة واصبحت مُسَلّحاً بخبرة تامة تؤهلني لمعالجة مثل هذه المشاكل لم يبق أحد غيري يصلح للقيام بمهمّة تسليح جيل جديد بالاساليب الثورية فوق رؤوس زعماء الدوليّات الثانية والثالثة . وانني لأوافق لينين او بالاحرى (تيرجنيف) بالاعتراف بان اسوأ رذيلة هي ان يصبح المرء في سن يناهز الخامسة والخمسين . واذن فانه لا يزال امامي اكثر من خمس سنين من العمل المستمر دون انقطاع لأصل الى هذا العدد » .

كان تروتسكي دائماً صبوراً ومشجعاً ومساعداً لاتباعه دون أي كلل او ملل . وبقي الى النهاية المحدّث اللبق المفوّه المنفي الذي يمثل عظمة البلشفية واخر وصّي ومعلّم للثورة . ومن المثير حقاً ونحن نقرأ مجموعات

كتابات تروتسكي ان نكتشف كيف كان يسرق الوقت تاركاً اعماله الاساسية للحديث مع عدد كبير من الناس ومراسلتهم بينهم الثوريون المحنكون وصغار الشباب ومن المؤسف ان اسجل هنا ان كل هذا لم يكن مجدياً ابداً . فهذا الرجل لم يجتمع ابداً مع حسن حظ مناسب وانه لن يحصل على ذلك في المستقبل . لقد ربح تروتسكي احتراماً من الجناح الايسر المبعثر هنا وهناك ومن الجماعات المناهضة للستالينية انما لم يتحدوا معه ابداً . وحتى اولئك الذين كان يوبخهم بمناقشاته اللاذعة لم يكن منهم ألا ان يظهروا الرضاء احيانا بمهارته في الجدال . اما تروتسكي فلم يكن ليرضى بهذا ابداً : ان مَنْ ان يحوّل مجرى التاريخ لا يمكن أبداً ان يكتفي بما يسمعه من الثناء على اسلوبه .

الفصل السادس :

التراث الاخير

إن القسم الاكبر من كتابات تروتسكي التي ألّفها في سني النفي لم تكن جدلية او سياسية محضة . لقد كانت موجهة الى العالم بوجه عام اكثر منها الى الزمر المنعزلة للاحزاب الراديكالية المناهضة للستالينية . بل انها بالاحرى تمثل ذروة ما حققه كاتب ملهم من كتّاب القرن العشرين كاتب استطاع رغم آلام الاضطهاد ومرارة الهزيمة ان يجد طريقا الى اظهار موهبته العظيمة . والكتب الرئيسية التي دَبّجها يراع هذا اللوذعي في السنين الاحدى عشرة أو الاثنتي عشرة الاخيرة هي سيرة حياته الشخصية بعنوان « حياتي » ثم قطع غنائية عن شباب لينين ثم سيرة ستالين « بشكل عنيف » ثم كتابه الرائع الذي جمع فيه آراءه عن الستالينية واسماه « خيانة الثورة » واعظم من كل هذا كتابه « تاريخ الثورة الروسية » .

أما كتاب تروتسكي المسمى « حياتي » ، فقد كتبه بعد وقت قصير من وصوله كمُبْعَدَ سياسي الى تركيا ، وتبدو البلاغة والقوة ظاهرتين في الفصول القلائل الأولى وهي تتحدث عن عهد الطفولة بمقالات سريعة ثم المدرسة والراديكالية المبكّرة . ويضع تروتسكي نفسه في اول فقرة من الكتاب في طليعة الكتاب الروس الأدباء وكشخصية طموحة تنظر دائما الى الامام ويقول : ان تلك الذكريات الغنية عن ايام عهد الشباب والصور عن الحياة الريفية الشاعرية كما نجدها في قراءة اكساكوف وتولستوي وتيرجنيف سأسجلها هنا . ولكن بدلاً من ان ينساق وراء اولئك الادباء يتدفق في مستهل كتابه بتحدٍّ مشوب بالاحترام ولا غرابة في ذلك فهو ثائر في كل نقطة من دمائه قال :

« ان المثل العليا لعهد الطفولة تبدأ في ما يناله المحظوظون من ثقافة . فَعَهْد طفولة آمنة رغدة دون تعكير ، طفولة تُصرَّف في منزل مُرَفّه غني بالآداب أبا عن جد ، طفولة حب ووداد ولَعِب طفولة مثل هذه تعيد للمرء ذكريات مروج خضراء مُشْمسه عند بدء إستنشاقه نسيم الحياة . هذه العظمة التي تمثلها الثقافة والأدب واولئك الحشود من العامة التي تُمجد الأدب والثقافة كل هذه قدَ قَدسَتْ ورفعت من شأن عهد الطفولة الارستقراطي ، هذا من جهتي ، اما معظم الناس الآخرين فلا يسترجعون من الذكريات إلاّ عهد طفولة حالك السواد عهد جوع وسَغَب واعتماد على الغير فالحياة تنال من الضعيف وهل هناك اضعف من الطفل ؟ » .

ولكن تقاليد « العَظَمَة » لا يمكن ان تمر عليها مرّ الكرام لذْ أنّ الصفحات الأولى من « حياتي » تزخر باصداء الأدب الروسي الكلاسيكي ، كل صفحة في هذا الكتاب مفعمة بحب الحياة وما فيها من ارض وهواء وغرام بالاشياء الصغيرة وانغماس في عالم الحواس بشكل يندر في المذهب الماركسي ويكتب تروتسكي مثلاً عن طفولته في مزرعة ابيه باسلوب يظهر بكل جلاء مبلغ ذكرياته وما تعلمه على صعيد حياته الأدبية المميزة يقول :

تنقسم مخازن الغلال خاصتنا الى اجزاء منظمة لخزن مختلف انواع الحبوب : القمح برائحته الذكية ، والشعير الذي تشعر بشوكته اذا لمسته ، ثم بذور الكتان وملمسها الناعم ، واللفت اللذيذ ، والشوفان النحيف . وعندما كان الأولاد يلعبون لعبة « الغمّاية » ، كان يسمح لهم في حالات خاصة اذا كانوا ضيوفاً بان يختبئوا في المخازن ، فكنت حينئذ

أزحف فوق كوم من الحنطة مخزون في خابية وانزلق الى الجانب الآخر ، ويا لها من ذكرى تعاودني الآن وقد غُرست يداي الى المرافق في القمح ورجلاي الى الركب في اكوام القمح المتدفقة وطالما امتلأ قميصي الممزق وحذائي بالقمح المحيط بي » .

ان الفصول السياسية في كتاب (حياتي) تفتقرالى الوضوح اذيظهر ان تروتسكي يعالج مواضيع قد تحدث عنها في كتبه السابقة وكان يتوقع ان يتوسع في المعالجة في الكتب التالية . وفي هذا الكتاب لمحات سريعة تدل على الذكاء بالاضافة الى الحقد عن شخصيات من زعماء حزب الديموقراطية الاشتراكية الاوروبية اما بالنسبة لستالين واهمية الستالينية كظاهرة اجتماعية فان معالجة كتاب « حياتي » لهذين الامرين تبدو ابتدائية وبسيطة اذا قورنت بالكُتب التي تلتها . اما في ما يختص بحياة تروتسكي الداخلية واحساساته الخاصة ، وعلاقاته مع النساء والاطفال فيُسْدل عليها هذا الكتاب ستاراً من الصمت العميق وذلك لأن تروتسكي يعتبر نفسه رجل سياسة ويكتب سيرة للشخصية للعموم لذلك فانه كره ان يكشف الستار عن أيّ من هذه الأمور . ونلاحظ هنا ان في هذا الكتاب بعض الضعف وذلك لأنه ألّفه في بكورة حياته وهذا الضعف هو : كونه ليس قصة حياته الشخصية تماماً ولا سجل عام شامل انما يتعاقب الامران في هذا الكتاب بنوع من التردد اللامع .

ويعتبر كتاب « تاريخ الثورة الروسية » تحفة كتب تروتسكي ، وقد ألّفه في ثلاثة عشر شهراً اثناء وجوده في المنفى في ثلاثة مجلدات ، يعتبر اعظم كتاب تاريخي يبحث في الأمور الماركسية . ولم يقتصر ذلك البحث عن الماركسية كفكرة تكشف عن النضال بين الطبقات ولكن فوق كل

ذلك الكشف وبكل اصرار عن الجمهور الصامت المظلوم في روسيا : جمهور الطبقة الكادحة والفلاحين قد هبوا كلهم ليصبحوا افرادا نشيطين اسياداً لمصائرهم في الشوارع وفي الحوانيت وفي الريف . وكانت هذه الجماهير تخضع احيانا لاختبارات باردة متعبة فتظهر وكأنها ركام من جزئيات صغيرة وكأنما اصبحت ارادة تاريخية كامنة وليست قوة متماسكة لها اهداف ثابتة . وفي اوقات اخرى تبدو هذه الجماهير وكأنما جُبِلت بقوّة اسطورية لتصبح في مجموعها شخصاً واحداً مرتبطاً بالوعي الطبقي ذا قدرة هائلة موحدة . وهنا تخدمنا الماركسية كاسلوب تحليلي وكاسطورة سياسية ، كطريقة للفهم وأخرى لتحويل مجرى التاريخ . وكان تروتسكي فيما بعد يفتخر بكتابه هذا معلنا انه في الوقت الذي كان فيه ذلك الكتاب عرضة للتحدي الثقافي والسياسي فانه لم يستطع أي ناقد أن يجد فيه أي خطأ خطير على صعيد الحقائق ، مع العلم انه كان مجبراً ان يستمر في انشاء كتابه وهو مبعد في تركيا دون الرجوع الى المكتبات . قال تروتسكي في مقدمة كتابه انه يحاول ان يكون « موضوعياً » دون التظاهر بانه « غير مُتَحَيّز » .

هذا الكتاب عمل في أوج العظمة شعري في اسلوبه وتناسقه ، رائع في الوانه اللفظية وسريع في سرد الحوادث التي يتذكرها الكاتب بكل اسهاب وعاطفة مرموقة . وليس هناك أي شك في تفوق هذا الكتاب على كتاب « حياتي » (الذي يحدثنا عن قصة الثورة بمقياس اصغر) بكون التفاصيل اللاذعة والضربات الهازئة والملخصات اللامعة عن الشخصيات اصبحت الآن جميع هذه الأمور وقد حيكت بعبارات لا مثيل لها جعلت منها صرّحاً متيناً . وقد اختفت من اسلوبه الآن الاخطاء

السابقة وأخص بالذكر منها عرض الأمور بشكل متهوّر . هذا التاريخ عمل رائع يدل على تمام الوعي والادراك وسموُّهما . انـه لتحفـة فريدة وحوادث قد دبّجها يراع كاتب قدير للكشف عن أمور محتّمة .

ولن نستغرب هنا ان نطالع الجمل الهازئة الحـادة التـي تتوقعهـا في اسلوب تروتسكي قال عن تشيرنوف (الزعيم الراديكالي) : « لقد اصبح الامتناع عن التصويت بالنسبة اليه نوعاً من الحياة السياسية » . وقال عن كيرنسكي « انه ليس ثورياً انما كان يحوم حول الثورة » . وتابع يقول عنه لقد أكبّ « على نوع من الفصاحة التي لا يستسيغها العقـل ولا الارادة ولكنها تؤثر على الاعصاب » وعن مارتوف قال « ان اللحظة التي يصبح فيها الميزان في حالة تأرجح هي ساعته ـ انه لرجل دولة خلاّق ولكنه دائم التذبذب والتردد » . وقال عن لينين لدى عودته الى روسيا سنة ١٩١٧ : « لقد تحمّل سيْل كلمات الثناء وكأنه شخص فاقد الصبر ينتظر في مدخل بيت لحظة توقف نزول المطر » . وعن الجماهير : « تتميز الثورة دائماً بقلة الأدب والوقاحة ومن المحتمل ان سبب ذلك هو ان الطبقات الحاكمة لم تزعج نفسها بان تعلّم الشعب حسن الاخلاق في الوقت المناسب . يمتاز اسلوب تروتسكي بالثقة التامة بالنفس الطويل وتظهر عليه العجرفة : انه

يُبين بكل وضوح صوت ظافر مطمئن الى عمله . وكانـت استراتيجيتـه القصصية تستهدف نهاية كاملة متوقعة . كما اشتهر بملاحظاته الصارمـة ووخزاته القاسية اللاذعة : وهذه كلها تابعة لما تتطلّبه الأمور العقائدية او بكلمة أدَق : اسلوب روائي بطولي شعري تشكل حَسْبَها تتطلبـه تلك العقائد .

لقد استعملتُ كثيراً كلمة « بطولي شعري » وأعني بها اكثر من مجرد سلاسة السّرد القصصي ، والعمل البطولي والنتائج الرائعة ، ان ما اعنيه حقاً هو ان الكتاب يتبع المنحى القصصي للملاحم التقليدية ولا اعني بذلك ان تروتسكي قصد هذا الاسلوب عن عمد ونّية ولكن يبدو لي ان الاسلوب نتيجة حتمية للواجب العظيم الذي كرّس تروتسكي نفسه لانجازه على خير وجه : فتشكيل شعب جديد ، وهو الهدف الاعظم لهذا الاسلوب يظهر في هذا الكتاب مستهدفاً ابراز عهد تاريخي جديد ، ويصبح تشكيل الأمة رهناً بتوعية الطبقة الكادحة بكل ما تعنيه كلمة « الوعي الذاتي » ، واختبار البطولة يصبح من أجْدى العوامل لتشديد الحزب الثوري وجعله اصلب عوداً .

يشبه كتاب « التاريخ » هذا الملحمة البطولية بشكل آخر . انه ينتهي بملاحظة تشير الى الانجاز الكامل والى التفاؤل السامي ، كتب تروتسكي يقول في جملته الختامية : لقد اعترف العالم اعترافاً تاماً بالاصطلاحات الجديدة امثال البلشفية والسوفييت (المجالس) وهذا وحده يبرر ثورة الطبقة الكادحة ان كان هذا يحتاج الى تبرير . وعلى المرء ان يتذكر هنا ان الانسان الذي كان يكتب هذه الاسطر رجل في المنفى وقد رفض ان يعترف بأي مأساة قد يُسْفر عنها المستقبل . تُحدثنا الملحمة عن المجد المبكر وليس عن الانحطاط الذي حل بروما فيما بعد . وهكذا يحدثنا تروتسكي على صعيد الثورة . واختياره للصور الواقعية تعكس لنا مناظر العالم أو ربما تصميماً على صيانة هذه المشاهد العالمية مهما كلف الأمر . يظهر البطل الملحمي في كتاب « التاريخ » هذا في ثلاثة مظاهر : الطبقة الكادحة الظافرة من جديد ، والحزب المنتصر من جديد ولينين المنتصر من جديد

وكل من الثلاثة متصل ومساند للآخر : فالطبقة الكادحة ذراع التاريخ والحزب قبضة الطبقة الكادحة ولينين دماغ الحزب المفكر . ويبدو هنا ان التاريخ قَدْ أحْسن تنظيمه واخذ يعمل طبقاً لخطة مدروسة وينتهي بشكل ظافر . وقد يبدو هذا لكثير من القرآء الذين ينظرون بعين الشك لامثال هذه الرؤى والانظمة المكدسة يبدو وكأنه مجرد خفّة ومهارة يد ودهاء في الاسلوب اما المؤرخون المتأخرون فينظرون الى هذه الخطة نظرة مختلفة اذ انها فَسحت لهم المجال لانتقاد وجهة نظر تروتسكي فيما يختص بالثورة .

واسلوب الكتاب ايضاً ملحمي : رائع ، محلق ، حقيقي . ومن الطريف ان اذكر هنا ان كلاً من الكاتب والقارىء يشتركان في معرفة ما سيحدث بعد الصفحة الاخيرة وليس هناك من يستطيع ان يستمر في هذا الصوت المدوّي صوت الابتهاج التاريخي إلا كاتب قد وصل الى قمّة الانتصار او كاتب قد أصر بكل عزم ان يتذكر الشعور الذي يحسه من وصل الى هذه الذروة السامية . ولنستمع اليه وهو يستغيث بِسنّتْ بيترسبرغ عشية الثورة بالمقطع التالي الذي اعتقد انه جدير بكتابات ديكنز .

« لقد تغير كل شيء ومع ذلك فقد بقي كل شيء على حاله لقد هزّت الثورة البلاد ووسّعت الفجوة واخافت البعض واحزنت الآخرين ، ولكنها لم تمحُ بعد أي شيء كما وانها لم تستبدل أي شيء ، ويبدو لي ان هذه البلدة الملوكية مستغرقة في سبات نوم عميق ولكنها ليست ميّتة . لقد غرزت الثورة اعلاماً حمراء صغيرة في ايدي الانصَاب الحديدية للملكية ، لقد تدلّت البيارق الحمراء الضخمة من واجهات ابنية الحكومة ولكن يبدو بأن القصور والوزارات والمقرّات كلها تعيش حياة منفصلة تماماً عن هذه

الاعلام الحمراء التي قد تغيّر لونها بسبب امطار الخريف . لقد مُزّق النسر الامبراطوري ذو الرأسين مع الصولجان الامبراطوري حيثما امكن ذلك ، رغم انهم عادة كانوا يكسونها او يعيدون رسمها بشكل سريع . تبدو جميعها وكأنها كامنة هناك كل روسيا القديمة كامنة وقد كشّرت عن انيابها غضباً .

كان هناك قلق شديد خلال الثورة بخصوص اقتحام مَعْقلي بيتر وبول يقول تروتسكي :

يتمركز القلق في كتيبة راكبي الدرّاجات كانوا مجندين كالسواري (الخيّالة) واختيروا من بين فلاحين أثرياء ، وقد ألف راكبو الدراجات ، الذين قد جاؤ وا من طبقات متوسطة في المدينة ، قسماً محافظاً في الجيش . وهذا يتطلب عالماً نفسيّاً عقائدياً : عندما يجد انسان نفسه راكباً على دولابين وجنزير وخاصة في بلد فقير كروسيا يجد نفسه يختلف عن الآخرين وتبدأ خيلاؤه بالبروز والانتفاخ وكأنها دولاباً درّاجته . اما في امريكا فتحصل نفس النتيجة عندما يركب المرء سيارة .

وفي أوائل الكتاب تقدم العمال من مقاطعة فايبورغ الراديكالية الى مشروع سمبسونيفسكي ، وهناك واجهوا جيشاً من الكوزاك : ويظهر انّ مصير الثورة كان معلقاً على هذه الواجهة قال تروتسكي : تقدم الخيالة الكوزاك بكل حذر في خط طويل داخل الممشى الذي فتحه الضباط . يقول احد البلاشفة العمال المسمى كييوروف ان بعض الضباط ابتسموا وغمز احدهم بعينه . وكان لهذه الغمزة معناها وتأثيرها اذ انها شجعت العمال وافسدت الكوزاك . وكثرت الغمزات ورغم جهود الضباط

المتواصلة فشل الكوزاك بان يجبروا الحشود على التفرّق ولكنهم انسابوا فيما بينهم واخذ جنود الكوزاك يجيبون عن اسئلة العمال ودخل كثير منهم في حديث مع العمال اما النظام الذي كان الجنود الكوزاك يشتهرون به فلم يَبقَ منه الا خيط رفيع . وحينئذ سارع الضباط الى فصل جنودهم عن العمال وقد تخلوا نهائياً عن فكرة تفريق المظاهرة ثم صفوا الكوزاك في عرض الشارع كحاجز لمنع المتظاهرين من الوصول الى المركز . لكن حتى وهذا لم يكن مجدياً . فان العمال أخذوا يتسربون من تحت بطون الجياد اما الجنود فقد ثبتوا فوق خيولهم دون أي حركة وفي نظام تام . إن الثورة لم تختر طريقها ولكنها شقت اول خطواتها الظافرة من تحت بطن جوادكوزاكي .

ان هذا الكتاب لا يعتبر ملحمة فحسب فهو أيضاً بسيط وساحر ففي اواخر العشرينات واوائل الثلاثينات اخذ كثير من البلاشفة يسترجعون ذكريات ثورة اكتوبر وقد اعتبروا تلك الفترة كفترة براءة وطهارة اذ انهم الآن كانوا يترنحون تحت عبء كثير من المشاكل والفشل المتواصل وظلموا أنفسهم باخطاء ايديهم واخذ كل منهم يرتجف فزعاً من الآخر بشكل اكثر بكثير من الخوف الذي كان يشعر به اي انسان حتى في عهد البوليس القيصري . فما اجمل اذن تلك الايام الحلوة العظيمة السالفة ايام ثورة اكتوبر اذا قورنت بهذه الايام . كتاب التاريخ هذا هو تاريخ لاخطاء الماضي او ما يقرب من ذلك . وليس من الصعب ان نتخيل العديد من اخصام تروتسكي وهم في الكرملين يسارعون وهم في حالة عصبية ليطالعوا بصورة سرّية « التاريخ » ليساهموا مع مؤلفه في الرجوع الى اناشيد ماضيهم وليس هناك من شك بان القراء المتأخرين واخص بالذكر

منهم مَنْ كان عرضة للتأثر بذكريات اكتوبر الطنانة المدوية يسارعون ايضاً دون تردد ليتنعشوا بقصة الثورة تلك القصة في « تاريخ » تروتسكي غير الملطخة بختام .

وهناك مقارنة اخرى للكتاب « التاريخ » مع الاسطورة يَسرْد علينا « التاريخ » قصة الثورة الروسية كاشفاً عن اسطورة البلشفية ومبرراً قيامها كواقع حقيقي وليس كاسطورة غير حقيقية مشدداً على كون البلشفية عملاً تصورياً خلقه الخيال اكثر منها كتاريخ نَقْدي . انه كتاب نشأ بصورة حتمية من فرضياته الخاصة المرتكزة على فكرة الحاجة المُلحّة . وتساهم كل فقرة فيه لتوصله الى الكمال . وفي اسطر كل صفحة تتوضح بصورة متزايدة فكرة الحتمية مع قليل من التناقضات والشكوك الواردة احيانا . وكثيراً ما واجه تروتسكي اسئلة فأجاب عنها بكل اخلاص وعلى سبيل المثال واجهه هذا السؤال ـ هل تعتقد ان الثورة كانت تلاقي نجاحاً لو أنّ لينين مات قبل بضعة اشهر ؟ وكان جوابه وبكل اخلاص ـ لا ـ اعتقد انها ما كانت لتنجح . ومع هذا فلا اعتقد ان امثال هذه الاسئلة تعكر على الايقاع الصاعد للكتاب . يتحرك الكتاب قُدُماً بثبات وعناد : حامي التاريخ . لأنه يعمل طبقاً ليوميات التاريخ وكما يعمل البطل في الملحمة طبقاً لأوامر الآلهة ، فالنجاح المثلث الاركان : الطبقة ، الحزب ، والزعيم يصل الى قمّة النجاح بوهج من اليقين . لا شك بان من يستسلم لقوى تروتسكي القصصية يجد هذا الكتاب مثيراً للاعجاب والسرور ولكن الناقد المتسائل المحاور يميل الى الشك بان الواقع فيه من التشويش اكثر ممّا يسمح به تروتسكي .

أما على صعيد المشاكل المبهمة ، والشكوك ، والتردد والمآسي وما

شاكل من عناصر الحياة البشرية فان « التاريخ » قلّما يتطرق اليها اللهم الا عندما يلقي نظرة على المهزومين ثم يصرف النظر عنهم كنفاية في مجرى التاريخ . في الكتاب فصول ضخمة تتحدث عن الصفة الاجتماعية العلمية للقوة المزدوجة وعن استراتيجية الثورة . فقوّة العقل في « التاريخ » ـ وانها لقوة هائلة ـ ليست من النوع الذي يتناسب مع حالات الحكمة التقليدية .

ويمكننا ان نقول ايضاً ان تروتسكي يختلف عن غيره من المؤرخين بكونه يرفض ان يمنح آياً من اخصامه أي تقدير وفيما عدا مارتوف ، لم يكد يوليهم أي احترام . وعلى هذا ربما يَرُدّ تروتسْكي : مَنْ بين هؤلاء الاخصام يتّصف بأي تقدير او يستحق أي احترام ؟ هل هو كيرنسكي ، المغرور المهووس ؟ او هم زعماء المنشفية الذين فاتتهم الفرصة ليجلبوا الى روسيا التغيّرات الاشتراكية التي كانت تصبو اليها ؟ او الى جنرالات الحرس الابيض الذين لم يتفهموا ابداً ماهية العاصفة التاريخية التي جرفتهم بالرغم من شجاعة بعضهم ؟ ان اسلوب تروتسكي التهكمي لم يكن نتيجة لغطرسة تروتسكي الشخصية أو لتحققه من صحة مبدأ البلشفية فحسب وانما هو حكم مدروس تماماً على المهزومين . أمّا اذا كان هذا التصرف يقابل احساسنا العميق بالوضع الانساني او يُرْضي الامكانيات الواسعة المكشوفة للمؤرخين فانها مسألة أخرى . ولكن علينا ان نتذكر انه حتى والقارىء المستعد ليستسلم الى الحكم المستبد الظافر الذي يقرأه في ثنايا كتاب « التاريخ » حيث تتحرك الحوادث صعدا الى الذروة أقول حتى وأمْثال هذا القارىء عاجلاً أم آجلاً سيتذكرون ان مؤلف هذا الكتاب كان أحد المهزومين .

كم بدا تروتسكي عنيداً حتى وعند هزيمته ! وما على من يريد ان يتلقن درساً في الشجاعة الأدبية إلا ان يقع تحت تأثير هذا الرجل العظيم في الثلاثينات من القرن العشرين . ونستطيع ان نتعلم منه ايضاً الرضاء بالوقوف بكل ثبات مع قناعاتنا واعتقاداتنا وان نتحقق بان في الحياة اموراً أسوأ بكثير من كوننا أقلية . ربما لم يكن في نيّة تروتسكي ان يعلّمنا هذا الدرس ولكن لا شك بانه درس قيّم .

ورغم الاجهاد الذي كان تروتسكي يعانيه بسبب العوائق التي كانت حكومتا النرويج وفرنسا المضيفتان تضعانها في طريقه ، فقد كان يعمل بنشاط مستمر لا هوادة فيه ، احيانا ثماني عشرة ساعة في اليوم ، لدحض الإفتراءات التي كانت تصدر عن محاكمات موسكو وبعد مرور اربعين سنة على هذه المحاكمات لم يعد من الضروري ان نقدم كثيراً من التفاصيل على صعيد هذا اللغز المخيف اذ ان كل انسان اصبح يعرف ان جميع التهم في هذه المحاكمات كانت مُحاكة مدبرة وغير صحيحة . ولكن اواسط الثلاثينات من القرن العشرين عندما اضطر كثير من زعماء البلاشفة امثال زينوفيف وكامينيف وراكوفسكي وراديك وبياتاكوف وبوخارين اضطروا بان يعترفوا بما يشينهم وان يقرّوا بانهم اقترفوا اجراماً لا يتصورها العقل (حتماً افتراء وكذباً) ليس اقلها بانهم تآمروا مع المانيا النازية . فكان على تروتسكي ان يبذل قصارى جهده ويجمع كل قواه الشخصية لمناهضة هذه الافتراءات التي اختلقها النظام الستاليني . وقد ساعد الدعاية الستالينية بعض الاحرار الذين اصبحوا يعجبون بالاتحاد السوفييتي فقط عندما دخل في عهد الاستبداد الستاليني وكذلك ساعدها بعض المحافظين الذين سرّهم النظام الذي فرضه دكتاتور الكرملين : وانه

لانتقاد محزن على عهدنا هذا لكون عدد كبير من كتاب هذا العهد العظام وكذلك اعداد من المثقفين قد سارعوا للدفاع عن الدكتاتورية مختلقين الاسباب للمصادقة على المحاكمات .

أخذ تروتسكي يناضل في سبيل شرفه السياسي وقد هزّه منظر رفقائه القدامى وقد رضخوا للتحقير وهم مستسلمون للمحاكمات الصورية فصب سيلاً من دحض الافتراءات والتشهير بالمحاكمات واوقع بمنظمي المحاكمات متهماً اياهم بالتناقضات والفساد والافتراء . وتحدى علنا الحكومة الروسية بان تطلب استعادته الى روسيا ولكن الحكومة الروسية رفضت التحدّي فأرسل تروتسكي رسالة الى اجتماع عام في نيويورك قال فيها .

« انني مستعد ان أمْثُل امام لجنة تحقيق عامة غير منحازة ومعي وثائق وحقائق وشهادات . فاذا قررت هذه اللجنة بانني مذنب بأقل انواع الاجرام التي يُلْصقها ستالين بي فانني اتعهد ان اضع نفسي طوعاً تحت تصرف الجلادين الغستابو ولكن اذا قررت اللجنة : ـ هل تسمعون ما أقول ؟ هل تسمعون ما أقول ؟ ـ إن محاكمات موسكو كلها صورية متعمدة كلها افتراءات لن أطلب بأن يقف من اتهمني ليموت بواسطة اطلاق النار عليه عن طيبة خاطر . هل يسمعني من اتهمني من ساكني الكرملين ؟ انّي اتحداهم جميعاً في وجههم وانني لانتظر منهم جواباً .

عندما سمع تروتسكي ان صديقته السياسية القديمة انجليكا بالابانوف ، قد حزنت كل الحزن بسبب محاكمات موسكو كتب اليها سنة ١٩٣٧ ، يقول : غضب ، هياج ، إشمئزاز ؟ نعم ، حتى وتعب

موقّت . كل هذا بشري انما اكثر من اللزوم . لكن لن اصدق انك قد استسلمت للتشاؤم . علينا ان نقبل التاريخ على علاّته . وعندما يسمح التاريخ لمثل هذه الشواذات القذرة غير العادية فعلينا ان نجابهه بقبضاتنا .

بَشَرّي . نعم بشري اكثر من اللزوم ، لا شك ان هذا ينطبق على تروتسكي نفسه . تقول زوجته نتاليا تروتسكي في مذكراتها انه عندما يجلس زوجها لوحده في غرفة مكتبه :

« كنت احيانا اسمعه يتنهد من صميم قلبه ويقول : « انني مُرْهق . لا استطيع ان اتحمل اكثر من هذا » . وما كان ليعترف بهذا الارهاق علانية ولا شك بان التحقير والانهيار الاخلاقي الذي أحاَق برفاقه الثوريين القدامى اولئك الذين احبوه من صميم القلوب وقد ماتوا بعد ان شملهم العار كل هذا أوقعه في حالة من الألم الذي ليس بعده ألم » .

وهناك سؤال ما برح اكثر من أي سؤال آخر ينكّد على تروتسكي حياته : كيف قبل أولئك الثوريون الذين كانوا قد تحملوا كل آلام السجن والتعذيب في عهد القيصرية مع العلم ان بعضهم حاربوا بشجاعة اثناء الحرب الاهلية ، كيف قبلوا بان يلطخوا اسماءهم بالعار ؟ ليس هناك من يستطيع ان يجيب عن هذا السؤال بطريقة مؤكدة انما ما نعرفه هو ان كثيراً من البلاشفة القدامى كانوا قد اوهن النظام عزائمهم ونستطيع ان نستنتج انهم كانوا قد انهاروا عندما حان وقت المحاكمات . واننا نعرف ايضا ان بعضهم قد هُدِّدَ بالقضاء على اقرب اقربائه وبعضهم نزل بهم أقْسى انواع العذاب ونعرف ايضا ان بعضهم قد وُعدوا بالعفو وربما ايضا قد وُعدوا بترتيبات ووعود سرية اذا خضعوا لارادة ستالين . وهناك نظريات أخرى

عديدة ولا يمكن التثبت من صحتها منها ان بعض هؤلاء ، وقد اصابهم الحزن الشديد ووهن العزيمة ، قد أقنعوا بان هذه الاعترافات الكاذبة ستكون آخر مساهمة يستطيعون ان يقدموها في سبيل الثورة . ولكن يبدو لي انه ولا واحدة من هذه التفسيرات مرضية تماماً .

وقد أحس تروتسكي بالراحة التامة عندما افتتحت لجنة تحقيق مشتركة مؤلفة من مثقفين وراديكاليين متعلمين وكلهم من اخصامه السياسيين افتتحت جلساتها في مكسيكو سيتي ، في نيسان سنة ١٩٣٧ ، وكان رئيس لجنة التحقيق الفيلسوف الامريكي المُسن جون ديووي ، الذي تخلّى عن دراساته في علم المنطق ليقوم بما اعتقد بانه التزام اخلاقي . وقد استمر تروتسكي طيلة اسبوع كامل يجيب عن اسئلة اللجنة ليس فقط على صعيد المحاكمات نفسها ولكن ايضا في ما يختص بتصرفاته واعماله نفسه . وكان كثير من الاسئلة عدائية من الناحية السياسية وخاصة ما يختص بالعلاقة ما بين البلشفية والستالينية وقد سُجلت هذه التحقيقات تحت اسم « قضية ليون تروتسكي » وانها تحتوي على صفحات من الحوارات الثقافية والسياسية بين تروتسكي وجهابذة النقّاد المستجوبين امثال جون ديووي وبنجامين سترولبرج وأتو روهل ومستشار اللجنة ، جون فينرتي . وكان تروتسكي خلال الجلسات كلها يتكلم الانكليزية التي لم يكن يجيدها تماماً ولكن رغم الاخطاء وسوء التراكيب فانه تكلم جيداً وعندما قام بمرافعته الختامية سرد بالتفصيل ظروف حياته السياسية وندّد بالمحاكمات وتنتهي هذه المرافعة بالدستور التالي :

« إن تجارب حياتي المفعمة بالنجاحات والأفشال لم تدمر ايماني

بالجنس البشري ومستقبله الزاهر فحسب ولكن على العكس من ذلك قد وهبني ذلك مزاجا ليس هناك من يستطيع تدميره . ان هذا الايمان بالعقل وبالصدق وبالتضامن البشري الذي حملته معي الى احياء العمال في بلدة نيقولايف ، وانا في الثامنة عشرة من عمري ، اقول انني لا ازال احتفظ به كاملاً تاماً ، لقد اصبح اكثر نضوجاً ان لم يكن اكثر حماساً » .

واعلنت لجنة التحقيق قرارها بان تروتسكي « غير مذنب » . ولكن يبدو ان هذا لم يكن له التأثير المرجو على الرأي العام الاوروبي في ذلك الوقت وخاصة في الاوساط الاوروبية المثقفة .

ان الاشمئزاز الذي اخـذت تشعر به قلّـة من المثقفين البـارزين الغربيين أدّى بهم الى الشك بفكرة تروتسكي بوجود تضاربـات عميقـة وفروق شاسعة بين البلشـفية والستـالينية . امـا مثقفـو الجنـاح الايسر المناهضون للستالينية الذين قد اثرت فيهم نظريات تروتسـكي والـذين طالما حثتهـم كتاباتـه الى التخلي عن الاوهـام « التقـدمية » على صعيد الستالينية ، فأخذوا يستنتجون بأن تروتسكي لم يُوفـد المسألة ما تستحقه من العناية . واستنتجوا ايضا انه عليه ان يدافع عن ماضيه كزعيم بلشفي وقالوا ايضا بانه قصرّ كثيراً بالقيام بنقد الآراء الادبية والسياسية التي تشترك فيها الستالينية واللينينية ، كما كانوا يرتابون . ورد عليهم تروتسكي بمقالة طنانة عنوانها : « اخلاقهم واخلاقنا » مقالة شرسة لماركسي مجرّب ، لثائر روسي وقد شعر بفراغ الصبـر وهـو يجيب عن انتقـادات امثـال ماكس إيستمان وبوريس سوفارين وفكتور سيرج : وقـال بان عليه ان يكرر ما قيل قبل عدة عقود ردّاً على ماركسيين روسيين سابقين .

يقول تروتسكي في مقالته « اخلاقهم واخلاقنا » بان المستويات الاخلاقية نسبيّة من الناحية التاريخية وانما دون شك هي قابلة للتعديل والتكييف تاريخياً . . وحاول تروتسكي ان يُري البواعث الاجتماعية للتباعد الاخلاقي بين اللينينية والستالينية ويكرر دفاعه عن الاساليب التي استخدمها النظام البلشفي . ولم يجد تروتسكي أية صعوبة في الاثبات بان ناقديه الديموقراطيين الاشتراكيين يمارسون نفس النظرية التي يتهمونه بها ألا وهي « الغاية تبرر الواسطة » وحري بالذكر هنا ان اكثر الاجزاء قيمة في « اخلاقهم واخلاقنا » هو تحليل العلاقات المتداخلة بين الواسطة والغاية وكيف ان كلا منهما تغير مكانها مع مرور الزمن وتتابع الاحداث وانه لجدال ضد أي ازدواجية سهلة كانت ام صعبة .

وقد توقع تروتسكي جواباً واضحاً عن ادعائه بان « الاخلاق ماهي الا انتاج من التطور الاجتماعي » وانه لا شيء ثابت على هذا الصعيد لذلك كتب يقول : « ولكن ألا توجد الافكار الاخلاقية الابتدائية متطورة بتطور البشرية كَكُلّ لا يُستغنى عنه لكل مجموعة متضامنة ؟ ليس هناك شك بوجود مثل هذه النظريات ولكن مدى تأثيرها محدود للغاية وغير مستقر . والعادات « الملزمة للجميع » تَقلّ شدتها كلما ازدادت حدة سلوك النضال الطبقي » .

ويستمر تروتسكي يدافع بكل حيوية عن « اللاأخلاقية البلشفية » وخاصة المرسوم سنة ١٩١٩ ، الذي سمح للجيش الأحمر بان يأخذ بصفة رهائن اقرباء قادة الجيش الذين يُتّهمون بعدم الاخلاص . يقول « انه اجراء لا بد منه في النضال ضد الظالمين » فاين اذن يكمن الفرق بين هذا الاجراء والاجراءات الستالينية في أخذ الرهائن (اولاد وزوجات

المعارضين) التي عارضها تروتسكي بكل ضراوة ؟ « ولا شك ان المبرر الوحيد للمرسوم سنة ١٩١٩ ، هو القرينة التاريخية اذ على وجه العموم لا يمكن ان نصف الحرب الاهلية الا بانها همجية تعافها النفس ولكننا دائما نستطيع ان نلتمس لها الاعذار ونجد لها اساسا » ، وربما مراعاة لهذه « الفرضيات الاخلاقية الابتدائية » التي يقرر تروتسكي بانها « محدودة للغاية وغير مستقرة » يشعر بانه ملزم بان يضيف « بان مرسوم سنة ١٩١٩ ، لم يكد يؤ دي حتى الى حادثة اعدام واحدة » ولم يحاول ان ينكر انه اثناء الحرب الأهلية ينغمس الجانبان في « همجية تعافها النفس » لأن الحقيقة المرّة والتي لا يمكن تجنبها هي « ان الجيوش المتصارعة هي نوعا ما متشابهة متناسقة . ولو لم يكن هناك شيء مشترك في اساليبهم النضالية لَمَا اوقعت الضربات على بعضها البعض » .

ثم يرينا تروتسكي كم يبدو منتقدوه في مواقف مزعزعة وانحرافات ذهنية بارزة . يتّهم فكتور سيرج مثلاً تروتسكي بانه مسموح لحزبه بان يأخذ رهائن ولا يُسمح لأعدائه بان يستعملوا نفس الاسلوب ونذكر هنا ان سيرج قد اغتاظ كثيراً بسبب ممارسات أخذ الرهائن التي وقعت اثناء الحرب الاهلية . ويجيب تروتسكي على هذا الادعاء قائلاً بان فكتور سيرج نفسه قد انضم الى حزب اليوم، في الحرب الاهلية الاسبانية « وهو حزب وقفت ميليشيّاته في الجبهة » وفي الجبهة كما نعرف جميعنا يطلق الناس النار ويقتلون . ويمكن ان يقال اذن « ان القتل يرتدي معاني مختلفة ويتوقف ذلك على مَن اصدر الأمر بذلك أكان الجنرال فرانكو او زعماء حزب سيرج » .

وتصدف نفس هذه النقطة ايضاً على صعيد حوادث تاريخية أخرى . ففي الحرب العالمية الثانية التي قرر كل من الاحرار والاشتراكيين بانها اجراء ضروري لقهر الهتلرية هذه الحرب تضمنت اعمالاً يُسمح بها لمصلحتهم الخاصة مثلاً : قذف المدن الالمانية بالقنابل واسقاط القنابل الذرية على هيروشيما ونغازاكي التي اسفرت عن قتل عشرات الألوف من المدنيين الابرياء . وما دام مثل هذه الاعمال ممكنة التبرير واذن فمن خلال هذه الناحية يمكن القول ان « الغاية تبرر الواسطة » اذ دون شك كانت الغاية المباشرة من الحرب العالمية الثانية هي « هزيمة المحور في اقصر وقت ممكن وباقل ما يمكن من الاصابات » وهذا ما جعلهم يبررون مثل هذه الاجراءات المرعبة . وان مَن قدم المبررات لمثل هذه الاعمال (ليس جميعهم لأن البعض قال انه لم تكن هناك ضرورة للقنبلة الذرية الثانية) وجد نفسه يستعمل جدلاً مشابها تماماً للجدل الذي استعمله تروتسكي في « لا أخلاقية البلشفية » مع وجود فرْق واحد ألا وهو ان تروتسكي كان عادة اكثر أمانة في مواجهة تكاليف الاعمال التاريخية .

واذن ما هي الغاية التي في نظر تروتسكي يمكن ان تبرر الواسطة التي استخدمها البلاشفة ؟ « زيادة قوة الانسان على الطبيعة والغاء تسلط انسان على آخر » . وهذا يعني في نظر تروتسكي الاستمرار بالنضال الطبقي الثوري الى ان تتحقق الإشتراكية . ولكن تروتسكي يشدد على نقطة هامة ألا وهي : كل الوسائل مسموح بها ، انما « يسمح بكل الوسائل اذا كانت بالحقيقة ستؤدي الى تحرير الجنس البشري . ومن الواضح ان هناك وسائل لا تؤدي الى هذه النتيجة . فالوسائل المستعملة اثناء النضال الثوري يجب ان « تشيع التضامن والوحدة بين العمال

الثوريين وهذا ما يجعلهم يتشربون بوعي واجباتهم التاريخية واذن فليست كل الوسائل مسموحاً بها، لم يتردد البلاشفة خلال الحرب الاهلية بان يكذبوا لكي يضللوا اعداءهم العسكريين . تماما كما فعل دون أي تردد ابراهم لنكولن في الحرب الاهلية الامريكية . ولكن تابع تروتسكي و « بقي البلاشفة مخلصين لما قالوه للعمال . لكن حتى وهذه المقاييس لا تعطينا جوابا مرضيا لسؤال : ما هو المسموح به وغير المسموح به في كل قضية على انفراد . لا يمكن ان نقدم اجوبة آلية كهذه » . فالرأي الثاقب والذكاء والخبرة والمغامرة كلها ضرورية .

وتحتوي حوارات تروتسكي ، رغم قوتها وصحتها في الناحية الاخلاقية ، على صعوبات جدّية .

١ : في الرد على التصرفات الشريرة للنظام الستاليني وجد نفسه يلجأ بشكل عفوي وبكل حرارة الى الاخلاقية البشرية ولكنه كان يصرف الوجه عنها في مناسبات أخرى كتب تروتسكي ليس فقط عن الانجراف الرجعي للستالينية ولكن ايضاً عن حطّتها وغَدْرها وهما عكس القيم الاخلاقية الممثلة بالنبل والنزاهة . ولعبت الآن « الفرضيات الاخلاقية الابتدائية » التي وجد تروتسكي بانها « محدودة للغاية وغير مستقرة » لعبت دورا كبيراً جداً في معركته ضد الدكتاتورية الستالينية . وقد كرر اتهامها بخَرْق حرمة هذا « الشعور الاخلاقي » الذي حاول في مقالته ان يقلل من اهميته : وتماما كما استطاع تروتسكي ان يرى انه في الحالات المتطرفة ليس امام العالم الاخلاقي الا ان يلجأ الى تبرير موقفه بنفس طريقته ، ويستطيع العالم الاخلاقي ان يجيب ان تروتسكي كان يتراجع في كثير من المواقف عن هذا المبدأ الاخلاقي . وليس هناك شك بان احد الاسباب

التي دعت تروتسكي لمهاجمة الستالينية بصورة مجدية بانه هو نفسه قام بمثل ذلك . ولقد ثبت بان القيام بالاحكام اللاأخلاقية كحاجة انسانية عميقة ثبت بان ذلك اقوى من تأنيب الضمير الذي يشعر به الماركسي عند القيام بها .

٢ : لكي يظهر تروتسكي انه فيما عدا المسيحية ومحبي السلام تحتاج الاعمال التاريخية بالتأكيد إلى الاصطلاح الدفاعي القائل « الغاية تبرر الواسطة » انما كل هذا لم يكن مجديا في ما يختص بالشكاوى الخطيرة التي كان نقاد تروتسكي يوجهونها قائلين ان البلشفية بتمسكها « بالغاية النهائية للبلشفية » سمحت لنفسها باستعمال وسائل محزنة لم تكن هناك ضرورة لاستعمالها ولا أي مبرر محتمل لها وقد أدّت جميعها وبشكل منتظم الى نتائج مؤذية احاقت باهداف الاشتراكية . فالمهم في مسألة اختيار الوسيلة هو ليس فقط الغاية الكبيرة المعْلَنة ـ وهي عادة فكرة خلاّبة كالبلشفية والديموقراطية ، انما هو النتيجة المحتملة التالية ، الغاية المحتملة التالية في سلسلة الوسائل والغايات . وانما ما نحتاج اليه هو كبح للعجرفة البشرية أو غطرسة الطليعة هو نوع من الحكم او الرأي يمثل غاية قريبة منظورة جاهزة للفحص او التحقيق أي انها اقرب الى الواقع الحي منها الى مجتمع لا طبقي خيالي . وهكذا فان اعتبار الاحزاب الاشتراكية الاخرى خارجة على القانون بعد الثورة قد برّره البلاشفة باسم ما تتطلبه الغاية النهائية للاشتراكية . ولكن النتائج المعروفة التي منها ابعاد مارتوف سنة ١٩٢٣ ، كانت بسبب التصلب في النظام وفقدان البقية الباقية من نُتَف الديموقراطية اي انها نتائج مناهضة للاشتراكية .

لقد طَوّر (جون ديووي) هذه بمهارة الناقد في تعليق قصير حاد

اللهجة كتبه عن مقالة تروتسكي المذكورة . لقد ميّز ديووي بين استعمالين عامين للإصطلاح « غاية » وهما : الغاية المُبرِّرة النهائية « والغايات التي هي بنفسها وسائل لهذه الغاية النهائية » . ولما كانت الغاية تشير إلى « النتائج التي يُتوصّل إليها بالفعل فمن الجلي اذن انها تعتمد على الوسائل المستعملة . ولكن الغاية المنظورة (أو الغاية المبرّرة النهائية) فانها تمثل أو بالأحرى هي نفسها فكرة عن النتائج النهائية . . » وسائل لتوجيه الأعمال تماماً وكأنها فكرة انسان عن الصحة التي يريد التوصل إليها أو بيت يريد أن يبنيه فهذه ليست مطابقة تماماً لـ « غاية » كما ينتظر من حاصل فعلي » . ويضيف ديووي قائلاً : « إن ما أسبل لقباً رديئاً على القول المأثور « الغاية تبرر الواسطة » هو أن الغاية المنظورة تستخدم عادة لتبرير وسائل خاصة ، وهكذا فانها تبرر الاخيرة التي ليس هناك ضرورة لتفحصها لمعرفة النتائج الفعلية لاستعمال الوسائل المختارة » .

وهكذا يستطيع الإنسان ان يميّز بين الوسائل المحزنة التي استخدمها البلاشفة الأوائل والتي يمكن الدفاع عنها بحجة النتائج المباشرة المحتملة (هزيمة الجيوش البيضاء) ووسائل أخرى محزنة لا يمكن الدفاع عنها مع أن لها ما يبررها على صعيد الغاية النهائية للاشتراكية . وان ما يطلبه اذن ديووي والنقاد الآخرون هو علاقة أوثق بين الوسائل والغايات ، معرفة صارمة لتشكيلها المشترك وريبة أعظم بكثير في الاستناد على « الغايات النهائية كتبرير للممارسات المحزنة » . ومن المؤكد أن أولئك الممارسين لمثل هذه الأعمال ينقلون حجّة تبريرهم من الغاية النهائية إلى النتيجة المباشرة ، ولكن على الأقل سيصبح عملهم التبريري أكثر صعوبة .

٣ : « فالمشكلة التي كان تروتسكي ونقّاده يتصارعون على صعيدها

هي مشكلة التلوّث التي لا مناص منها التي تحل بالعمل البشري فتصل إلى مأساة لا مفرّ منها . لا عمل مع الاذعان لما لا يمكن احتماله . فالعمل يتطلب المغامرة بالوصول إلى نتائج غير متوقعة ، نتائج عادة مشوبة بالوسائل اللازمة للعمل المجدي . ولا يكاد يوجد عادةً أي انسجام بين الوسائل والغايات . أما تروتسكي فانه يختار طبعاً أسلوب بروميثيس (أحد قدماء الجبابرة الاسطوريين) ، ويعتمد انحيازه الأدبي على الحاجه العقائدي بأن يرى معظم التصرفات البشرية وخاصة السياسي منها ، من خلال تصور النضال ، غالباً تصورات الحرب التي يتوجب على صعيدها التخلي عن الفرضيات الاخلاقية الابتدائية أو على الأقل الابطاء بها .

وهذه هي الاستراتيجية التي يستخدمها تروتسكي في مقالته « أخلاقهم وأخلاقنا » وبما انه على صواب عندما يقول أن النظريات الاخلاقية لا تبقى حية بصورة مرضية في ظروف الحرب فيصبح من الصعب على ناقديه أن يسبلوا على نقدهم الأخلاقي جوّا من الواقعية . ومع ذلك وحتى في قرننا هذا ، القرن العشرين ، لا يمكن اخضاع الوجود البشري الى صلابة الحرب الأهلية ولا اخضاع الوعي الأخلاقي إلى المقتضيات المفروضة على القوى المتصارعة خلال الحرب الأهلية . لقد حلّ وقت في الاتحاد السوفييتي بعد الحرب الأهلية شاع فيه سلام اجتماعي نسبي أصبحت فيه مشاكل المجتمع التقليدي والمشاكل السياسية في حالة أمن وسلام .

وأصبح من الضروري مجابهة المشاكل السياسية ذات العمر الطويل امثال التمثيل والبيروقراطية وانتشار السلطة والفساد من جديد ، كما حدث للمشاكل الأخلاقية ذات العمر الطويل أمثال : القيود المفروضة على الحكام لتجنب خفض الحياة السياسية الى حالة الرعب والفزع والعلاقات

المتناسقة بين مَنْ يحكم ومَنْ يخضع للحكم والشروط التي بها يمكن تبرير سلطات الدولة الخ . من الواضح أن هذه المشاكل لا يمكن معالجتها طبقاً للشروط التي وضعها تروتسكي في مقالته كما أنه لا يمكن معالجتها طبقاً للظروف السياسية التي مارستها البلشفية .

ويبدو لي أن المشكلة هنا لا علاقة لها بنوع خاص بالتفكير الماركسي . ففي ثنايا جميع مقالة تروتسكي نلاحظ أنه كثيراً ما يلجأ ، بشكل جلي أو غامض ، إلى فكرة « التحليل النهائي » كما قال مثلاً « وفي التحليل النهائي الدولة هي اللجنة المنفذة للطبقة الحاكمة » إذ « في التحليل النهائي » تصبح السياسة ليست إلاّ نسخة متخفية غير معترف بها للحرب الأهلية حتى ولو أن في « التحليل النهائي » لا تدل الديمقراطيةالبورجوازية إلا على سيادة الطبقة الحاكمة فهناك الكثير الذي يجب أن يُفْهم أو يُخْتبر قبل الوصول إلى هذا « التحليل النهائي » . ولكن تروتسكي لم [illegible] يولِ) هذه الناحية الصعبة من الوجود الاجتماعي الثقة الأدبية أو السياسية الكافية : فالمجتمع في نظره في حالة مستمرة أمّا للتقدم نحو الثورة أو في التراجع عنها . وكانت الحوارات الأدبية التي وجهها النقاد إلى البلشفية تتضمن دائماً قناعات مستخلصة من حوادث قرننا الحالي : بأن الديموقراطية ، سمها الديموقراطية البورجوازية إذا شئت ، ضرورة جوهرية للحياة السياسية للاشتراكيين وغير الاشتراكيين وان كل قاعدة أو رأي سياسي أخلاقي ينكر ذلك هو رأي ناقص حتماً .

ويكمن في نقد ديووي في ما يختص بـ « أخلاقهم وأخلاقنا » بكون تروتسكي يجعل النضال الطبقي حقيقة مطلقة وان الممارسة البلشفية على هذا الصعيد هي الوسيلة الوحيدة للتوصل إلى الاشتراكية . يقول ديووي

« إن الاعتقاد القائل بأن (قانوناً) تاريخياً يقرر الطريق التي يسير عليها النضال يبدو لي بأن هذا الاعتقاد يؤدي إلى تكريس جنوني غامض لاستعمال طرق معينة لتوجيه النضال الطبقي » ويختم ديووي نقده قائلاً ان « تروتسكي وهو يحاول ان يتجنب الحكم الاستبدادي المطلق ينغمس في حكم استبدادي مطلق آخر » . واذن فان ما يعنيه ديووي « بالنضال الطبقي » هو فكرة السياسة البلشفية بكاملها وهو ما لم يسأل عنه تروتسكي رغم ذكائه العظيم .

ولقد بدأ تروتسكي يُري بعض المرونة على صعيد المسألة اليهودية . وقد تمسك ترؤتسكي طوال حياته وبكل اخلاص بالخط الماركسي المتشدد وذلك بأن : الحل الأساسي لمشكلة مناهضة السامية ومناهضة التمييز والاقتصاد اليهودي غير العادي يتمركز في الاشتراكية : وان الفكرة الصهيونية ما هي إلا خيال قومي ولا يمكن تحقيقها تحت الرأسمالية . وان انفصالية « البنض «Bund ، وهي حركة اشتراكية يهودية في بولندا تجمع السياسة الماركسية مع الثقافة اليهودية ، يجب أن تقاوم بكل عنف وذلك لأن الراديكاليين اليهود يجب أن ينضموا إلى حركات البلاد التي يعيشون فيها وان لا يعزلوا أنفسهم في حارات يسارية خاصة بهم . في السنين الأولى من القرن هاجم تروتسكي بشكل عنيف « البنض «Bund متهماً إياها بأنها مؤسسة وثنية وقد نظر إليه زعماء « البنض » باشمئزاز أقوى مما شعروا به نحو الماركسيين الروس الأخرين . باستثناء هذا لم يعمل تروتسكي أي شيء في ما يختص باليهودية . ولقد شعر تروتسكي كغيره من الماركسيين الروس الذين يرجعون إلى أصل يهودي برغبة قوية نابعة من قناعة سياسية واحساسات شخصية غامضة بأن يتخذ سبيلاً مشابهاً تماماً

لاحساس الآخرين وطيلة حياته كان يشعر بأنه يتصرف بشكل لا يهودي منكراً أهمية الهوية اليهودية ومكتشفاً في دوره الثوري مادة كافية للتحديد الشخصي . ويعتقد كثير من كتاب السيرَ بأنه دون شك كان يتذكر دائماً شيئاً من اليهودية من أيام الصغر فان كان هذا صحيحاً فانـه كان شديد الحرص بأن لا يظهرها أمام العالم .

في الثلاثينات من سنة ١٩٣٠ علمنا من رسالة مدرسية كتبها جوزف نيفادا بأن تروتسكي بدأ يظهر اهتماماً مذهلاً في الاستيطـان اليهـودي في فلسطين وخاصة حركة العمل ، ويذكر نيفادا مذكرة يعرفها قليلون كتبها هرتش مندل ، وهو ترتسكي يهودي بولوني ، يذكر فيها انه سنة ١٩٣٤ عقد نقاشاً مطولاً مع تروتسكي عن هذه المواضيع في باريس . وطلب منه تروتسكي معلومات مادية عن آخر حوادث في فلسطين يقول مندل :

« كتبتُ حالاً إلى رفقائي في بولونيا بخصـوص طلـب تروتسـكي . ولكنني نسيت هذا الأمر حالاً . وقد عرفت من تاريخ الحـركة الثـورية عدداً من الثوار اليهود الذين كانوا يتذكرون من وقت إلى آخر أنهم ينتمون إلى الشعب اليهودي ولكنهم سرعان ما ينسون هذه الحقيقة واعتقدت بأن هذا ما سيحصل أيضاً في هذه المناسبة . ولكن فاتني أن تروتسكي لم يكن واحداً من الذين ينسون أشياء يعتبرونها هامة . ليس هذا فحسـب إنمـا أعلن في بدء الحرب العالمية الثانية بأن اليهود يستحقون بأن يسكنوا وطناً خاصاً بهم » .

سنة ١٩٣٧ لدى وصول تروتسكي إلى المكسيك عبّر عمّا يعتمل في قلبه بكل صراحة قال :

« خلال أيام شبابي اعتقدت بأن اليهود في مختلف البلدان سيمتزجون مع السكان وهكذا ستختفي حتماً المسألة اليهودية بطريقة آلية . ولكن التطور التاريخي لربع القرن الأخير لم يؤكد هذا الرأي . وتحولت الرأسمالية المضمحلة الى قومية متشددة وكانت احدى مظاهرها مناهضة السامية . ولقد ازدهرت المسالة اليهودية في أعظم بلد رأسمالي في أوروبا ألا وهو المانيا .

بما انه لم يعد أحد يتوقع بأن تحل المسألة اليهودية بالاندماج بسكان البلاد بصورة آلية تكلم تروتسكي الآن دون أي ثورية واضحة عن أشياء قلما اعترف بها الماركسيون المتشددون قبله أي انه اعترف « بأمة يهودية » قال :

إن اليهود في كل العالم قد خلقوا مطابعهم وطوّروا لغتهم العبرية كأداة مستعملة بصورة ملائمة للثقافة العصرية . فعلينا أن نعتبر أن الأمة اليهودية ستصون نفسها طيلة العهد القادم » .

لا يمكننا أن نتأكد من الاستنتاج الحاسم الذي كان تروتسكي يرمي إليه بهذه المحاولات نحو تفهم أكبر . ولكننا نعرف أنه استمر في اعتبار الصهيونية كحركة « غير قادرة على حل المسألة اليهودية » . ولسبب ما قال « ان النضال اليهودي العربي أخذ يكتسب صفة مأساوية متزايدة وكذلك صفة مهددة متزايدة » ولكنه في نفس الوقت كان يهزأ بفكرة « هجرة جماعية كبيرة » يقوم بها اليهود المشتتون في طول البلاد وعرضها لكي يتجمعوا ثانية في مجتمع واحد . وهذا الرأي ليس بعيداً عمّا حصل بعد بضع سنوات . وقد اعتقد أيضاً بأن الامبريالية الانكليزية ما زالت قوية كفاية لاحباط

الآمال الصهيونية ، وقد خشي بأن « تطور الأحداث العسكرية المستقبلية قد يحوّل فلسطين إلى فخ دموي لعدة مئات الألوف من اليهود » . فمن الواضح اذن انه لم يطور فكرة ثابتة بعد عن هذه النقطة . لقد كان يتحدث بعطف عن اليهود وعن الاستيطان اليهودي بصورة تختلف عن تقاليده الماضية ، وكتب نيفادا يقول : « يكاد الإنسان يعتقد بأنه في الظروف المتغيرة التي نتجت من تأسيس الدولة اليهودية والهجرة من جميع أنحاء العالم لو كان تروتسكي ما زال حيًا ليشاهد هذا الحادث التاريخي لساهم في حل القضية الصهيونية . هل نستطيع فعلاً أن نأخذ بهذه الفكرة ، على كل حال من أين لنا أن نعلم ، فالاغراء الحاصل هنا هو أننا نعتقد أن تروتسكي سيشاركنا الرأي لو بقي حيًا ، ولكنه افتراض وحسب إذ قد يكون الأمر عكس ذلك على كل حال فالنقطة الهامة هنا هي أن بيانات تروتسكي التي تدل على التردد على صعيد المسألة اليهودية أخذت تشير إلى ريبة جديدة ، شعور بعدم جدوى الاستمرار بتكرار « المواقف » القديمة . لم يكن لديه وقت كاف للتفكير بامعان في هذه المسألة فهناك مسائل أخرى أكثر أهمية في نظره ومن الجلي أنه لم تكن عنده النيّة لتخطي حدود عقائده ولكن كان هناك إدراك جديد واحساس جديد .

بالنسبة لتروتسكي كما ولمعظم الناس الآخرين في الأوساط اليسارية المناهضة للستالينية ظلت المشكلة السياسية الرئيسية هي « المسألة الروسية » كيف يستطيع الانسان أن يفسر التطورات المرعبة التي كانت تجلبها الاخبار اللاسلكية من روسيا ستالين ؟ وأخذ الأحرار حينئذ وفيما بعد يراقبون بابتهاج الجدل الملتف على صعيد طبيعة الستالينية التي

كرست أحزاب الجناح الأيسر نفسها له . وبدا هذا الجدل في أعين الأحرار مثالاً كاملاً للفلسفة الكلامية غير المجدية في العقلية الماركسية . ولكن تروتسكي كان على صواب بخصوص هذا الأمر ان لم يكن بتحليلاته المفضلة ففي تركيزه الدرسي . لقد أصبحت الستالينية تمثل مظهراً هاماً للغاية وغامضاً كل الغموض بغض النظر عن كونها إكمال نهائي للينينية أو حسب (معادلة تروتسكي) دولة عمال مُنْحطّة أو أنها انقلاب تاريخي مخيف على رأسه طبقةجديدة. كانت المناقشات الشرسة على صعيد اليسار خلال الثلاثينات من القرن العشرين تجري بواسطة المفردات السرية التي اعتمدها الحزب الماركسي وهي نوع من المصطلحات السرية كان من المستحيل أن يحلها غير المسؤول الماركسي . وكانت هذه المناقشات تجري احياناً بشكل جدل غريب هائج يكمن فيه إحساس بحيرة ثقافية عميقة . ولكنها دون شك حوارات هامة تعالج مواضيع هامة ستكررها الأجيال القادمة حتى وعبر عدة عقود ، أجيال من المحللين السياسيين أكادميين كانوا أو غير أكادميين فعلينا اذن أن نقدر لليسار المناهض للستالينية معالجته مشكلة تاريخية رئيسية فانه جدير بهذا التقدير .

في آخر سنتين من حياته انهمك تروتسكي في نقاش يتعلق بالدور السياسي والطبيعة الاجتماعية لروسيا ستالين مما استفز بعض مؤيديه الأمريكان بزعامة ماكس شخمان وجيمس برنهام,Max Shachman James Burnham ، إذ لم يرضوا عن وجهة نظر تروتسكي بكون روسيا تستحق « مساندة نقدية » في الحرب لأنها ما فتئت دولة « عمال متخلفة » (بخصوص العبارة « مساندة نقدية أو انتقادية » التي أثارت كلا الجانبين على صعيد هذا النزاع فهناك شيء غير حقيقي ! ليس هناك شيء محسوس

يتعلق بالعمل ممكن لأي من الجانبين فقد كان هناك رأي عن كيفية العمل إذا كان ذلك ممكناً) . وعندما اجتاحت الجيوش الروسية فنلندا ندّد تروتسكي بالغزو معلناً بأنه مثال آخر على الرجعية الستالينية ، ومع ذلك فقد استمر في كتاباته مؤيداً « المساندة النقدية » لروسيا وذلك لأنه رأى في الحرب الروسية ـ الفنلندية جزءاً من نضال أوسع فيا بين البرجوازية الغربية والاتحاد السوفييتي » . ولقد عكس هذا النقاش المرير صعوبات مكافحة مشاكل غير منتظرة .

حتى نهاية حياته بقي تروتسكي يعتبر روسيا الستالينية « كدولة عمّال متخلفة » وذلك لأنها احتفظت بقوانين الأملاك المؤممة وهي التي اعتبرت من « انتصارات » الثورة الروسية . وكانت وجهة نظره ان هذه الدولة ليست إلاّ مجتمعاً دون أي هدف تاريخي مستقل وانها لا تلبث أن تخضع إمّا إلبرجوازية أو إلى ثورة عمالّية جديدة . أما على صعيد البيروقراطية الستالينية فلكي تشكل طبقة جديدة ولكي يصبح للمجتمع الذي تحكمه نظام اشتراكي جديد ، لا رأسمالي ولا اشتراكي ، فلا بد من « تصفية فعلية للاقتصاد المخطط » وأيضاً الملكية المؤممة . وهذا ما لم يحصل بعد . ومع ذلك فهناك دلائل بأن تروتسكي في أواخر سني حياته عدّل موقفه ورأيه فقد كتب سنة ١٩٣٩ يقول : (الاتحاد السوفييتي) ـ (الكيان الاجتماعي لثورة اكتوبر (الصناعة المؤممة والاقتصاد المخطط) تكون النتيجة نظاماً فاشياً وانها لملاحظة قاطعة تماماً مع أن فكرة التوفيق بين كيان فاشي عظيم و « قاعدة » اشتراكية « لدولة عمالية » تبدو عملاً يُنهك حتى وامهر العقول المتمرسة بالجدل .

لقد أصر ناقدو تروتسكي ، الذين قد تطورت أفكارهم بواسطة

شختمان ، الأمريكي الموهوب ، أصروا على القول بأن مجموع خسائر السلطة السياسية التي أحاقت بالطبقة العاملة الروسية تعني أن هذه الطبقة لم تعد تحكم بأي صفة اجتماعية حتى ولا بأي طريقة مرئية حقيقية ، إذ أن هذه الطبقة لا يمكنها أن تحكم إلا عن الطريق السياسية إذ أنها ليست من أصحاب الاملاك ولا يمكنها إذن أن تحكم بطريقة غير مباشرة على غرار الطريقة التي استطاعت البرجوازية أن تستخدمها أثناء شبابها . وأضافوا بأن الستالينية لم تظهر أي دليل على استعادة البرجوازية

من داخل صفوفها ولقد أخطأ تروتسكي خطأً فادحاً لاعتقاده بأنه قد اكتشف مثل هذه الدلائل . وأضافوا بأن البيروقراطية قد أصبحت طبقة حاكمة جديدة لها مصالحها الخاصة المعارضة بشكل جلي لكل من الرأسمالية والاشتراكية ، ولقد ظهر بشكل واضح بأن الازدواجية الماركسية التقليدية التي تمسك بها تروتسكي هي فكرة خاطئة . وربما كان سبب ذلك هو تأخر الثورة الاشتراكية وحري بنا أن نقول هنا أن التاريخ خال تماماً من مثل هذه الفكرة . إنما هناك فكرة ثالثة أطلق عليها شختمان اسم « المشايعة (شيوع الملكية) البيروقراطية » ويقصد بها اقتصاد مُنَضَّد

(ذوَ طبقات) تُسيطر عليه طبقة حاكمة جديدة تستخدم الأساليب التوتاليرية بما في ذلك أساليب رعب على مقياس واسع بهدف تَعْصير المجتمع الروسي المتخلف بواسطة استغلالات ليست لها سابقة من نوعها وذلك لخلق امبراطورية روسية جديدة قوية . وقد اعتبر هذا المجتمع رجعي أكثر من الرأسمالية لأنه يحرم الطبقة العاملة الكادحة من حقوقها البدائية التي حققها العالم الغربي في أوائل القرن التاسع عشر . سواء أكان « شيوع الملكية البيرُوقراطية » هذا أمر عابر على صعيد التطور في

روسيا أو انه نظام اجتماعي جديد على مقياس عالمي » . هذا ما لم يستطع المخالفون في الرأي التروتسكيون ان يؤكدوه . وتكمن قوة تحليلهم في رفض فكرة تروتسكي غير المقنعة المتعلقة « بدولة العمال المتخلفة » أكثر منها في تشخيص كيان المستقبل التاريخي . ويبدو الآن أنهم كانوا على صواب في إصرارهم على الحداثة التاريخية للمجتمع المتطور في روسيا وهو مجتمع لا يشبه بأي شكل مجتمع رأسمالي ولا فكرة الاشتراكية ولكن يبدو أنهم لم يتقدموا خطوات أخرى أو لم يستطيعوا بأن يسيروا شوطاً آخر في تطوير نظريتهم بحيث ينجلي إلى حدٍ ما سيتكشف عن مستقبلها .

أخذ تروتسكي يجادل موجهاً الانتقادات العنيفة ضد أفكار أصدقائه المنشقين . بيد أنه ظهر في إحدى مقالاته الأخيرة « الاتحاد السوفييتي في الحرب » فقرة تتميز بصراحتها وتدل على جهود لغض النظر عن هذه التعاقيد في معاني المفردات قال :

« طالما جادل نقادنا بخصوص الوضع في البيروقراطية السوفييتية قائلين بأنها ليس فيها أي شبه للبرجوازية ولا البيروقراطية العمالية في المجتمعات الرأسمالية وعلى هذا الصعيد فهي تبتعد أكثر بكثير من البيروقراطية الفاشية إذ أنها تشكل مظهراً اجتماعياً جديداً قوياً جداً . وانني لأصرح بأن هذا صحيح تماماً ولم اتغاض عنه أبداً . بَيْدَ أننا إذا نظرنا إلى البيروقراطية الروسية كطبقة فيتوجب علينا فوْراً أن نذكر بأن هذه الطبقة لا تماثل أياً من الطبقات الملاكة التي عرفناها في الماضي . فمكاسبنا اذن ليست كبيرة . إننا غالباً ندعو البيروقراطية السوفييتية طبقة خاصة وبهذا نبرز صفتها المغلقة وحكمها التعسفي وعجرفة الطبقة

الحاكمة فيها ، هذه الطبقة التي تعْتبر اسلافها تحدّروا من شفتي براهما بينما تحدرت جماهير الشعب من الأجزاء الخشنة القبيحة من جسمه . ولكن حتى وهذا التعريف لا يحوي صفة علمية بكل معنى الكلمة ، ولكنه يبدو واضحا لكل انسان إذا لم يخطر لأحد بأن يعتبر الأقلية في موسكو صنواً لطبقة الهندوس البراهمية ولا يمكن لعلم المصطلحات الاجتماعي القديم أن يُسْعفنا باعداد اسم لحادثة اجتماعية جديدة تبدو في حالة تقهقر وانحلال ولم تتّخذ بعد اشكالاً مستقرة ثابتة . ومع ذلك فاننا كلنا ما زلنا نسمي البيروقراطية الروسية بيروقراطية ونحن بالتأكيد لسنا غافلين عن ميزاتها التاريخية . في رأينا أن في هذا الكفاية حالياً .

ويبدو أن ما أثار انزعاج تروتسكي الى حدّ كبير هو مراجعات النظريات التي اقترحها أتباعه المنشقون (انفصلوا عن حركة تروتسكي سنة ١٩٤٠) إذ أخذوا يحققون في أهمية الثورة بكاملها تلك الثورة التي يركز عليها تروتسكي سياساته . ولقد كانت مخاوف تروتسكي في محلها ، وما كانت احتجاجاتهم المعاكسة الاّ مراوغة. فإذا كانت البيروقراطية الستالينية تمثل نظاماً اجتماعيا جديداً لا هو برجوازيا ولا بروليتاريا فهناك احتمال بأن فترة حياتها لن تكون قصيرة وبذلك تستطيع أن تُوطد دعائم حياتها بمزيج من القمع العصري والاقتصاد المجاري للعصر الحديث وبالضغط على الجماهير ولكن مع مرور الوقت منحهم خبزاً أكثر . وهناك إمكانية أخرى ، إن كان نقاد تروتسكي على حق ، بأنه يجب إعادة النظر في كل الفكرة الاشتراكية ؛ إذ بالرغم عن كونهم اشتراكيين فقد فسحت نظريتهم المجال للتساؤ ل عماّ إذا كانت الطبقة الكادحة يمكنها أن تقوم بالعمل الذي خصّصتها به الماركسية ؛ أجَلْ قد تقوم بثورة ، ولكن هل

تستطيع أن تحتفظ بسيطرتها دون أن تفسح المجال إلى بيروقراطية مستبدة جديدة ، هل تملك من التماسك والنظام وقوة الرؤية لخلق اشتراكية حرّة عطوفة ؟ وهل تعود النكبة التي أحاقت بالاتحاد السوفييتي الى الظروف الخاصة بروسيا المتخلفة أو أنها كانت تشير إلى نزعة عالمية أكبر ؟ فهذه التساؤلات التي كانت تعتبر بدعة في الماضي لا يمكن ان تُكْبَت خاصة عندما يقدم المنشقون نظريتهم عن « المشاع (الشيوع) البيروقراطي » .

ويُعزى الفضل لتروتسكي لأنه رغم رفضه مثل هذه الأفكار فانه قبل في أواخر حياته بأن يواجه إمكانية كون البروليتارية غير قادرة بأن تقوم بدورها الثوري على الوجه الأكمل وفي هذه الحالة عليه أن يجري تحوّلا جوهرياً في أفكاره السياسية . يقول على هذا الصعيد :

« إذا أثارت هذه الحرب ، كما نعتقد تماماً انها ستفعل ، ثورة بروليتارية فانها دون شك ستطيح بالبيروقراطية في الاتحاد السوفييتي والى اعادة الديموقراطية الروسية من جديد على أسس اقتصادية وثقافية أعلى مما كانت عليه سنة ١٩١٨ أمّا إذا سلمنا جدلاً بأن الحرب الحالية بدلاً من أن تثير حرباً ستسفر عن انحطاط البروليتارية فيبقى أمامنا بديل آخر : ألا وهو الانحطاط الزائد للرأسمالية المحتكرة وأنصهارها مع الدولة واستبدال الديموقراطية حيثما وُجدت بنظام توتاليتاري . ولا شك بأن عدم مقدرة البروليتارية على تسلم زمام السلطة في المجتمع سيؤدي بالفعل تحت هذه الظروف إلى نمو طبقة مُسْتَغِلة جديدة .

وبما أن تروتسكي ما فتىء يعتقد في إمّا/ أوْ رد الفعل الرأسمالي/ الثورة الاشتراكية (إمّا رد الفعل الرأسمالي أو الثورة الاشتراكية) فإنه

حذف تقريباً كليا فكرة استطاعة الرأسمالية ممارسة انعاش اقتصاد اجتماعي بشكل متواصل في إطار ديموقراطي .واذن فان تروتسكي كان على صواب جزئي في ما يتعلق بنتائج فشل البروليتاريا بالقيام بالثورة : الرأسمالية الاحتكارية تقترب أكثر فأكثر في اتجاه « الإنصهار مع الدولة » ولكن « الديموقراطية حيثما بقيت » ـ أي في الغرب ـ ما كانت لتُسْتبدل بنظام توتاليتاري ولم يستطع تروتسكي رغم نظرته المستقبلية أن يحيط بالتطور الغامض وغير المستقر الذي نُسميه « دولة الترفيه للشعب » : وهي رأسمالية على صعيد علاقاتها الاقتصادية ـ الاجتماعية ولكنها نوعاً ما أقرب إلى الرأفة وذلك نتيجة لقوة الطبقة الكادحة التي ما زالت منتعشة . ومع ذلك فإذا ثبت أن آمال تروتسكي لم تكن مصيبة فهناك ما يجعلنا نعجب به لقبوله عن طيبة خاطر بأن يواجه إمكانية التخلي عن نظرته السياسية . فإذا كان الأمر كذلك فهذا يعني أنه ما زال ممثلاً سياسياً ولكنه مضطر بأن يطور « منهاجاً جديداً ذا حدّ أدنى » ـ وذلك ليدافع عن العبيد الذين يرزحون تحت نير النظام البيروقراطي التوتاليتاري .

إنها فرضية جديرة بالاعتبار ولكن أيضاً يجب ان تُرفض رفْضاً باتاً . لقد تمسك تروتسكي بالفكرة الثورية الماركسية الى آخر يوم من أيام حياته . في ما يختص بالحرب العالمية الثانية مثلاً ـ تمسك بالنظرية اللينينية عن « الحرب الامبريالية » هذه النظرية التي أعلنت للطبقة الكادحة الأوروبية بأنه ليس لها أي شأن مع أيٍّ من الجانبين : جانب القيصر الالماني او جانب البرجوازية الغربية وقيصر روسيا . ولكن بالطبع أجرى تروتسكي بعض التعديلات على موقفه على صعيد الحرب : أعلن أن الديموقراطية البرجوازية صبحت في دور الاحتضار تاريخيا ، وأما محاولة

ابقائها حية فليس الا لهواً في أيدي الفاشست لكي تساهم في انتصارهم ، ومن هذا نرى أن الطريقة الوحيدة للاطاحة بالفاشية هي الاندفاع قدماً نحو ثورة اشتراكية وبهذا نؤمّن اعادة الحياة والحيوية للجماهير في أوروبا وأمريكا . لقد اعترف تروتسكي ضمنياً خلال هذا النقاش ما لم يعترف به خلال وضعه السابق . لقد شعر معظم الناس شعوراً عميقاً بأن المانيا النازية تدل على شر اجتماعي يختلف من حيث النوعية عن الرأسمالية التقليدية وأسوأ منها بكثير ولا عجب بأن لا يهتم أحد بوجهات نظر تروتسكي : لم يكترث لها سواد الشعب كما ولم يُعيرها الاشتراكيون اهتمام وقد استنتج معظم الاشتراكيين بأن العامل الراديكالي ، الجديد أي التوتاليرية الهتلرية أجبرتهم بأن يؤ يدوا مخيّم الحلفاء مع بعض الانتقاد السياسي . فلم يكن اذن لموقف تروتسكي على صعيد الحرب ، أهمية تذكر .

أما آخر سنوات حياته فحدث عن شدتها ولا حرج . ويبدو أنه لم يتعب لا من الفقر ولا من العجز إنما ما أرهقه وحزّ في نفسه فقد كان شدة القيود والضغط اللذين كان يعاني منهما يومياً . أما أمام الجمهور فقد بقي صامداً شجاعاً واما في حياته الخاصة فطالما قاسى من فترات ضيق قاسية ، ويبدو انه مرة فكّر في الانتحار . وهناك عوامل كثيرة قد ساهمت في وصوله إلى هذه الدرجة من اليأس : السخط الذي أحس به لأنه مضطر ان يدافع عن نفسه ضد الأراجيف والتهم الكاذبة التي كانت تنهال عليه من موسكو ، خيبة الأمل التي واجهته وهو يحاول اعادة بناء حركة سياسية ، كتب إلى أحد أصدقائه في فرنسا يقول : « انني أقدم النصائح إذ لا أستطيع أن أقدم أي شيء عملي آخر » الغيظ الذي شعر به وهو يبيع بعض

الأدوات والكتب لأسباب مالية ، ما أحسّ به من الم وهو يرى كثيرا من رفقائه يتحطمون واحدا اثر آخر بسبب ظلم نظام ستالين رغم ان بعضهم لم يؤيدوا سياسة تروتسكي ابدا ، وأخيرا ما شعر به من آلام لا تطاق لانه لم يكن قادراً على اتمام العمل الذي كرّس نفسه له . كل هذه قد ساهمت في ترك آثار مؤلمة على حياة تروتسكي كيف لا وهو رجل نظامي في حياته ويعرف تماما مكانته في التاريخ والمسؤولية الواقعة على عاتقه على صعيد فكرة الاشتراكية ولكنه كان أيضا مخلوقا معقّدا حسّاسا . فقد العبر بسبب دوران الدهر ضدّه بصورة جعلته يشعر بالعجز المطلق إلا انه أواسط الثلاثينات أخذ يشعر أنه يستطيع ان يؤثر على الأحداث . لقد احتفظ بيومية تكشف عن ارتباكاته وتعاسته كما لو انه كان يتمرد ويثور ضد عدم التناسق بين قواه الذهنية وفرصه السياسية ولكن هذه اليومية تكشف أيضاً عما يكنّه فؤاده من حرارة وعطف وإحساسات مرهفة خاصة نحو زوجته الفاضلة العظيمة .

كان تروتسكي قد بلغ الستين من عمره عندما اغتاله عميل من عملاء البوليس السري السوفييتي ، رجل اسمه « جاكسن » أو رامون مركادر Jacson, Ramon Mercador . قد تمكن جاكسن هذا ان يدخل إلى بيت تروتسكي مدّعياً بانه معجب سياسي ومتطلع ليصبح تلميذاً لامرأة . في العشرين من آب سنة ١٩٤٠ دخل جاكسن على تروتسكي حاملاً مقالة قال انه كتبها رداً على المنشقين التروتسكيين الامريكان عن « المسألة الروسية » ورغم أن تروتسكي لم يكن يرى ان جاكسن يتمتع بأية مواهب سياسية فقد وافق أن يدخل مكتبه ليلقي نظرة على مقالته وكان القاتل يقبض على معطفه المشمّع بشكل عصبي وبينا كان تروتسكي منحنياً

يطالع المقالةسحب القاتل فأس الثلج (يستعمل لتسلق الجبال الثلجية) ثم اغمض عينيه وانهال به بضربة قوية على رأس تروتسكي ، صرخ تروتسكي صرخة مدوية - وقال القاتل « ما دمت حيّا فان تلك الصرخة ستبقى مدوية في أذني » ، ورغم أن جمجمة تروتسكي كانت قد تحطمت ورغم الدماء التي غمرت وجهه تمكن تروتسكي من القفز على قدميه وأخذ يقذف القاتل بالمحابر والكتب ثم ألقى بنفسه عليه . اندفع الناس إلى المكتب وانهال حرّاس تروتسكي بالضرب على القاتل وطلب منهم تروتسكي ان لا يقتلوه بل يستجوبوه ليكتشفوا الأسباب والأيدي المدبرة والنتائج السياسية ، وسارعت ناتاليا واحتضنت زوجها وهو يترنح ويسقط على الأرض متمتماً : « أحبك يا ناتاشيا » . وفي المستشفى كافح تروتسكي الموت لمدة أربع وعشرين ساعة . وقام جماعة من مهرة الجراحين باجراء عملية جراحية على جرح رأسه وكان عمقه انشين وثلاثة أرباع الانش واليكم ما كتبته ناتاليا عن آخر ساعات زوجها : قالت تهدّل رأسه على كتفه وتدلت ذراعاه كما سقطت الذراعان في « النزول عن الصليب » لتيتيان«Titian» وبدلاً من « تاج من الشوك » ارتدى المحتضر الاربطة أما سمات وجهه فقد احتفظت بنقاوتها وفخرها . . وبدا وكأنه سينتصب في أي لحظة ويعود إلى سابق عهده ثانية .

لولا ضربة القاتل لعاش تروتسكي عدداً من السنين الأخرى متابعاً كتاباته وأعماله . وانه دون شك سيكون من الممتع أن نرى كيف لو بقي حياً يرد على المشاكل الثقافية والسياسية التي أسفرت عنها الحرب وكيف يعالجها في الوقت الذي ظهر فيه لكثير من الناس حتى ولليساريين منهم ان جميع الأنظمة السياسية قد ثبت بشكل واضح انها غير كافية . وماذا يكون

برنامجه للمدافعة عن مصالح العبيد ؟ وكيف يستطيع أن يعالج مسألة عدم ارتماء أوروبا وأمريكا في أحضان الفاشية بينما فشلت الطبقة الكادحة بالقيام بأية ثورة . وهل كان سيستمر في التمسك بنظريته التي تصف روسيا بأنها « دولة عمال متخلفة » ؟ وماذا كان سيقول عن الانشقاق الحاصل بين شيوعيي العالم ؟

أعتقد ان أفكار تروتسكي كانت ستتوجه نحو إحدى ناحيتين أساسيتين : بلشفية جوهرية متشددة أو شكل من الأراء الاشتراكية غير المتيقن منها . لا نعرف أيا من الرأيين كان سيتبنى ومن الغباء بأن نعتقد بأننا نستطيع أن نعرف ذلك . لقد كان عقله مزيجاً من التصلب والمرونة : تمسك دون أي تحوّل بعقائد الماركسية ولكنه استطاع أن يقوم ببعض الابتكارات والمغامرات داخل حدود الماركسية . فالمشاكل التي عالجها في الثلاثينات من القرن العشرين كانت تختلف كل الاختلاف من حيث نوعها عن المشاكل التي اعتاد أن يعالجها . إذ قُدِّر لتروتسكي بأن يكون الشاهد الماركسي الأعظم على نكبة الاشتراكية وانتصار التوتاليتارية فواجع لم يستطع ذكاؤه العظيم بأن يتنبأ بها . لا أحد من الشخصيات الماركسية العظام عاش مثل هذه الحياة الدراماتيكية ولم يلاقِ أي منهم مثل هذه النهاية المفجعة .

كان هناك مشاكل أخرى ، مشاكل بدت طلائعها أثناء حياة تروتسكي ولكنها تبلورت تماماً خلال العقود التي تلت موته مشاكل تجعلنا نشكك ببعض آراء تروتسكي السياسية . وهل يمكن تفهم المظهر العصري للتوتاليرية غير المنطقية وبما فيها من كيان كله إرهاب لا نظير له

وميول نحو ظلم التحركات الطبقية التقليدية هل يمكن تفهم كل هذه المشاكل تفهماً صحيحاً بواسطة ماركسية تروتسكي ؟ ويبدو لي مؤكداً أن وصف تروتسكي وتحليله لتكوين كل من الستالينية والفاشية ستبقى دائماً كتابات أدبية رائعة على صعيد الفكر السياسي العصري ، ورغم أنه أدخلت على كتابات تروتسكي بعض التحسينات في نواح مختلفة فإنه من الخطأ أن نعتقد أن هناك ما تفوّق عليها من حيث روعتها الكلاسيكية .

ومع ذلك فبديهي بأن تروتسكي لم يعش ليرى الحل المريع لمشكلة الهتلرية والقباحة الشنيعة التي تمخضت عنها الستالينية في النهاية ، ولم يكن تروتسكي قد استطاع أن يعالج بنجاح فكرة التوتالبرية . في كتاباته في أواخر الثلاثينات من القرن العشرين بدأ يستعمل الاصطلاح « توتاليتارية » ولكن يبدو أنه عنى بها السياسة النازية أو الستالينية ولم يهدف الى اعتبارها مظهراً تاريخياً له اهميته . ولا يمكننا أن نوجه إليه أي لوم لعدم صوغه نظرية لم يعالجها إلا قلة من المحللين والتي ما زالت تفتقر لشخصية قائدة كماركس أو ويبيرWeber ، ومع ذلك فانه لو حاول القيام بهذا لربما كانت الاجابة المباشرة بأن عليه إذ ذاك ان يقتحم حدود الماركسية التقليدية أو على الأقل يتوسع بها بشكل لم يقم به أي ماركسي في الماضي إنما ينبغي ان لا يغرب عن بالنا وجود (صيغة معبرة وهي « الاشتراكية أو الهمجية » صيغة شارك تروتسكي في استعمالها كثير من الماركسيين واستهدفوا بها مناقشة ما سيسفر عنه مستقبل البشر ، وقد أكد تروتسكي انه ليس هناك من يستطيع أن يشرح بالتفصيل الممارسات الهمجية (البربرية) التي تنم عن أعماق الوحشية التي لا يمكن للتخيلات المنطقية بأن تتنبأ بها وأننا لنقدر لتروتسكي اعترافه بمثل هذه الامكانيات المريرة في

وقت اكتفى فيه كثير من المفكرين « الأحرار والاشتراكيين » بالأوهام المستحيلة إذ أنها دون أي ظل من شك شهادة على سمو وخصب خياله السياسي وانني لا اعتقد بأن هذه « البربرية » التي تخيلها تروتسكي والتي تجلت خيوطها وأشكالها واضحة في قرننا هذا لا اعتقد ابداً بأن في وسعنا أن نحللها بشكل مناسب للأفكار الماركسية .

وهل يمكن لنظرية تروتسكي القائلة بأن النازية تمثل آخر محاولة وحشيةللبرجوازية للاحتفاظ بالسلطة وعلى هذا فانها لم تتورع عن قتل ستة ملايين من اليهود ؟ مما لا شك فيه أن البرجوازية قد لعبت دوراً كبيراً حرجاً في بروز النازية وتسلم هتلر زمام السلطة ، ولكن من الصعب ان نرى أنّ مصالح هذه الفئة كانت معرضة لأي خطر في أوسوتش وبتشنوولد Buchenwald, Auschwitz وأرى أن تروتسكي لو بقي حياً لقال بأن انحلال البرجوازية قد وصل الى حد لم تعد فيه التقديرات المنطقية مجدية وربما أضاف قائلاً بأن جميع أنواع العنف والكراهية التي سُلّطت على البرجوازية الضئيلة العدد أو على المثقفين الذين فقدوا منزلتهم الاجتماعية في الماضي وبالاشتراك مع الحثالات البشرية التي شكلت الحركة النازية هذه كلها أخذت الان تمارس أعمالاً من العنف الشرس الذي قلّما سمع بمثيل له حتى في أشد العصور التاريخية ظلاماً . وربما كان تروتسكي يعترف بأن هذه الحملات الارهابية كانت نتيجة لتصرفات ذاتية لمصالح خاصة أغمضت أعين مَنْ مارسها عن بشاعة أعماله وتصرفاته اللاإنسانية في سبيل الوصول إلى أهدافه .

وأهم من كل هذا وعلى صعيد المشاكل الديموقراطية فقد تأثر تروتسكي تأثراً عميقاً بسبب ذبول الديموقراطية الأوروبية خلال السنوات

الواقعة بين الحربين العالميتين وقد أضفت كتابته تعبيراً جديداً مليئاً بالانفعال والعاطفة والبلاغة على صعيد ما كان يحدث في المانيا وفرنسا واسبانيا حيث عرضت أزمة الاقتصاد الرأسمالي بقاء الديموقراطية لأشد الاخطار ولكن « التحليل الطبقي » للديموقراطية كما رآه تروتسكي ومارسه لم يكن كافياً أبداً في منطقة ظهر فيها بكل وضوح ان الحرية يجب أن تعتبر أعظم ما في الحياة من حيث قيمتها للمجتمع الحديث وليست مجرد مظهر للسيادة الطبقية أو كماليات عابرة .

وإذا بقينا داخل حدود العقائد التروتسكية يصعب علينا أن نجد تعليلاً للاستقرار الملحوظ والارتفاع المرموق في مستوى المعيشة الذي تتميز به الرأسمالية الغربية مما يجعلنا نرتاب بعمق الآراء والنظريات الثورية ، قال تلامذة تروتسكي ، على الطريقة الماركسية ، مناقشين بعض آراء تروتسكي بأنه أخطأ في تكهناته عن معدل سرعة الانهيار الاجتماعي وليس في تحليلاته الأساسية . إذ وان كان العهد الذي نعيش فيه الآن لا يبدو قريباً من « الام النزع للرأسمالية » فلا يزال هناك احتمال قوي بأن الأزمة التي تنبأ بها تروتسكي قد تأخر حدوثها . بيد أن طبيعة هذا الجدال يجعلنا لا نستطيع نقضه ، فهناك اذن احتمال حقيقي بانهيار الرأسمالية على شكل الكارثة التي حلت في أواخر العشرينات من القرن العشرين وقد تفشل جميع الوسائل المرتجلة والهادفة الى بقاء الرأسمالية ، بدءاً من اقتصاديات كينسيان Keynesian إلى الاصلاح الاجتماعي . ويجدر بنا أن نتذكر بأن تروتسكي ما كان يتحدث عن انهيار « نهائي » للرأسمالية : كما ذكر الكثيرون . لقد كان يُدْلي بتكهنات أكثر دقة على صعيد النتائج التاريخية للحرب العالمية الثانية ، وكإنسان يتمتع بموهبة ترتيب الأفكار تمكن ان

يرى التغيرات الجديدة وقام بمراجعة عامة لأفكاره خوفاً من أن يكون قد أخطأ . وبالاضافة الى ذلك فان التكهنات الخاطئة عن سرعة معدل الانهيار تصبح تنبؤات خاطئة على صعيد المضمون : ـ يجب أن تنهار كل المجتمعات تماما كما يتحتم على الإنسان ان يموت ، ولكن التكهنات التاريخية لا تحظى بأية أهمية إلا بما تقدمه من المعاملات الزمنية . وأخيرا واذا تأكد انهيار الرأسمالية الغربية فليس من الجلي بأن ذلك ستُسفر عنه نكبة من النوع الذي يؤكد التوقعات الماركسية أو يرضي المستويات الانسانية .

وكذلك لم تتحقق الصفات التي قدمها تروتسكي في ما يتعلق بروسيا . فلقد حقّق المجتمع الروسي ـ بعد ستالين ـ استقراراً نسبياً ، فلا هو مهدد برجوع البورجوازية ولا هو على مسافة من الديموقراطية الاشتراكية يمكن قياسها ، ولكن هذا المجتمع احتفظ بشخصيته كدكتاتورية مستبدة مدخرة وسائل الارهاب دون استعمالها وعلى الشكل الستاليني الجنوني ، وليس هناك شك بأن تروتسكي كان سيرحب ببزوغ شمس المعارضة المثقفة والحركات الديموقراطية في ربوع المظاهر مبشراً لثورة عمالية أخرى ؟ أوَ ما كان عليه أن يحاول مناقشة مشكلة احتمال قيام ثورة جماهيرية وما هي الطرق التي تجعلها ممكنة وهي تكافح نظاماً توتاليريا مستقراً ؟ وهنا أيضاً أعتقد أن ماركسيته يجب أن تظهر بعض المرونة لكي يتمكن من أن يكون جديراً بمكافحة هذه المشاكل وتحليلها .

لا يستطيع أي مفكر سياسي بأن يتكهن بطريقة معقولة عن كل شاردة أو واردة على صعيد التاريخ . لذلك فليس من المستغرب بأن تنهار جميع الأراء الثورية الماركسية ـ اللينينية كما فهمها تروتسكي عندما واجهتها

حقائق الحياة السياسية في أواسط القرن العشرين .

كما وأنه لا يمكننا أن نعتبر فشل تروتسكي الواضح في تكهناته مزعجاً كخطيئة وهو يأبى أن يعيد النظر ببعض نظرياته الثقافية وفي آخر كتاب خطه يراع هذا النابغة الفذ يستطيع البحاثة أن يلاحظ علامة أو اثنتين تدلان على أنه بدأ يشعر ببعض القلق في ما يتعلق بالتراث البلشفي ، ولكنه لم ينفك في معظم كتاباته عن الدفاع عن هذا التراث بكل نشاط . لقد اشتغل عقله الموهوب داخل حدود سياسية ثابتة . لكن دون أن يمحّص فرضياته أو يعيد النظر فيها . ولا يمكن لأي إنسان أن يتوقع من رجل مستقيم مقتنع بوجهة نظره بأن يجحد عمل حياته كلها وليس هناك شك بأن الانتقادات الموجهة إليه على هذا الصعيد معظمها سخيف في الاسلوب والهدف . ولكن يجدر بي أن أقول هنا أن تروتسكي كعالم يهتم بالنظريات الماركسية وكناقد علاّمة انتقد بكل تدقيق وبعنف وفعالية كل حركة من حركات النظام الستاليني وبكل احتقار أنكر على الستالينية جميع ذرائعها لقمع الحرّيات مثل هذا الرجل العظيم كان عليه أيضاً أن يلتفت إلى الخلف إلى سنوات البلشفية المبكرة ويخضعها لدراسة نقدية موضوعية ولا شك بأنه كان من السهل عليه أن يقوم بذلك بسبب الزمن الذي مرّ على النظريات الماركسية ، اللينينية .

من العسير علينا أن نتصور بأن تأثير تروتسكي في المستقبل سيكون من النوع الذي توقعه : أي « تجديد الماركسية التقليدية على صعيد النظريات والثورة البروليتارية عملياً ، وعلى الخطوط التي تعرف باسم « التروتسكية » . أما ما تبقى من الفئات التي استمرت في نضالها مؤيدة

تروتسكي أو استكانت دون أن تقوم بأي عمل فانها جميعها لم تتميز بأي مقدرة على خلق أي فكرة سياسية جديدة على الصعيد السياسي كما وانها لم تستطع أن تتغلغل في صفوف العمال عملياً . اننا نعيش في زمن حطّم جميع العقائد الثابتة وحللها وهكذا فان فكرة الاشتراكية ، إذا قدّر لها أن تعيش اكثر من مجرد ذكرى تاريخية أو كبطاقة غير ملائمة مرفقة بالدول المستبدة ، هذه الاشتراكية إذا قدر لها ان تعيش فستمر في تغييرات وتحويلات ومراجعات انتقادية قد تنتزع عنها حللها في السنين القادمة ، أما على صعيد الجهود التي بذلت في أوروبا وأمريكا خلال العقود الحديثة لنفخ روح جديدة في فكرة الاشتراكية ـ جهود بعضها له قيمته من حيث التأثير وبعضها لا قيمة له ـ فقليل جداً منها قد سار على خُطى البلشفية التقليدية .ما أكثر المفاجآت التي يواجهنا بها التاريخ وما أكثر السيئة منها . وان المرء ليرتاب في أن التاريخ سيسمح بتكرار ما بحث عنه تروتسكي . وأناشدكم الله هل هناك مَنْ يتمنى العودة الى تقاليد « دكتاتورية العمال » ـ حتى بين مَنْ يتمسك منا بوجهة النظر الاشتراكية بشكل متشدد ـ أو هل هناك من يتمنى العودة إلى « حزب الطليعة » وما إلى ذلك من الأفكار ؟ ومهما كان مصير الاشتراكية فلا أرى أية امكانية محتملة في البلاد الصناعية لقيام أية حركة جماعية تسير على الخطوات التي اقترحها تروتسكي أما بخصوص تقليد الماركسية بشكل هزلي مضحك في « العالم الثالث » فاننا جميعاً دون شك وبكل تأكيد نعلن بأن تروتسكي لو كان حيّاً لتبرأ من هذه كلها وبالرغم من تكهنات تروتسكي الفخمة على صعيد مستقبل « دُوَليته الرابعة » فحري بي أن أذكر هنا بأن التروتسكية كحركة سياسية لم يعد لها أية أهمية سياسية منذ عدة سنوات ولم يعد لها أيضاً أيّة أهمية ثقافية لقد أصبحت عقيدة متحجّرة .

ومع ذلك فانني أعتقد بأن الجزء الأكبر من كتابات هذا الرجل غير الاعتيادي سيبقى حيّاً وان نشاطه وشجاعته وجهوده ستبقى مثالاً تحتذي به الأجيال القادمة . وينكب المراطقة في بلدان شرق أوروبا على كتب تروتسكي المحرّمة عليهم ليس للتعلم والارشاد انما لفتح أبواب للمناقشات والجدل ، أما في الغرب فعلى المفكرين السياسيين أن يواجهوا وجود تروتسكي الهائل محاولين تجنب فرضياته الحادة ومتعلمين دروساً لا تنسى من أخطائه البارزة . إنّ كتب تروتسكي تسمو على كل نزاع سياسي . إنها جزء من تراث قرننا لأن تروتسكي جسّد الأزمة التاريخية العصرية بقوة عظيمة من الوعي وموهبة للاستجابة الباسلة التي قلّما يستطيع أن يجاريه فيها أي من معاصريه . لقد حاول ، بطرقه الخاصة ، أن يكون يداً لزمنه . حتى وأولئك الذين لا يولون كتابات تروتسكي أي اهتمام لا يستطيعون إلا أن يعترفوا بأن ليون تروتسكي في قمة سطوته وفي سقوطه ، من أعظم جبابرة قرننا .



ملحق

أرى أنه يستحيل علي أن أكتب عن تروتسكي ، ذلك العبقري المخلص لمبدئه ، دون أن أضيف بضع كلمات أسرد فيها سيرة اسحق دوتشر Isaac Deutcher الكاتب الموهوب الذي اتحفنا بثلاثة مجلدات أسهب فيها بالتحدث عن حياة تروتسكي ، كما وأنني لا أظن أن هناك أي احتمال في المستقبل القريب بأن يقوم كاتب ما بسرد لحياة هذا الماركسي الثائر الذي حمل معه شعلة في الفكر رفعها لتضيء الطريق نحو هدف بقي طوال حياته يعتبره اسمى هدف لرفاهية جماهير الشعب . أقول بأنني استبعد قيام كاتب ما بتقديم سيرة مماثلة لما قدمه دوتشر من حيث كونها مرجعاً واضحاً كاملاً عطوفاً دون تحيّز ، ولكن دوتشر جاء بنظرية عن الستالينية تتطلب مجابهة جدّية ، اتجاسر بأن أقول : تحتاج الى التحدي والرفض . وخاصة لأنه يميل بأن يضمها الى أفكار تروتسكي وعلى قراء هذا الانجاز العظيم الذي اتحفنا به دوتشر أن يعرفوا أين تنحرف أفكاره عن أفكار تروتسكي فتبدو لنا مبتذلة .

وعندما بدأ دوتشر في تحليل النظام الستاليني رفض بأن يعتبره منفصلاً انفصالاً تاماً عن النظريات الاشتراكية التي تقدم بها في الأصل لينين وتروتسكي . وبينما أظهر دوتشر عداءه المطلق للارهاب الستاليني ومناوأته الشديدة لنظام « المشاع » الاجباري وجعل الفساد ينخر في كيان الثقافة فانه مع كل ذلك يُصر على اعتبار الدولة الشيوعية شكلاً من أشكال « التقدمية » . يذكر دوتشر في مجلده الثاني أن عقود الستالينية يجب أن يطلق عليها إسم « التجمع الاشتراكي البدائي » وهذه العبارة الأخيرة استعارها دوتشر من معجم تروتسكي ليصف فترة زمنية فيها تجمع دولة

العمال رأس المال الذي تحتاج إليه لتصبح مجتمعاً اشتراكياً لا طبقياً .

يعتقد دوتشر أن دكتاتورية ستالين حافظت على انتصارات ثورة اكتوبر ووسعتها وعلى صعيد هذه النظرية أظهر تروتسكي كرمه بالقياسات والمناظرات التاريخية بخصوص الثورات الانكليزية والفرنسية وبواسطة هذه المضاهاة استطاع أن يقارن ستالين بالمستبدين الثوريين الذين عاشوا في الماضي والذين حافظوا على منجزات أسلافهم المثاليين وانما بشكل فاسد . وفي هذا الرأي الذي يشارك دوتشر به قلة من اليساريين المؤيدين للحكم الاستبدادي أصبح النظام الستاليني يعتبر حادثة محزنة إنما عابرة يُرثى لها وإنما لا يمكن تجنبها ، على صعيد بناء الاشتراكية .

تتمثل قوة حوار دوتشر في تصميمه على منح الصفة الشرعية لستالين كحاكم مستبد أنجز الضروريات التي لا غنى عنها في التاريخ على الرغم من قساوتها . وقد رفض دوتشر (قبول كون فكرة) « التجمع الاشتراكي البدائي » اثناء سنوات ستالين يمكن ان توصف بأنها « تجمع بدائي مناهض للاشتراكية » ولم يوافق ابداً على أن نظام التصنيع الذي أدخله ستالين أدّى إلى شكل جديد من أشكال المُشاع الاستبدادي أي إلى مجتمع طبقي ظالم لا هو رأسمالي ولا اشتراكي .

وستبقى هذه النظرة السياسية ، على ما تحوي من كل أنواع الترددات والعناء لها قيمة جوهرية في عين العالم الشيوعي . نجد هذه القيمة عادة في تأميم الممتلكات التي ينظر إليها كضامن نهائي للتقدم . وبينما تحدث ماركس عن « أمر جوهري لا بد منه » إلا وهو حتمية الثورة على كل

الظروف التي يكون فيها الإنسـان مخلوقـاً لا قيمـة له ، ذليلاً مُسْتسْلِماً ومحتقراً . يفضل اليسار المستبد بأن يتحدث عن سرعـة تقـدم التصـنيع الروسي أو عن ضرورة الكشف عن « قوانين التاريخ الفولاذية » . وبينما أعلن الاشتراكيون عن امكانية وجود مجتمع انسانـي يرتـكز على مقـدرة الناس بأن يعملوا بطريقة ذاتية حرة نرى اليسار المستبد قد وضع كل ثقله مؤْمناً بالتطور الاقتصادي الذي طوروه أو المعنويات العاملة في ما وراء رغبات الإنسان الحي وعادة معنويات تناقض رغبات الناس .

إن مَنْ يقبل بوجهة النظر هذه يتوقع تطوراً منتظماً ، تقدماً تدريجياً نحو الديموقراطية داخل العالم الشيوعي . ويترتب على ذلك بأنه يتوجب عليهم أن يشاهدوا الثورة في شرق أوروبا سنة ١٩٥٦ كما رآها دوتشر :

حاول شعب المجر (هنجاريا) بتهييج عظيم باسل عن غـير عمـد ارجاع عقارب الساعة الى الوراء ، بينما قامت موسكو بملء الساعـة مرة أخرى ودفع عقاربها قدماً بالحراب أو بالأحرى بالدبابات والمصفحـات وآلات الدمار الأخرى واعادت بذلك انتظام عمل ساعة الثورة الشيوعية المجرية . ومن البديهي ان نلاحظ هنا أن دوتشر استعمل عبارة « عن غير عمد » على صعيد عمل الثوار المجريين معتبراً ثورتهم دليل تخلف أو أنها عمل مناهض للثورة بينما نظر إلى الاجراءات التي قامت بها الدكتاتورية الروسية ، على تعسفها ، كوسيلة لازمة للحياة في المستقبل . فلا عجب إذن ان رأينا دوتشر لا يشترك بالرأي مع أولئك الذين حاربوا ضد آلات الحرب الروسية في بودابست أو في الأماكن الأخرى .

ليس هناك مجال للتساؤ ل عن أهمية هذه القضية السياسية بالاضافة

إلى أهميتها الاخلاقية العظيمة . وبغض النظر عمّا في نظرية تروتسكي الستالينية من الضعف فانه هنا على طرفي نقيض مع دوتشر إذ عندما ناقش دوتشر أطروحة تروتسكي التي كتبها سنة ١٩٣٩ والتي تحدث فيها عن مستقبل البشرية في حالة فشل الاشتراكية يقول دوتشر على لسان تروتسكي في الأطروحة « من البديهي أننا سنحتاج إلى برنامج جديد ذي حد أدنى لندافع عن مصالح العبيد في النظام البيروقراطي التوتاليتاري » ويعلق دوتشر على ذلك بقوله :

« لا غرو فان القطعة من ميزات الرجل : فاذا ، كما يقول تروتسكي ، كانت العبودية البيروقراطية هي كل ما يدّخره المستقبل للجنس البشري فانه سيكون منحازاً الى جانب العبيد وليس الى جانب الحكام المستغلين الجدد مهما كانت هناك ضرورة تاريخية لهذا الاستغلال الجديد . وبما أنه قد قضى كل حياته وهو مقتنع تماماً بأن التاريخ دائماً يساند المناضلين الذين يكافحون في سبيل تحرير واعتاق المُستغلين والمظلومين فانه دأب الآن على الطلب من تلاميذه بأن يستمروا في تأييد المُستغلّين حتى ولو كان التاريخ وكل الحقائق العلمية تقف ضدهم . فإنه (تروتسكي) على كل حال سيكون مع سبرتاكوس Spartacus وليس مع بومبي - قيصر Pompy- Caesars .

إنها لقطعة تسترعي الانتباه . ليس فقط لأنها رمز لتقدير مساندة تروتسكي للمظلومين حتى ولو كان مصيرهم بأن يظلوا مظلومين إنما لأنها بكل وضوح تظهر ولو بشكل ضمني بأن دوتشر يأبى بأن يجاري سبارتاكس وهو يسير على طريق العذاب ، وذلك لأنه يساند باستمرار « الضروريات التاريخية » لجميع أنواع الأنظمة المماثلة للنظام الستاليني

واننا لن نستغرب هذا من دوتشر بعد أن وقفنا على آرائه .

من البديهي أن نظرية دوتشر تأخذ بعين الاعتبار الجانب الاستبدادي من آراء تروتسكي ولا تولي أي اهتمام للجانب الديموقراطي الثوري . إنها تخُضع إلى معنويات التطورات التاريخية أو التقدم التكنولوجي كل الواجبات والأعمال التي لا يمكن أن تُكْسب إلا بواسطة النضال البشري الواعي . بيد أن دوتشر كان يعاني من مرض عصري : إلا وهو الهيام بالتاريخ . ولم يتعلم أبداً بأن التاريخ كالمرأة العاهرة مهما اختلفت الآراء في التاريخ الإنساني ومهما صعب التكهن بها .



ملاحظـات

١ ـ الأعوام المبكرة ، النظريات الأساسية

٢ ـ يتحدث اسحق دوتشر عن هذه الفترة بلغة مختلفة نوعاً ما : يقول :

لم يخطر ببال تروتسكي بأن حزب عمال في المدى البعيد قد يحكم ويتسلط على بلاد واسعة شاسعة ويحكم أكثرية السكان . ولـم يستطـع تروتسـكي أن يرى بأن الثـورة لا بد وأن تؤدي إلى حكم طويل الأمـد للأقلية . لقد كان احتمال مثل هذا الحكم مفهوماً ضمناً في نظريته ولكن لا بد من أنه قد بدا له ، كما بدا لكل معاصريه تقريباً ، بأن حكم الأقلية هذا لا يتفق مع الاشتراكية . وانني لمتيقن تماماً بأنه لم يتصور أبداً ، رغم كل ما كتبه بمهارته الأدبية عن لينين ، بأنه سيأتي وقت تتخلص منه الثورة من عزلتها وضعفها فتبرز في حلة توتاليتارية .

طور هذه النقطة ريتشارد لوونتولRichard Louwenthal فقال :

إن الحزب البلشفي في أيام لينين ، مع أنه بطبيعة الحال مستقل عن مصالح الطبقة الكادحة وذلك بفضل تنظيمـه المركزي كان هذا الحـزب قائماً على عضوية بروليتارية سائدة ومحالفاً لمجموعات هامة من بروليتارية غرب أوروبا ، بينما في حالة حزب « ماو «Mao» في هذا الزمن ، أصبح الادعاء بأنه يمثل البروليتارية الصناعية ليس إلا وهماً وحبراً على ورق ،

أن هذا الحزب لا يرتكز على تاريخه ولا على نفوذه العالمي وإنما على الفكرة الباقية التي تعلن بأن كل من يقود نضالاً ثورياً عسكرياً ضد الرأسمالية الامبريالية المحتكرة يُعبر في حد ذاته عن الوعي الطبقي الحقيقي للبروليتارية .

ومع ذلك ففي نضاله ضد كل من الماركسية واللينينية يرتكز نظام « ماو » الجديد على بعض الحقائق التاريخية لعهدنا هذا . فمنذ موت لينين أي مدة أربعين سنة أصبح عمال البلدان الصناعية المتقدمة أقل شعوراً بالروح الثورية ونتيجة لذلك لم يكن في وسع الشيوعيين في مثل هذه البلدان أن يقوموا بأي حركة ثورية ظافرة . بل على العكس من ذلك ففي البلدان المتخلفة حيث عاشت حشود ضخمة من الشعب في حالة جوع وسغب شديدة كما وأن هذه الحشود لم تكن تتمتع بأي ظروف أمنية فهنا يمكننا أن نقول أن الجماهير « لم يكن لديها ما تخسره الا السلاسل والأغلال » في هذه التربة أتاح اليأس للجماهير فرصا لعدد من الثورات الظافرة من ضمنها ثورات شيوعية . لقد جعل مجرى التاريخ الحديث من المستحيل على الزعماء الشيوعيين بأن يستمروا في إخلاصهم لاعتقاداتهم اللينينية الماركسية في الطبقة العاملة الصناعية والى شغف لينين للنضال الثوري في نفس الوقت مع أنهم حاولوا جهدهم بأن لا يعترفوا بهذه الحقائق حتى لأنفسهم . واما الزعماء الصينيون فتحت الضغوط التي واجهوها في نضالهم مع السوفييت ، وبسبب ضآلة الروابط التي كانت تربطهم بالماركسية الأوروبية وبالبروليتارية الصناعية بسبب هذه الضغوط والروابط اختار الصينيون : « بأن يكونوا ثوريين كُلياً إنما هامشياً بروليتاريين » .

٢ ـ اغتصاب السلطة :

١ ـ بعد أمد قصير من ثورة سنة ١٩٠٥ تلك الثورة التي ظهر فيها السوفييت لأول مرة قدم لنا تروتسكي وصفاً شاملاً قاطعاً لدورهم التاريخي قال :

برز سوفييت النواب العمال اتماماً لحاجة موضوعية ـ ولدها مرور الأحداث ـ لمنظمة تمثل السلطة دون ان تشتمل على تقليد ، أي لمنظمة على استعداد لتطويق واحتضان مئات الألوف من الحشود المبعثرة دون أن تفرض عليهم كثيراً من القيود التنظيمية ، منظمة توحّد التيارات الثورية داخل البروليتارية ، منظمة تستطيع أن تمسك بزمام المبادرة وتشرف على السلطة بشكل آلي . وأهم من كل هذا : منظمة يمكن خلقها خلال أربع وعشرين ساعة .

كتب تروتسكي هذه الأسطر قبل أن يصبح بلشفياً فليس فيها أي ذكر عن « سيادة » أو « قيادة » حزب الطليعة .

٢ ـ يؤيد هذه النقطة الزعيم المنشفيكي المحنك رفائيل ابراموفتش Raphael Abramovitch في كتابه « الثورة الروسية » كتب يقول :

لا تستطيع الحكومة الموقتة أن تقوم بالشيء الوحيد الذي كان قد يحافظ على تقدير الجماهير وأعني به : شن هجوم نشيط لا لبس فيه ولا ابهام نحو السلام . وما فتىء الزعماء المدافعون.المنشفيك مع الزعماء الراديكاليين يرغبون بصيانة الإئتلاف مع الجماعات البرجوازية الحرة وكذلك صيانة الانسجام في المخيم المتحالف .

السوفييت (المجالس) وعلى الجماهير وعلى الثورة بأسرها ».

٣ ـ البلشفية تنال من نفسها :

١ ـ في أواخر الثلاثينات من القرن العشرين قدم تروتسكي مرة ، باستهزاء ، ملاحظة انتقد فيها الكاتب الفرنسي هنري باربيز Henri Barbusse الذي قال بأن انتصار ستالين على تروتسكي « أظهر بأن ستالين على صواب : قال تروتسكي ساخراً أنها لطريقة مُثلىٰ في تبرير قيام هتلر » . وأعتقد أن تروتسكي هنا وهو يوجه هذه اللطمة الرابحة الى بار بيز الكاتب غير الذائع الصيت ربما كان قد تذكر ما خطه يراعه في كتابه « الارهاب والشيوعية » .

٢ ـ صاغ تروتسكي عبارة حية لوصف رجع (رد فعل) الفلاحين : انهم يؤ يدون البلاشفة الذين طردوا مُلاك الأراضي ، وانهم يناهضون الشيوعيين الذين استولوْا بصورة رسمية على الفائض من محصولاتهم ـ وأحياناً أكثر من ذلك .

٤ ـ قيام الستالينية

١ ـ علينا أن نناقش هذا البحث بالتفصيل آخذين بعين الاعتبار سيرة حياة تروتسكي العملية وبكل امعان . لقد كتب تروتسكي وتحدث بغزارة وتطويل عن الأحداث في المانيا وفرنسا خلال هذه السنين حاثاً على تطبيقٍ مرنٍ للإستراتيجية البلشفية دون أن يشك فيما إذا كانت هذه الاستراتيجية صالحة للتطبيق في غرب أوروبا ، رغم المحاولات المجهدة لم يستطع البلاشفة الروس إلاّ أن يتبنوا علاقة تعليمية مع تلامذتهم الأوروبيين بيد أن بعض أولئك التلامذة ما كانوا أذكياء كثيراً . ولقد تميزت أفكار

تروتسكي في هذا الوقت وشاركه في ذلك البلاشفة على وجه العموم - بوجوب اظهار البراعة في تقديم التحليلات الثانوية وبالتدريج يزداد التشدد في تثبيت الفرضيات الابتدائية .

٢ ـ إذا أخذنا بعين الاعتبار الفقر السائد في ذلك العهد يعتبر كل فلاح يمتلك حصاناً ويتحمل استئجار عامل موقتاً ، في صفوف الاغنياء .

٣ ـ قد يجد بعض القراء متعة إذا قدمت لهم في هذه « الملاحظة » ملخصاً لتاريخ النضال الحزبي داخل صفوف البلشفية خلال العشرينات من القرن العشرين وقد كنت بحثت في القضايا السياسية والعقائدية في نفس النص في هذا الكتاب .

حتى وقبل موت لينين تشكل في قمة الحزب زمرة من الموظفين المحنكين الذين كانوا قد مارسوا الخدمة لعدة أعوام في جميع أجهزة الحزب . وعلى رأس هذه الزمرة برز المثلث (Troika) « ستالين ، زينوفييف وكامينيف Stalin, Zinoviev, Kamenev وكان جلّ همهم منع تروتسكي من تسلم زمام الزعامة إذا مات لينين . وبدأت تحاك المؤامرات والمكائد المريرة وقد هزم فيها تروتسكي وهناك عدة أسباب أدت إلى هذه الهزيمة :

أولاً لأنهم كانوا ينظرون إليه كوافد جديد أو بالأحرى كمتطفل بين ذوي النفوذ البلاشفة ثم لأنه لم يقدر قوة التشكيل البيروقراطي الذي يتزعمه ستالين حق قدره وأخيراً لأن الحالة المتزايدة للجو المرهق اللاأخلاقي الذي وصلت إليه البلاد « والحزب أيضاً » فسح المجال للهجوم المثلث المحافظ (الترويكا : وهي زحافة روسية تجرها ثلاثة جياد) . (Troika)

٣ ـ عاد تروتسكي الى الكتابة عن هذه الفكرة عدة مرات محاولاً أن يجد طرقاً للتوافق فيما بين ماركسيته وفهمه لدور لينين الحاسم . كتب في مفكرته لشهر آذار سنة ١٩٣٥ ما يلي :

لو لم أكن أنا شخصياً موجوداً في بيترسبورج فان ثورة اكتوبر كانت ستحدث دون وجودي بشرط أن يكون لينين موجوداً وأن يكون هو القائد . أما لو لم أكن أنا حاضراً ولم يكن لينين موجوداً لما حدثت ثورة اكتوبر : إن قيادة الحزب البلشفي ستكون المسؤولة عن هذا المنع وانني لا أرى أي ظل من شك في هذا .

فماذا جرى إذن « بالمادية التاريخية » ناهيك عن التحليل المتقن الذي قدمه تروتسكي في مختلف كتاباته التي استهدف فيها بأن يُرى بأن الثورة البلشفية ما هي إلاّ نتيجة لأزمة للتطور الروسي .

٤ ـ كتب سوخانوف Sukhanov كاتب المذكرات المنشفيكي الشهير بأنه عندما غادر المنشفيك والراديكاليون المؤتمر ، أطلقوا أيدي البلاشفة فأصبحوا سادة للوضع فخضعت لهم الساحة الثورية بكاملها . ان نضالاً داخل المؤتمر في سبيل جبهة ديموقراطية متحدة كان له أمل عظيم بالنجاح ، ولكن بمغادرتنا للمؤتمر سلمنا بأنفسنا زمام احتكار السيادة في

في خريف سنة ١٩٢٣ أصدر جماعة من البلاشفة البارزين بما في ذلك بعض الزعماء امثال بياتاكوف بريئبرازنسكي ومورالوف وايفان سميرنوف وأنطونوف ـ أوزينكو Piutakov, Preobrazhensky- Muralov, Ivan Smirnov, Antonov- Ovseenko بياناً مفصلاً هاجموا فيه الترويكا (المثلث) ودعوا إلى خطة اقتصادية متوازنة وطلبوا في بيانهم اعادة تنشيط

ديموقراطية الحزب . يعتبر هذا تقدماً ملموساً نوعاً ما أثبت فيه حزب اليسار أو التروتسكيين وجودهم بشكل رسمي . لم يكن حزب اليسار المعارض حزباً متماسكاً على الاطلاق إنما برز فيه عدد من ألمع الشخصيات البلشفية ثقافة أضف إلى ذلك أن هذا الحزب اكتسب تأييداً كبيراً بين الشباب .

فشعر مثلث ستالين ـ زينوفييف ـ كامينيف بالذعر والهلع وأخذوا يمارسون هجوماً وحشياً وبشكل متزايد ليس فقط على التروتسكيين وانما لِسحق كل رأي متمرد داخل صفوف الحزب . وأخذت آلة الارهاب تضرب بيد من حديد على جميع مراكز اليسار المعارض فخلعت الزعماء اليساريين من مناصبهم وهددت الجنود المتعاطفين مع اليسار بأشد انواع الاجراءات التأديبية . واستمرت معركة المقالات والخطب والمجادلات حتى حوالى سنة ١٩٢٦ عندما اعترف تروتسكي بأنه هُزم واتخذ موقف انتظار هادىء . وبالفعل حُلت جميع احزاب اليسار المعارضة مع أن زعماءها ما زالت لهم اتصالات ثقافية . وقد خافوا بأن يُفْصلوا عن الحزب اذا استمروا في نضالهم وبذلك يُحْرمون من الحياة السياسية .

وحصل أثناء ذلك انشقاق بين الترويكا فقد خشي زينوفييف وكامينيف من السلطة الهائلة التي ما فتىء ستالين يجمعها بين يديه كما وان خشيتهم زادت بالهزيمة الحاسمة التي احاقت بتروتسكي إذ أنهم رأوْا بأن ستالين لن يعود بحاجة إليهما لذلك فانهما أخذا يحشدان مؤ يديهما . في نيسان سنة ١٩٢٠ اجتمع تروتسكي وزينوفييف وكامينيف بصورة سرية ،وذلك لأول مرة منذ عدة سنوات ، (وعندها) عبّر حليفا ستالين السابقين عن خوفهما بسبب قسوة ستالين وشغفه الشديد للسلطة ،

ويظهر أنهما قد تفهما أكثر من تروتسكي صفة هذا الدكتاتور وما سيؤ ول اليه في المستقبل ، على كل حال فقد تشكلت كتلة جديدة ، كتلة معارضة مشتركة ضمت معظم المنشقين من داخل الحزب . ويقدّر عدد من تسجل في هذه الكتلة المعارضة المشتركة اكثر من ثمانمائة عضو . بيد أنه بسبب الفزع من مخالفة القيادة الحزبية فان عدد المتعاطفين كان أكثر بشكل ملموس . لقد بلغ عدد الأعضاء المسجلين في الحزب سبعمائة وخمسين ألفاً إلا أن معظمهم كان جديداً وغير متمرس سياسياً وقد اعتادوا على الطاعة الايجابية دون أي تساؤ ل تلك الطاعة التي أصبحت من قواعد الحزب الاساسية . يقدر دوتشر ان عدد الأعضاء الذين كانوا يمارسون النشاطات داخل الحزب لم يزد على عشرين ألف شخص .

لم تلاق المعارضة المشتركة أفضل مما لاقاه اليسار المعارض . لقد أصبح الآن معظم جهاز الحزب في يدي ستالين . لقد أصبح الاستبداد والظلم مألوفين عملياً وقد انحدرت المستويات الاخلاقية والمعنوية داخل صفوف الحزب الى أدنى الدركات . وعندما كان زعماء المعارضة يحاولون ان يتحدثوا الى عمال مصنع ما كانوا يُمنعون بالقوة .

خلال أشهر معدودة تمكن جهاز ستالين من تحطيم العمود الفقري التنظيمي للمعارضة المشتركة وأسفر ذلك عن استسلام رسمي للقوة ، إنما لم ينتج عن ذلك منع للآراء . ومع ذلك فقد استمر النضال لمدة أخرى وفي نهاية سنة ١٩٢٧ حصلت الضربة القاضية عندما فُصِل من الحزب الف وخمسمائة من التروتسكيين ومعظم أنصار زينوفييف استسلموا وفي أوائل سنة ١٩٢٨ أرسل تروتسكي الى المنفى كما أُبعد عدد كبير آخر من المتمردين .

وبقيت هناك معركة مكشوفة واحدة وهي بين ستالين وحليف الأمس القريب بوخارين الذي أصبح الآن زعيماً لجماعة من الشيوعيين اليمينيين . أواسط سنة ١٩٢٩ انتهى الخصام بانتصار ستالين انتصاراً ساحقاً وتحطمت جماعة بوخارين .

جرت جهود سرية قليلة داخل الحزب في الثلاثينات من سنة ١٩٣٠ لتنظيم معارضة لدكتاتورية ستالين ولكن هذه الجهود ذهبت أدراج الرياح .

٤ - إن إحدى الحوادث المؤسفة تتعلق « بوصية لينين » وقد اثنى فيها الزعيم البلشفي على الشخصيات الرئيسية المحيطة به ثم اقترح بأن يُعزل ستالين من وظيفة السكرتير العام للحزب . طُمست معالم هذه الوثيقة بعد موت لينين . ولكن سنة ١٩٢٥ سجل الكاتب الراديكالي الامريكي ماكس إيستمان Max Eastman في كتابه « منذ موت لينين » نسخة دقيقة صحيحة عما كتبه لينين في وصيته . وعندما ألح المكتب السياسي للحزب الذي يرأسه ستالين على تروتسكي بأن يصدر نفيا علنيا لما كتبه إيستمان فقد اضطر تروتسكي بأن يوقع هذا البيان المذل الذي ذكر فيه « بأن كل حديث عن وصية لينين وبكونها قد أخفيت أو انتهكت هو كذب خبيث » وقد شرح تروتسكي فيما بعد الدواعي التي قادته إلى هذا العمل غير اللائق والمهين بأن زعامة المعارضة اضطرته إلى ذلك زاعمة بأن المعارضة ليست على استعداد للقيام باثارة معركة لأجل هذه المسألة فاضطُر إلى التوقيع وأسْمحُ لنفسي بالقول هنا أنها ليست الكذبة الأولى ولا الأخيرة التي تعتبر « كذبة لا بد منها » على الزعماء من مختلف الشعوب والاجناس ان يمارسوها ولكنها في ما يختص بتروتسكي تبدو مريرة موجعة . ولقد مرّت

عدة سنوات على المطابع الشيوعية الرسمية وهي تعاود نشر بيان تروتسكي لسنة ١٩٢٥ مع أن الجميع يعرفون بأنه وقّع البيان قسراً .

٥ ـ يلاحظ أحد كتاب سيرة تروتسكي غير المتعاطفين معه انما يظهر الفطنة على صعيد هذه الحادثة فيقول :

لا مراء بأن نظرة تروتسكي المثالية المترفعة الفلسفية على الصعيد السياسي هي التي جعلته يُسيء فهم ما كان يحدث بالفعل ، لقد أصيب بسبب هذا بتشتت الرؤ ية على صعيد قوة الجهاز الحقيقي . وجعلته ، هذه النظرة المثالية ، يعتبر نفسه كنبراس للبلشفية يُحتذى به لمجرد كونه متمسك بفكرة الحزب ولم يعتبر بأن فشله ذو علاقة بهيئة موظفي الحزب . (جول كارمايكل- تروتسكي) (Joel Carmichael) .

٦ ـ أخذ تروتسكي في هذه المقالات أولا يجُمل ما سبق وفصل من الأراء الماركسية التقليدية عن البيروقراطية وأحياناً يحاول جهده لحل نظرية تفسر البيروقراطية بأنها أكثر من مجرد نقص اجتماع وحكم طبقي قال تروتسكي :

« لا يجدُر بالماركسي أن يعتبر بأن البيروقراطية ليست إلا مجموعة من العادات السيئة التي يتصف بها أصحاب المناصب . فالبيروقراطية ظاهرة اجتماعية إذ انها نظام إداري محدود للرجال والأشياء وتكمن الأسباب العميقة لهذا النظام البيروقراطي في المجتمع غير المتجانس وفي الاختلافات اليومية فيما بين المصالح الحيوية لمجموعات السكان المتنوعة . يعرقل ويعقد البيروقراطية الافتقار الى ثقافة الجماهير . أمّا بالنسبة لنا فان مصدر البيروقراطية الجوهري يكمن في ضرورة خلق جهاز دولة يوحد مصالح

البورليتاريا ومصالح الفلاحين في حالة منسجمة تماماً ، والمحافظة على هذا الجهاز ، وغني عن البيان اننا ما زلنا بعيدين كل البعد عن هذا النظام ، وليس هناك شك بأنِ ضرورة الاحتفاظ بجيش قوي دائم هي أيضاً مصدر هام آخر للبيروقراطية .

٧ ـ لقد تأثر عدد كبير من زملاء تروتسكي الذين كانوا يرزحون تحت أعباء المنفى تأثروا كثيراً بهذه الصناعة السياسية فسارعوا الى انكار معارضتهم ووضع حد لها وقدموا الطاعة لنظام ستالين . وقد عاد كثير منهم من المنفى وأخص بالذكر هنا بريبُرازنسكي نفسه الذي أشغل عدة مناصب مختلفة الأهمية إنما لم يشغل أي منصب ذي أهمية مرموقة . ولكن جميع هؤلاء المرتدين دفعوا ثمناً غالياً لهذا القرار إذ أن ذلك قد كلفهم قطع رؤوسهم جميعاً قُبيْل نهاية الثلاثينات من القرن العشرين .

٨ ـ ناقش هذه النقطة بشكل مقنع ف . كوهين في كتابه « بوخارين والثورة البلشفية » وفيه دراسة متكاملة لكل من يهتم بنتائج البلشفية .

٥ ـ التجوال والمنفى والعمل :

١ ـ سانحرف عن الموضوع لأسرد عليكم حادثة أعتقد انها جديرة بأن يحتفظ بها . حضر صديق لي ، وهو اشتراكي طيلة حياته واسمه لويس كوسر Louis Coser حفلة استقبال اكاديمية في كمبردج ، مساشوستس قبل بضع سنين . وكم كانت دهشته عظيمة عندما قدموه الى رجل اسمه مارك زبوروسكي Mark Zborouski الذي كان قد تبين بانه من أفراد الغستابو وانه قد لعب دوراً كبيراً في قتل رودلف كليمنت Rodolph Klement وهو شاب تروتسكي ، في باريز وبامتعاض مهذب رفض كوسر ان يصافح

زبوروسكي وقد استاء من هذا العمل عدد من الأكاديميين الأحرار الذين كانوا حاضرين . ويبدو انهم استاؤوا من تصرف كوسر الذي اعتبروه عملاً غير مهذب اكثر من استيائهم من زبوروسكي الرجل ذي الماضي المشين الملطخ بالدم ، ولقد مضى وقت طويل على بعض الأحرار ليعرفوا عن ماهية الستالينية ، ويجدر بي ان أقول هنا أن بعضهم لم يعرفوها أبداً .

٢ ـ تبعتْ هذه السياسة احدى ملاحظات ستالين : « ليست الفاشية إلاّ منظمة حربية برجوازية تعتمد على التأييد النشيط للديموقراطية الاجتماعية . موضوعياً تصبح الديموقراطية الاجتماعية الجناح المعتدل للفاشية والمنظمتان لا تتناقضان بل تكمّل الواحدة الأخرى ليستا متضادتين بل توأمين » لا نكاد نستطيع أن نقدم مثالاً على هذا الحديث إلا قول فولتير : السخافة تؤدي إلى الوحشية » .

٦ ـ التراث الأخير :

١ ـ يقدم هذا التقرير دليلاً ممتعاً عن أفكار تروتسكي في أواخر أيامه . فعندما سأله فاينرتي Finerty إذا كان للحكومة الثورية الحق بأن تلجأ الى الارهاب أجاب تروتسكي : إنه ليس حقاً معنوياً وآمل أنه بعد انتصار واحد أو انتصارين في البلدان الأخرى تصبح الثورات ثورات وُدية تماماً . قال فاينرتي : « ثورات غير دامية » ؟ تروتسكي : « نعم ، ثورات بلا دم . ولكن الروّاد قساة في كل مكان وأعتقد أن الأمريكان يعرفون ذلك أكثر مني » .

٢ ـ أثناء بحوثه قابل البروفسير نيفادا Nevada السيدة ببا آيدلسن Mrs. Beba Idelson وهي زعيمة يهودية صهيونية اشتراكية في فلسطين ، وكانت قد زارت تروتسكي في المكسيك . كتبت السيدة ايدلسن في مذكراتها تقول : تحدثت معه (تروتسكي) ليس كَمَنْ تتحدث الى غريب . كنت أشعر باحساس قوي بأنه يهودي تائه دون أرض أجداد » . وقد استمر تروتسكي في مدى ثلاث ساعات يسألها أسئلة حادة عن سياسات واقتصاديات المستوطنات اليهودية . وعندما سألته السيدة ايدلسن « هذه بلاد مستعدة بأن تستقبلك وتعترف بك فلربما تأتي إلى فلسطين يوماً ما » أجابها بهدوء : « ألا تخشون من استقبالي ؟ أجابته « لا لن نخشى ، لأن فكرتنا أقوى من أي خوف من اي انسان حتى ولو كان مثلك » ومن الجلي أن تروتسكي تأثر من إخلاصها إذ عند انتهاء الحديث طلب منها « أرجو أن يبقى هذا الحديث بيننا فقط ، إن العالم لن يفهم » . لقد انتظرت تسع عشرة سنة حتى قصت قصتها .

ماذا « سوف لا يفهم العالم » لا يمكن لأحد أن يتكهن ويعرف تماماً ولكن يمكنني أن أخمن بأنه لو عاش تروتسكي مدة أطول لأصبح له الحق بدخول الدولة الجديدة الاسرائيلية تحت « قانون العودة » .

٣ ـ وقد قدم نظريات مماثلة كتّاب يساريون امثال رودلف هلفردنج Rudolf Hilferding الاقتصادي الديموقراطي النمساوي وبعد ذلك ميلوفان Milovan دجيلاس اليوغسلافي والشيوعي سابقاً وجوزيف كارتر الاشتراكي الامريكي غير المعروف كثيراً .



فهرســـت





